

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد الحادي والثمانين

٢٧ صفر سنة ١٣٥١

١ يوليو سنة ١٩٣٢

الفضاء بين النجوم

هل هو فراغ تام او فيه بقايا سديم كوني

تقدم علماء الفلك في العصر الحديث ، تقدماً عظيماً في قياس ابعاد النجوم ، ولكنهم لم يحصروا عنايتهم في قياسها بطريقة « زاوية الاختلاف » بل اعتمدوا على وسائل حديثة سبيكترسكوبية واحصائية ، ثبتت صحة نتائجها باتفاقها والآراء الفلكية المسام بها . فأسفر هذا البحث الشاق عن صورة جديدة للكون النجمي فاذا هو مجموعة من الوف ملايين النجوم منشورة في فضاء رحب شديداً ما يسترعي انتباهك فيه فراغه العظيم . فانك اذا فرضت وجود اربعة من صغار الاسماك في المحيط الاثنتي رسمت لنفسك صورة تبين رحابة الفضاء الكائن بين النجوم ولقد كان من الراسخ في روع الباحثين ، من عهد غير قريب ، ان الفضاء الكائن بين النجوم ليس فراغاً تاماً . فقد شاهد الراصدون ، ان اشعة الضوء الذي تمر في رحاب الفضاء تتشتت ، وهذا التشتت لا يمكن ان يتم اذا كان الفضاء مفرغاً فراغاً تاماً من المادة ، ولا بد ان يحتوي هنا وهناك على ذرة تامة او الكترون شارد . والواقع ان الصور الفوتوغرافية التي صورت لمناطق مختلفة من الفضاء ، وخصوصاً مناطق المجرة ، تثبت وجود نواح تملأها مادة غازية كثيفة تحجب ضوء النجوم التي وراءها فتمنع وصوله الينا بامتصاصه . وبعض هذه اللطخ الغازية ذو معالم وحدود واضحة ، وبعضها لا حدود له ولكن كثافته تقل رويداً رويداً الى ان يندمج في ما نحسبه عادة الجلد الصافي الاديم

هذه المشاهدات تشير اشارة لا لبس فيها ولا ابهام الى احتمال وجود مادة منتشرة انتشاراً دقيقاً في رحاب الفضاء الذي بين النجوم
 بسط ادنجتون Eddington اولاً هذا الرأي في خطبته الباكريّة (Bakerian) من نحو خمس سنوات واثبت بالدلة الراجحة ان الفضاء بين النجوم ليس مفرغاً بل هو «ممتلئ» مادة . وليس المراد بلفظ «ممتلئ» هنا احتشاد المادة فيه حتى لايسع شيئاً علاوة على ما فيه ، وانما يقصد معناها النسبي اي اننا لا نجد ناحية معينة في رحاب الفضاء مفرغة فراغاً تماماً من المادة ولو في ألطف حالاتها . بل ان في الفضاء من الذرات المنتشرة فيه ما يكفي لوجود ذرة واحدة في كل سنتيمتر مكعب منه
 هذا كان رأي ادنجتون وادلتة النظرية . وقد انقضت الآن خمس سنوات ، اثبت الراصدون في اثنائها ، بالمشاهدة صحة هذا الرأي ، بل ان حديث التقدم في هذه الناحية من الطبيعيات الفلكية من افتن الاحاديث العلمية للب . والغريب ان هذا الاكتشاف نشأ — كطائفة كبيرة من المكتشفات — من مشاهدة شذوذ أو انحراف عن القاعدة العامة في اثناء بحث مسألة علمية أخرى

* * *

في علم الطبيعة مبدأ يعرف بمبدأ دبلر (Doppler) مؤاده ان اقتراب جسم يحدث صوتاً اليك في اثناء احداثه للصوت ، من شأنه ان يقصر امواج الصوت ، وان ابتعاده من شأنه ان يطيلها . وعليه فاذا كنت واقفاً وكان قطار صافر متجهاً اليك قصرت امواج التصفير وارتفع صوتها . واذا كان مبتعداً عنك طالت امواج التصفير وخفت صوتها . وكان السر ولیم هجنز (Huggins) الفلكي البريطاني ، يبحث في هذا الموضوع من نحو خمسين سنة ، فخطرت له ان يطبق هذا المبدأ على امواج الضوء ويستعمله في قياس سرعة النجوم . فاذا كان نجم من النجوم مقترباً منا كان طول كل موجة من امواج الضوء الذي يشعه اقصر من طول امواج الضوء المماثل له على الارض . فاذا حللنا ضوء النجم المقرب بالسبكتروسكوب حادت الخطوط المظلمة الخاصة بالنجم الى جهة اللون البنفسجي . واما اذا كان النجم مبتعداً عنا فان الحيود يكون الى جهة اللون الاحمر . فمن معرفة جهة الحيود تعرف جهة سير النجم اقتراباً منا أو ابتعاداً عنا . ومن معرفة مقدار الحيود تعرف سرعته . وقد طبقت هذه الطريقة في طائفة كبيرة من اشهر المراصد فقيست بها سرعة الوف من النجوم . واستعملت أخيراً في قياس سرعة السدم اللولبية التي خارج المجرة فثبت ان بعضها يبتعد عنا بسرعة نحو ١٥ الف ميل في الثانية . وهذا مما حدا بالعلماء الى القول بان الكون آخذ في الاتساع كأنه فقاعة صابون ينفخ فيها

ولا بد هنا من كلمة عن الحل الطيفي قبل ان نبين كيف استعملت هذه الطريقة لاثبات رأي ادنجنن السابق الذكر

وضع كرشوف من نحو سبعين سنة اصول الحلّ الطيفي — السبكتروسكوبي — وقد كان للآلة المعروفة بالسبكتروسكوب اكبر أثر في توسيع معارفنا الفلكية في نصف القرن الأخير. وهذا لا ينفي وجوب استعمالها دائماً مع التلسكوب الذي يجمع الأشعة التي تحل بها. والمبدأ الذي تقوم عليه هذه الآلة هو ان النور اذا مر في موشور انكسر انكساراً يختلف باختلاف طول موجته. اي ان امواج اللون الأحمر اقل انكساراً من امواج اللون الأصفر وامواج اللون الأصفر اقل انكساراً من امواج اللون البنفسجي. وهكذا نستطيع ان نحل نور الشمس الابيض الى الالوان التي يتألف منها بمراره في موشور مثلث او قطعة زجاج مخططة طولاً وعرضاً بخطوط قريبة جداً بعضها الى بعض (grating)

وقد اثبت كرشوف ان للاجسام المنيرة طيفاً مختلفاً يستطاع تبويبها ثلاثاً : (الأول) يعرف بالطيف المستمر : وهو الحاصل من حلّ نور منبعث من اجسام صلبة متوهجة او سوائل او غازات مضغوطة ضغطاً عظيماً : (الثاني) يعرف بطيف الخطوط الالامعة او طيف الغازات وهو طيف النور المنبعث من غازات او البخرة متوهجة مضغوطة ضغطاً متوسطاً او واطئاً : (الثالث) يعرف بطيف الخطوط المظلمة وهو طيف نور منبعث من مادة تستطيع ان تمتص جانباً من النور المنبعث منها . وبالثالث من هذه الطيف فسر كرشوف خطوط فرونهور في طيف نور الشمس التي كانت لا تزال سرّاً مغلقاً ^(١). وباستعمال السبكتروسكوب تمكن العلماء من معرفة حالة النجوم والسدم الطبيعية . فعرفوا مثلاً ان السديم الكبير الذي يظهر في الفضاء قرب كوكبة الجبار غازي وان السديم قرب المرأة المسلسلة غير غازي

ولما كان معروفاً لدى العلماء ان كل عنصر من العناصر الكيماوية التي تتركب منها قشرة الأرض اذا توهج وحلّ نوره ظهر في الطيف خط واحد — او اكثر — يتميز به عن غيره، استعملوا هذه الطريقة للكشف عن العناصر في الكواكب والسدم . وبتطبيقها على الشمس ثبت ان فيها تسعاً واربعين عنصراً من عناصر الأرض الاثنتين والتسعين . والواقع ان عنصر

(١) خطوط فرونهور . اذا حللنا نور الشمس بسبكتروسكوب الى الوانه السبعة المرئية وجدنا في مناطق الالوان المختلفة خطوطاً سوداء دقيقة . هذه الخطوط راقبها اولاً ولستن الانجيزي سنة ١٨٠٢ ثم عني بها فرونهور الالماني سنة ١٨١٤ واحصى نحو ٧٠ خط منها فنسبت اليه . وتعلمنا ان كل غاز او بخار يتميز بالامواج التي يطلقها اذا توهج . فاذا حللنا طيف النور المنطلق من قطعة صوديوم محترقة وجدنا مثلاً خطاً اسود في مكان معين في منطقة اللون الاصفر . هذا الخط يتميز به عنصر الصوديوم فاذا وجدنا في طيف الشمس خطاً في منطقة اللون الاصفر يتفق من كل الوجوه مع خط الصوديوم حكمنا ان في جوالشمس صوديوماً هكذا

الهليوم كشف عنه في الشمس قبل الكشف عنه بين عناصر الارض . فقد كشف عنه سنة ١٨٦٨ في لهب اخضر اللون من لهب اللسنة المندلعة من الشمس في اثناء الكسوف . ودعي «هليوم» نسبة الى اسم الشمس اليوناني «هليوس» وظل مجهولاً بين العناصر الارضية الى ان كشف عنه السروليم رمزي سنة ١٨٩٥ وما يستخرج منه الآن يستعمل في الغالب ملء البالونات المسيرة لانه لا يلهب كالايديروجين

وقد استعملت خطوط فرنهوفر حديثاً لمعرفة نسبة العناصر التي في الشمس بعضها الى بعض . وذلك بدرس عرض الخطوط التي تظهر في الطيف ونسبة عرض الواحد منها الى الآخر . ثم استعملت هذه الخطوط ايضاً لمعرفة شيء عن حركة الاجرام السماوية فقد ثبت انه اذا كان الجرم السماوي متجهاً نحونا فان حركة الخطوط في طيفه تتجه من الاحمر الى البنفسجي . واذا كان مبتعداً عنا فان حركة هذه الخطوط في طيفه تتجه من البنفسجي الى الاحمر . لان عدد الأمواج التي تصلنا منه في الحالة الأولى آخذة في التزايد والقصر وفي الحالة الثانية آخذة في التناقص والطول . فاتجاه حركة هذه الخطوط وسرعتها تمكن العلماء من معرفة اتجاه الاجرام السماوية بالنسبة الى الارض وسرعتها . وبالجري على المبدأ ذاته يستطيع الكشف عن النجوم المزدوجة واثبات دوران الارض حول محورها

ومن اول الذين وجهوا عنايتهم الى هذا الموضوع الدكتور هارتمان احد علماء مرصد بوتسدام الالماني فلم يلبث ان صرح انه في اثناء درسه خطي الكسبيوم في طيوف بعض النجوم وجد ظاهرة غريبة لا تتفق ومقتضيات مبدأ دبلر المذكور ذلك انه لاحظ ان خطي الكسبيوم لا يحيدان الى جهة اللون البنفسجي ولا الى جهة اللون الاحمر كما تحيد بقية خطوط الطيف ، وهذا من المفارقات ! فاذا كان نجم من النجوم يسير سرياً سريعاً نحونا فلا بد من ان تحيد الخطوط في طيفه نحو اللون البنفسجي . واذا كان مبتعداً عنا فلا بد من ان تحيد الى جهة اللون الاحمر . ومن الغريب ان هارتمان وجد ان كل خطوط الطيف تحيد الى احدي الجهتين الا خطاً الكسبيوم وحياناً خط الصوديوم

وما صرح هارتمان بتصريحه المتقدم حتى عني الراصدون بتحقيق مشاهدته فأبسدوها بمشاهداتهم . ومن ثم اخذوا يقترحون النظريات لتعليلها

ولا يخفى ان الارض في اثناء سيرها في الفضاء تنقل معها غلافها الغازي المكون من غازات باردة وكذلك النجم ينقل معه في اثناء سيره غلافاً من الغازات التي تحيط بكنتله الغازية الشديدة الحمى . فاذا انبثقت من داخل النجم اشعة ومرت في جوف الغازي الخارجي — البارد اذا قيس ت حرارته بحرارة قلب النجم — واذا كان في هذا الجو الخارجي ذرات عنصر الكسبيوم

الموجبة الكهربائية ، ظهر خط الكليسيوم في طيف ضوء النجم مع خطوط العناصر الأخرى ، وهو خط مظلم من خطوط فرونهوفر لأنه حدث بالامتصاص . ولكن الغريب ان خطوط الطيف الأخرى تحيد الى جهة الأحمر او جهة البنفسجي بحسب ابتعاد النجم أو اقترابه ، وأما خط الكليسيوم لا يحيدان ولذلك عُرِفَاها وما مثلهما « بالخطوط المستقرة » Stationary ألا يجوز ان تكون ذرات الكليسيوم منتشرة في الفضاء بين النجوم وبهذا يعلل استقرار خطي الكليسيوم في طيوف النجوم ؟

وما منشأ هذا الكليسيوم الذي في الفضاء النجمي ؟
هل هو مادة منبعثة من النجوم الجبارة في اثناء سيرها في الفضاء ؟
او هو بقايا سديم كوني نشأت منه النجوم بالتجمع الجاذبي ؟

ولما تناول الدكتور ستروث Struve أحد علماء مرصد يركيز Yerkes الأميركي هذا البحث اثبت أنه كلما زاد بعد النجم عن النظام الشمسي زاد ظهور الخطوط « المستقرة » في طيفه . وهذا يعلل بان الضوء مرّ في مسافات شاسعة من السحاب الكوني المائي للفضاء بين النجوم فزاد امتصاص هذا السحاب لضوء الكليسيوم فزاد ظهور خطيه في الطيف ولم يلبث العلماء ان وجدوا ان هذه الخطوط تحيد الى احد طرفي الطيف ولكن حيودها ضئيل جداً اذا قيس بحيود الخيوط الأخرى . لذلك عدلوا عن تسميتها بالخطوط المستقرة وقالوا انها خطوط ما بين النجوم interstellar

وجاء الاكتشاف المتوَجِّع لهذه المباحث لما ثبت ان هذا الحيود الضئيل في خطي الكليسيوم وما يمثلهما يمكن تعليله تعليلاً دقيقاً بافتراض ان المجرة تدور حول مركزها وهو ما اثبتته المباحث الفلكية الأخرى (راجع مقالة « ما وراء المجرة » في مقتطف يناير ١٩٣٢) ويرى الاستاذ ادنجهتسن ان « بقايا السديم الكوني » المألثة لرحاب الفضاء النجمي ليست كليسيوماً فقط او كليسيوماً وصوديوماً . ولكن احوال الرصد مكنتنا من مشاهدة خطوط هذين العنصرين قبل غيرهما . بل هو يذهب الى ان هذا السديم الكوني يحتوي على كل العناصر التي على الارض

اما كثافة بقايا « السديم الكوني » فواطئة جداً لا تزيد عن كثافة نفخة مدخن وقد تمددت حتى ملأت فضاء سبعة الف ميل مكعب ! على ان رحاب الفضاء تفوق التصور في سعتها . وعليه فهذا الغاز المتناهي في اللطافة الذي يملأها تبلغ كتلته نصف كتلة النجوم . فاذا سلمنا بهذا الرأي الجديد قلنا ان المادة الاصلية التي تكونت منها النجوم ، تحوّل ثلثها نجومياً وبقي الثلث الآخر مادة لطيفة منتشرة في رحاب الفضاء

حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا

وكيل الداخلية للشؤون الصحية

لمحة تاريخية

من اراد البحث في حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر وجب عليه ان يستعرض الحالة التي كانت عليها البلاد في العصور الغابرة حتى يمكنه ان يزن الحالة الحاضرة بالمقابلة بين العهدين ويقدر النشاط الصحي الحالي التقدير الصحيح مع مراعاة العادات القومية والامراض المحلية ودرجة المدنية في العصور المختلفة كما لا يغيب عن البال ان تقدم الصحة العامة لا يقاس بالنتائج التي أفضى اليها هذا التقدم فحسب بل بمقدار الاعمال التي كان من شأنها الوصول الى هذا القدر من التقدم ان تقدم الصحة العامة يمضي جنباً الى جنب مع تقدم الطب ومع انتشار التعليم بين افراد الامة وفيها في نواحي حياتها المختلفة لان ارتفاع مستوى العناية بالحالة الصحية العامة لم يأت في الواقع الا من طريق تطبيق ما بلغته فروع الطب من النماء في الازمنة المختلفة ولهذا السبب استنسب رجال الصحة ان يطلقوا على فرع الطب الذي يعنى بالصحة العامة اسم « علم الطب الوقائي » لانه لا يقتصر على العناية بالملابس التي تحيط بالانسان فقط كما يتبادر للفهم من تعريف مداه بعبارة (الصحة العامة) ، ولا المظاهر الاكلينيكية للمرض ووسائل الوقاية منه بل يشمل سبر غور التطورات التي تحدثها الاصابة بالمرض في جسم الانسان ومعرفة مدى قوة دفاع خلايا الجسم وسوائله ضد الامراض أي معرفة القوة الحقيقية للجيش المدافع عن الانسان. فهذا الفرع يجمع كل جهود فروع الطب التي عرفت منذ خلق الانسان حتى الآن ويوجهها لغاية واحدة في دائرة مداه الواسعة اما الغايات التي يرمي اليها دائماً مهما اختلفت الوسائل وتنوعت الطرائق فهي:

- ١- تقوية بنية الفرد وبذلك تزداد قوة مقاومته للأمراض وتعملو تبعاً لها كطريقة للعمل

المنتج وهي بيت القصيد

- ٢- الوقاية من الامراض باستئصال شأفة أسبابها أو قمعها ومنع انتشارها بامتلاك ناصيتها

- ٣- اطالة العمر وتقليل الوفيات

وكل من تتبع تاريخ الطب الوقائي أو تاريخ الطب بصفة عامة رأى ان كل الابحاث والملاحظات لا تتجه الى غير هذه الغايات سواء أكان السير اليها بطيئاً كما حصل في العصور السالفة أم سريعاً كما شاهدنا في القرنين الاخيرين ، وسواء أكان البحث متجهاً الى الوصول الى غاية واحدة

من هذه الغايات الثلاث أم الى اثنتين أم اليها كلها كما هو الحاصل في عصرنا الحاضر. ولقد قامت كل أمة من الامم القديمة والحديثة بنصيب في تقدم الصحة العامة وكان كل نصر جديد في تفهم طبيعة الامراض يعبد السبيل لنصر آخر يليه بل وافتتح جديد حتى بلغنا الى التقدم الحالي وستستمر الفتوح بعون الله فتزداد المعرفة لاسرار الكون بالكشف عن حقائقها وفتح مغاليقها حتى انني لا اغالي لو قلت انه لو بحث احدنا بعد جيل أو اثنين لادهشه ، ما تكون عليه الحالة الصحية العامة من التقدم واذا أعاد الى مخيلته صورة ما كان يظنه المثل الاعلى لما يجب ان تكون عليه هذه الحالة في عصرنا الحاضر لرآها — بالمقابلة بما سيكون عليه العالم — رسماً خيالياً من البساطة بكان. ولكن أحفادنا لا يستطيعون على اي حال ان ينكروا انه لولا ما جادت به قرائح اجدادهم في عهدنا الحاضر بل وفي عهد اجدادنا لما تقدم العالم قيد خطوة بل لفنيت الدنيا ومن عليها بما انتابها من الشرور الاجتماعية وجوائح الامراض القتالة لانه لم يخل عصر من العصور من وباء فتاك أو غصبة تكشر فيها الطبيعة عن نابها ويبدو أثرها باحد مظاهر التدمير والتخريب كفيضان الانهار وثوران البراكين او زلزلة الارض ولا عاصم يومئذ للناس الا بمقاومة طغيان الطبيعة بيد العلم والعرفان ومصر كانت اولى الامم التي عملت على رفع مستوى الطب والصحة العامة فهي اقدم امم الارض حضارة وعاماً ومنبت اول انتصار ناله الانسان على الامراض. ومن ناحية الصحة العامة كان قدماء المصريين يباهون بانهم اصح بني آدم وكان دأبهم الاخذ بكل حيلة ليتمتعوا بالصحة الجيدة ولذلك كانوا أمة تعنى باسباب البأس والالعب الرياضية وشعارها « درهم وقاية خير من قنطار علاج » وكانوا يدرسون الطب في جامعات عين شمس ومنف وطيبة والاسكندرية حيث كانت مهبط العلم وقبلة طلابه وقد كرم موسى عليه السلام كئوس العلم مترعة في جامعة عين شمس وتهدب بكل حكمة المصريين — وقد نقل اليونان علوم مصر الى بلادهم وقت ان كان المصريون يعرفون الكثير عن القبالة وعملية الختان وعلم الصحة والجذام والامراض الجلدية ويكفهمهم فخرًا ان أبقرات الملقب بأبي الطب من تلاميذهم وهو صاحب القول الحكيم « على الطبيب اذا اراد ان لا ينجذع نفسه أو ينجذع غيره ان يلم بما كان يعرفه من سبقوه » لان خير وساطة للتجديد في مختلف العلوم هي البناء على الاسس الصالحة من القديم

ان المقياس الاول لتقدم الصحة العامة هو النظافة العامة وقد كان قدماء المصريين كثيري الرعاية لذلك خصوصاً في اشخاصهم وهذا مما ادى الى ترقية عاداتهم وقد ذكر هيرودوتوس في كتابه الثاني ابان زيارته لمصر في القرن الخامس قبل الميلاد قوله « لانزع في ان المصريين هم اكثر تديناً من اي أمة اخرى ومن عاداتهم انهم يشربون في كئوس من البرونز يغسلونها يومياً وهذا لا يقوم به البعض فقط بل الكل على السواء وهم جد حريصين على ارتداء الملابس البيضاء المغسولة حديثاً وهم يهتمون مراعاة للنظافة التي هي شعارهم وهم يفضلونها على الظهور بالمظهر الحسن وكهنتهم

يخلقون جسمهم كله مرة كل ثلاثة ايام حتى لا يعلق بأجسامهم القمل أو غير ذلك من الحشرات النجسة اثناء قيامهم بخدمة الآلهة وكذلك يغتسلون بالماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل» وقد لاحظ هيرودوتوس أيضاً وجود البعوض بكثرة وكان المصريون يتقون شره بالصعود الى الابراج التي تعلو المناقع ليناموا بعيدين عن متناول البعوض الذي كانت تحول الرياح دون وصوله اليهم واما الذين كانوا يعيشون بقرب المناقع فانهم كانوا ينصبون اثناء الليل شبكات صيد الاسماك على فراشهم وكانوا يرسلون من تحتها للوصول الى الفراش منعاً لتسرب البعوض الى داخلها فالمصريون والحالة هذه هم اول من انتبهوا لمضار البعوض ولا تقاؤه ضرره بأبسط الوسائل ومن الذين درسوا الطب بمصر وكان له القدر المعلن في وضع أسس الطب الوقائي جالينوس الذائع الصيت الذي كان تلميذاً للمصريين اذ رضع لبان العلم بجامعة الاسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد واحاط بكل ما عرف عن الطب في وقته ومما هو جدير بالذكر في هذا الموطن انه وان كان الفضل يرجع الى ابقراط في تقسيم اسباب الامراض الى انواعها تبعاً للفصول او المناخ او العوامل الخارجية او العوامل الشخصية كنوع الغذاء او العادات او ممارسة التمرينات الرياضية وهو صاحب المبدأ القائل بان فعل المرض يكون بالهجوم من جانبه ويقابله الدفاع من جانب الجسم اى انه الكاشف الاول لكفاية الطبيعة على الشفاء وان الطبيب الماهر هو الذي يدرس وسائل مقدرتنا هذه ثم يقلدها — وان كان ما تقدم كله ينسب فضله الى ابقراط الا ان جالينوس كان اول من اعلن ملأ الاطباء ان علم وظائف الاعضاء هو دعامة الطب وقد جعله علماً قائماً بذاته وجمع كل ما عرف عن الطب في زمنه وصقله اسوة بابقراط واستمرت مؤلفاته المرجع الاعلى للعلوم الطبية غرباً وشرقاً زهاء اربعة عشر قرناً وكان ينصح تلاميذه بزيارة جامعة الاسكندرية التي انشأها بطليموس الاول اذ هي موطن الدراسة الصحيحة لعظام الانسان . وقد ظلت هذه الجامعة شمس العالم التي يستضيء الكل بنورها ومنبع العلم والعرفان الذي يرتوي منه كل طالب للحقيقة وذلك حتى سنة ٢٠٠ بعد الميلاد ثم بدأت في الانحطاط الى أن ذهبت ريحها واندثرت في سنة ٦٤٠ ميلادية عندما فتح العرب مدينة الاسكندرية وكانت العلوم الطبية قد اضمحلت بمصر قبل انتقالها الى اليونان زمن وكان التشريح قد منع من سنة ٥٠٠ ميلادية ففرق رجال العلم ايدي سبا وهاجروا الى بلاد الشام وفارس وليس من شك في ان الحالة الصحية قد اضمحلت في البلاد كذلك تبعاً لاضمحلال معاهد الطب الذي عدت على علومه فنون الشعوذة والدجل واصبح اراً مشوهاً بعد ان كان جنة قطوفها دانية وفيها من كل فاكهة زوجان ثم سطع على مصر نور الطب العربي في زمن ازدهاره في الفترة من سنة ٧٥٠ الى ١٢٥٠ ميلادية وقد ظهر بمصر في اوائل هذا العهد كتاب في الطب القبطي جمع بين دفتيه مائتي «وصفة» لأمراض العيون والمعدة والرحم والبواسير والحجوب وأمراض جلدية اخرى



حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا
وكيل الداخلية للصحة وطبيب الاسرة المالكة الخاص

امام الصفحة ١٣٣

مقتطف يوليو ١٩٣٢

وقد استفادت مصر كثيراً من الطب العربي وآوى الى ظلها الظليل واشتغل بالتأليف والتصنيف في اثناء هذه الفترة من تاريخها طائفة كبيرة من مشهوري الاطباء العرب كيميون الموسوي وابن العيني وابن الفارس والنباتي الشهير بابن البيطار الذي شغل بمصر وظيفة الصيدلي الاول التي تعادل الآن وظيفة مدير قسم الصيدليات وقد انشأ ابن طولون في سنة ٨٧٥ ميلادية اول مستشفى في ذلك العصر وعززه الملك كافور الاخشيدي بمستشفى غيره في سنة ٩٥٧ وكانت توجد دار اخرى للعلاج في مصر القديمة وفي سنة ١٠٠٥ اسس الحاكم دار الحكمة بالقاهرة وهي اشبه بجامعة منها بدار طب وكان الفاطميون قد بدأوا في تأسيس جامعة بالاسكندرية احياء لجامعتها القديمة كما اسس صلاح الدين مستشفى الناصري والنوري وقد اشتغل ابوصبيعة في المستشفى الاخير وكان الطب يدرس في هذه المستشفيات ثم اتى عبد اللطيف البغدادي دروساً في الطب بالازهر في سنة ١١٩٣

ولا يمكن انكار ما قام به الطب العربي في خدمة الصحة العامة لا في مصر وحدها بل وفي العالم اجمع فالعرب وان كان اغلب طبهم منقولاً عن طب جالينوس غير انهم ابتكروا الكثير ايضاً مما يخرج تعداده عن موضوع هذا البحث . ومن ابرز ابتكاراتهم تفريق الرازي بين الحصبة والجذري وتأسيسهم للمستشفيات وابتداعهم الامتحانات والاجازات الطبية وتنظيمهم فن الصيدلة والكيمياء ومحافظةهم على ما ورثوه من العلوم الطبية عن اليونان . وخلاصة القول ان العرب هم واسطة الاتصال بين مدينة الاغريق ومدينة اوربا الحديثة وفضلهم على عصرنا الحاضر لا ينكر ولقد كان من الطبيعي ان يرث المصريون عن العرب علومهم الطبية ولكن ارادت العناية الالهية ان يفتح العرب الاندلس وينتشر العلم العربي من هناك الى اوربا فيزدهر وينمو حتى يصل الى اوجه — كما اتى على مصر حين من الدهر لم تكن فيه شيئاً مذكوراً اظلمت فيه شمس العلم وافل نجم الطب وسادت الفوضى ألا وهو عصر المماليك ولقد شد عنهم احدهم وهو السلطان قلاوون الذي انشأ البيمارستان الكبير في سنة ١٢٨٦ وحبس وفقاً للانفاق عليه وهو باق حتى الآن وان كان قد خصص للعيون بعد ان كانت تعالج به في اول انشائه كل الامراض ثم خصص للمجاذيب واستمر هكذا حتى سنة ١٨٥٦ ميلادية . ولا ننسى مستشفى المؤيد الذي كان موجوداً حوالي ١٤٢٠ ميلادية . ولما استولى العثمانيون على مصر في سنة ١٥١٧ لم تكن حالة الطب او الصحة العامة باحسن منها في عهد المماليك وقد اجتاحت البلاد في العهدين جائحات من الاوبئة لا يتسع المجال لوصفها وكانت تترك تأكل في العباد كما تأكل النار الهشيم . وقد وصف المؤرخ المشهور الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ما شاهده اثناء انتشار وباء الطاعون الذي ابتداء في اواخر شهر جمادى الاولى سنة ١٢٠٥ هجربة وذكر احواله التي تشيب ناصية الوليد وقال ما يدل على انه لم يتحرك احد من اولي الامر لمكاخته وقد مات به ما لا يحصى

من الاطفال والشبان والجواري والعبيد والممالك والاجناد والكشاف والامراء وامراء الالوف وتوفي من الصناجق نحو اثني عشر صنjqاً . وكان يخرج من بيت الامير في المشهد الواحد الخمسة والستة والعشرة ولم يبق للناس شغل الا الموت واسبابه فلا تجد الا مريضاً او ميتاً او عائداً او معزياً او مشيعاً او راجعاً من صلاة جنازة او دفن ميت او مشغولاً في تجهيز متوفى او باكياً على نفسه وهي تكاد تطير شعاعاً فرقاً من الموت وندر جداً من يشكو المرض ولا يموت . وندر ايضاً ظهور الطعن باجسام المرضى ولم يكن يشعر المريض بالحجى بل يكون جالساً فتأخذه رعدة من البرد فيتدثر ولا يفيق الا مغلطاً او يموت من نهاره او ثاني يوم وربما زادت فترة مرضه او نقصت عن ذلك وقد استمر فعل الطاعون الى اوائل رمضان ثم اضمحل شأنه ولم يقع بعد ذلك الا قليلاً نادراً ومات الاغا والوالي اثناء ذلك فولوا خلافيهما فماتا بعد ثلاثة ايام فولوا خلافيهما فماتا ايضاً واتفق ان الميراث انتقل ثلاث مرات في جمعة واحدة

ثم اتى بعد ذلك عصر الفرنسيين بقيام نابليون الاول في سنة ١٧٩٨ بحملته على مصر . ويمكن اعتبار هذا الفتح مبدأ لتاريخ الصحة العامة بالبلاد كما يعتبر مبدأ تاريخها الحديث وقد اصطحب نابليون مائة من اعظم علماء فرنسا المجهزين بالكتب والآلات العلمية كما استحضر معه مطبعة عربية وقد ادخل الكثير من الاصلاحات الصحية العامة ككنس الشوارع ورشها في اوقات معينة ووضع مصباح على كل منزل وقام علماءه ببحوث علمية قيمة وآثار مجمعم في اوقات معينة و زالت تذكر لهم بالفخر العظيم . وليس من شك في ان هذه الحملة كانت من الحوافز الهامة لادخال اسباب المدنية الغربية بمصر وكانت الخطوة الاولى في حكم المصريين لانفسهم وذلك بما انشأه نابليون بالبلاد من مجالس ولجان اسوة بما عمله في غيرها من الممالك مما كان السبب في غرس بذور الشعور بالكرامة الوطنية والاهلية وقد مهد عمله هذا السبيل لبزوغ نجم محمد علي الكبير منشىء مصر الحديثة الذي رفعته مصر فرفعها واحبته فاحبها

وقد قام اطباء الجيش الفرنسيين بابحاث قيمة حيث اصدر ديجنيت الطبيب الاول للجيش امراً الى اطبائه ان يقوموا بابحاث طبية وطبوغرافية لجميع الجهات التي يحلون بها . وانشأ نابليون ادارة تقوم بتنفيذ الاجراءات الصحية المتبعة في موالي كثيرة بالبحر الابيض المتوسط وقد وجه الاطباء عنايتهم الى الصحة العامة محافظة على جيشهم وقد داهمهم وباء طاعون شديد الوطأة علاوة على التهاب العيون الذي اصاب الكثيرين من رجال الجيش وقد اتخذ الاطباء احتياطات شديدة لقمع الوباء كحرق الامتعة وغيرها وقد كانت توجد في طول مدة وجود الحملة تقريباً ادارة صحية وان كان جل همها العناية بصحة الجيش وقد انشأ عدة مستشفيات عسكرية بالازبكية والجيزة وقصر العيني ودمياط ورشيد وغيرها كما قامت تلك الادارة بنشر الدعوة الصحية وخصوصاً ضد الجدري حيث طبعت نشرة عنه باللغة العربية ووزعت على كبار

الاعيان بواسطة الديوان الكبير وحتى على السيدات بواسطة السيدة نفيسة هانم زوجة مراد بك الكبير . وقد مات من رجال الحملة من يوم خروجها من فرنسا حتى نهاية السنة الثامنة (بالتوقيت الفرنسي الجديد المتبع وقتئذ) ٨٩١٥ توفي منهم بالطاعون ١٦٨٩

ومن المذكرات الطبية القيمة التي دونها الاطباء مذكرة للدكتور بروانت عن الرمد واخرى عن الدوسنتارية ومذكرة عن الرمد لسفارسي وعدة مذكرات عن الطاعون

وقد جاء في هذه المذكرات ان الامراض التي كانت منتشرة بمصر وقتئذ — علاوة على الطاعون والدوسنتاريا والحمى المتقطعة وامراض العيون والكساح والعمى والفتق — الحصوات البولية والقيلة المائية والصرع والحمى المعوية والجذري والاستسقاء. وقد قام رجال الحملة بعمل جداول عن الحالة الجوية بالقاهرة والاسكندرية . وقد يكون اول احصاء منظم لتوفي القاهرة هو الذي عمل تحت اشراف ديجنيت حيث اجري هذا الاحصاء من ٢٩ برومير من السنة السابعة حتى فندميير من السنة الثامنة بالتوقيت الفرنسي الجديد — واستنتج منه ما يأتي :

ان عدد النساء اكثر من عدد الرجال

ان وفيات الاطفال تحدث في السنة اسابيع الاولى من حياتهم وعلى العموم تكثر وفياتهم

قبل بلوغهم سن تسعة اشهر

ان الجذري هو اكثر الامراض حصداً للاطفال . ويستخلص من احصاءات الطبيب المشار اليه التي عملها عن السنة الكاملة وهي السنة الثامنة (بحسب التوقيت الفرنسي الجديد المتبع وقتئذ) ان عدد الوفيات قد بلغ اثناءها بالقاهرة ٥٨٩٥ منهم ٣٥١٦ طفلاً و ١٣٧٦ امرأة و ١٠٠٣ رجال . وقد حول قصر العيني الى مستشفى كما ان نابليون امر بافتتاح مستشفى مدني بالازبكية يسع ٣٠٠ مريض وقد جلا الفرنسيون عن مصر في سنة ١٨٠١ وقد جومار عدد سكان القطر في سنة ١٨٠٠ بـ ٢٤٦٠٢٠٠ نسمة ولكن حسب تقدير كلوت بك لا يتجاوز السكان المليونين

وجلاء الفرنسيين وعودة حكم العثمانيين لمصر وتسلط المالك ثانية سنحت الفرصة لجلوس محمد علي على عرش مصر وتم بذلك خلاص البلاد على يديه من عصور الفوضى والمظالم وسار بها في سبيل الرقي الى ابعد شوط ونهض ضمن ما نهض به بالشؤون الطبية والصحية

تولى محمد علي باشا الحكم وممارسة مهنة الطب في ايدي قوم جهلة يتناقل بعضهم عن بعض المعلومات الطبية المشوهة وكان بعضهم يلقب بالحكماء وهم يقومون بمعالجة الامراض الباطنية والبعض الآخر يمارس الجراحة ويلقب بالجرحين وكان على رأسهم جراح باشا — كما يوجد بجانب هؤلاء المجبرون والدايات. وكان جل اعتمادهم على بقايا الطب العربي وقال كلوت بك انه لما حضر الى مصر كان يرأس المستشفيات حلاقون وقد اُبعدوا بصعوبة حتى يحل مكانهم كلوت بك وزملاؤه فلما أوجد محمد علي جيشاً نظامياً بمصر استدعى كلوت بك في سنة ١٨٢٥ ليكون طبيباً

أول لهذا الجيش ويرجع اليه الفضل في إعادة تأليف مجلس الصحة وقد شكل من خمسة أعضاء من اطباء وجراحين وصيادلة برئاسة كلوت بك وكان هذا المجلس يقدم المشورة لوزير الحربية في كل المسائل ذات العلاقة بالصحة وغيرها حيث لم تكن توجد وقتئذ إدارة صحية ثم انشئت فيما بعد إدارة طبية يرأسها مفتش عام وهذه الإدارة تدير شؤون مستشفيات الجيش وصيدياته حيث ألحق بهذه الإدارة قسم للأدوية وتبسيطاً لصرف الدواء وضعت فارما كويبا بها بعض «الوصفات» وقرأها مجلس الصحة واستصيدلية مركزية بالقاهرة ومستودعات للأدوية بالاسكندرية للقطر المصري وحلب وعكا للشام وجدة لبلاد العرب والخرطوم لسنار وكندية لكريت . وقد نشئ للبحرية المصرية مجلس صحة بالاسكندرية

وقد نشأ عن اتخاذ الوسائل المتقدمة انخفاض نسبة الوفيات بين رجال الجيش والبحرية وكان مستشفى ابي زعبل هو المثال الذي تحتذيه كل المستشفيات وقد استست به في سنة ١٨٢٧ مدرسة الطب وفرع للصيدلة فدرس للمرة الاولى في تاريخ مصر الحديث علم الصحة ثم انشئت مدرسة للولادة بهذا المستشفى ايضاً وتخرج في مدرسة الطب بعد خمس سنوات أربعون طبيباً ارسل منهم لباريس اثنا عشر طالباً حيث حصلوا على شهادة الدكتوراه من كلية باريس ثم انتقلت مدرسة الطب والمستشفى الملحق بها الى سراي ابراهيم بك (وهو قصر العيني الحالي) حيث هما الآن وقد اصبح المستشفى يسع من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ مريض وبالمدرسة ثلاثمائة تلميذ - وقد رخص ولي النعم بقبول مرضى من غير العسكريين كما ان مستشفى ابي زعبل خصص للنساء ومستشفى الازبكية لكل الامراض وكان ملحقاتاً بكل المدارس بالاقاليم جراحين مرخص لهم بمعالجة الاهالي ثم انشئت مدرسة للولادة بمستشفى قصر العيني

وقبل زمن محمد علي باشا كان الذين يقومون بمعالجة الحيوانات هم البيطار فانشأ الميسو هامو بناء على رغبة محمد علي باشا مدرسة للطب البيطري برشيد ثم نقلت الى ابي زعبل حيث ألحق بها مائة طالب وبعدئذ وجد انها بعيدة عن الحرس بشبرا فنقلت الى هناك لتكون على مقربة من الجيش الراكب واصبح فيها مائة وعشرون طالباً. ومما يجب ذكره ان كلوت بك هو الذي اشار باستعمال التطعيم ضد الجدري لمقاومة انتشار هذا المرض بالقطر المصري بعد ان كان يودي بحياة سنين الفاً من الاطفال كل عام او ثلث المواليد على رأي كلوت بك وقد قام هو وتلاميذه بمكافحة الكوليرا التي وفدت على مصر سنة ١٨٣٠ وبذلوا جهوداً طائلة في مقاومة طاعون سنة ١٨٣٥ فما تقدم نرى ان مصر الحديثة عرفت ما هي الصحة بعد ان وضع دعائمها محمد علي باشا وان كان الفرنسيون قد مارسوها قبله محافظة على جيوشهم ومن عهده استمرت في تقدم حتى عصرنا الحاضر. وقد بلغ عدد سكان مصر في نهاية عهد محمد علي باشا نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون وتعداد سكان القاهرة نحو ثلاثمائة الف نسمة



آراء وحقائق جديدة

في علوم الاحياء

لمستر مكورسنتن استاذ البيولوجيا في جامعة القاهرة الاميركية



لسنا نحاول هنا ان نستوفي البحث في الآراء الجديدة والحقائق التي كشفت حديثاً في علوم الاحياء . ففي سنة ١٩٣٠ اخرجت المطابع والمجلات نحواً من اربعين الف كتاب ومقال في الموضوع . وانما جلُّ ما نستطيعه ان نختار بعض الموضوعات ونعالجها — وهي بحكم الطبع اجمع ما تكون لعناية كاتب هذه السطور

ما هي الحياة

لقد جريت على توجيه هذا السؤال الى تلاميذي في علم الحيوان في مفتتح كل سنة . وفي كل فرقة اجد تلميذاً او تلميذين على الاقل يظنان انهما يملكان للحياة تحديداً وافياً . لان الامر سهل في الظاهر ، ولكن الواقع انني اشك في امكان العثور على عالم بيولوجي يؤبه له ، يحاول ان يضع تعريفاً « للحياة » لاننا لا نعرف ماهي ، رغم ما نعلمه من الحقائق الكثيرة عن الاحياء وتصرفها . ولو كنا نملك الوقت ، للدنا ان نفحص هذه المادة الفاتنة للب التي بدعوها بروتوبلازم (او المادة الحياة ومعناها الاصلي المادة الاولى) مع عالم طبيعي بيولوجي مثل الدكتور هل A. V. Hil او فيسولوجي كالاستاذ بايلس W. W. Baylis وان نتصور ، كما يتصوران ، الافعال الطبيعية والكيميائية التي تقع فتحدث بوقوعها ظاهرات الحياة . وانما جلُّ ما نستطيع ان نقوله هو اننا جادون في توسيع نطاق ما نعلمه عن الظاهرات السطحية التي ينطوي عليها تحول الطاقة الكامنة في الطعام الى طاقة حركة . وفي الوقت نفسه نرى الكيميائي جاداً في درس جزئ البروتين المعقد التركيب وقد اسفر درسه عن ادلة قوية على ان شدة التعقيد في بنائه ذات صلة متينة بفقد الاستقرار في المادة الحية وهذا — أي فقد الاستقرار — متصل بتغيرات كيميائية عديدة يسهل استحداثها في المادة الحية . واكثر الفسيولوجيين الآن يرون ان الحياة نوع من التوازن بين هذه الافعال الكيميائية والطبيعية المعقدة . وكل حافز Stimulus يُفقد البروتوبلازم هذا التوازن فيتصرف او يتغير لاعادته وقد يحدث ان الحافز يكون قوياً ، وفقد التوازن كبيراً ، فلا تستطاع استعادته ، فنقول ، « ان الكائن قد مات » . واذن فانتم توافقون على اننا لا نزال بعيدين عن تعريف واف للحياة

ومن وجوه التقدم الجديرة بالعناية في هذا الميدان زيادة التدقيق في القياس . فقد استنبطت اداة خاصة تدعى « ثرموبيل » لقياس الحرارة التي تطلقها العضلة في اثناء انقباضها الى اربعة اجزاء من مليون جزء من الدرجة بمقياس سنتغراد . وقد استحدثت كواشف كيميائية اثبتت ان سبب انقباض العضلة المباشر ليس تأكسد السكر في الخلايا كما كان يقال قبلاً ، وانما تتكوّن اولاً مادة تدعى « فوسفجين » ثم يحل محلها توتراً الحامض اللبنيك اذ يتحوّل الفوسفجين الى المواد التي تركّب منها . ويولي ذلك تحوّل الحامض اللبنيك بالتأكسد الى ثاني اكسيد الكربون والماء . فاذا انت لهثت تعباً بعد عدوٍ مائة متر فانت تحوّل في جسمك الحامض اللبنيك الى ثاني اكسيد الكربون والماء

التطور

ونريد ان نتحدث عن التطور من ناحيتين « حقيقة التطور » و « نظرية التطور » لما بدأ الناس يظنون ، على اثر درسه للآثار المتحجرة ، أن في نشوء الحيوانات والنباتات فعل تطوّر تدريجي قالوا ان النباتات والحيوانات نشأت بفعل التطور من احياء بسيطة ذات خلية واحدة . وهذا ما يعرف عند طائفة كبيرة من الناس « بنظرية التطور » الآن . ولكنه في عرف السواد من علماء الاحياء « حقيقة التطور » وهم لا يحسبونها « نظرية » فقط لان الادلة التي تؤيدها كثيرة مستمدة من الجيولوجيا (طبقات الارض) والمورفولوجيا (شكل الاحياء) وعلم تفرق النباتات والحيوانات وعلم الاجنة ومن التجارب العملية في استحداث اصناف جديدة من النباتات والحيوانات الداجنة

اما ما يقصد الآن « بنظرية التطور » فهو في الواقع النظرية او النظريات المقترحة لتعليل بواعث التطور . وهذا هو المقصود اذ نذكر « نظرية دارون » او « نظرية لامارك » . وفي هذا الميدان لا يزال المجال لاختلاف الرأي متسعاً

التي الاستاذ بولتون Poulton خطبة الرأسة في قسم الحيوان في مجمع تقدم العلوم البريطاني في السنة الماضية — ولعلها اهم خطبة في علم الحيوان تليت في انكلترا حديثاً — فقال فيها ان علماء الحيوان في رأيه قد اخذوا يرتدون الآن ، بعد تحوّل كبير في آرائهم مدى ٤٠ سنة ، الى نفس الموقف الذي وقفه دارون في الموضوع عند وفاته . ولعل الاستاذ بولتون لم يبعد كثيراً عن محجة الصواب في تقريره ولكن من الثابت اننا اشدّ تبييناً من دارون لبعض المصاعب التي تعتور سبيل الباحث ، وقد اضيفت الى خلاصة البحث امور جديدة الآن . وقد خلص دارون القوى التي تفعل في تطوّر الاحياء كما يأتي : —

١ — اخلاف الاحياء لنسل كثير ، فلا يتسنى لطائفة كبيرة من النباتات والحيوانات التي

نولد من الغذاء والمكان ما يلزم لها لبلوغها مدى الحياة

٢ - هذا يفضي الى تنازع البقاء . وهذا بدوره يفضي الى

٣ - زوال الضعيف وبقاء القوي

٤ - وفي الوقت نفسه تظهر صفات جديدة . تساعد اصحابها على الفوز في معترك البقاء فيبقى صاحب الصفة - التباين variation - الجديدة وتورث الصفة نفسها للأجيال التي تليه وثمة مدرسة من علماء الاحياء ، ومعظم رجالها من علماء الآثار المتحجرة ، يذهبون الى ان درسه للآثار المتحجرة اسفر عن ان بعض التباينات التي ظهرت في بعض الحيوانات لم تفيد لها شيئاً بل على الضد كانت شديدة الضرر ، وهذه الصفات كافية بحسب رأي دارون للقضاء على الاحياء التي تتصف بها . ورأي هؤلاء العلماء ان باعث التطور باعث داخلي في الكائن الحي نفسه يدفعه في خط مستقيم الى التحول والنشوء ، بصرف النظر عن بيئته . ولعل أشهر رجال هذه المدرسة الاستاذ ازبورن الاميركي . ولكن قل من علماء النبات والحيوان من يسلم بها والمسألة الخطيرة التي نواجهها اليوم تدر حول البواعث على ظهور التباينات التي تورث . ولقد كان لدارون رأي في الموضوع ، ولكنه لم يقنعه كل الاقناع . ولا هو يقنع علماء اليوم . فلنمر به صارفين النظر عنه . فلما اكتشف مندل مكتشفاته الخطيرة في الوراثة بدا كأنه وضع بأيدينا مفتاحاً للسر ، ولكن ما زال علماء التناسل عاجزين عن فهم الموضوع فهماً وافياً

وقد كان المرحوم الاستاذ لوتسي الهولندي - الذي كان استاذاً لعلم التناسل genetics في كلية العلوم بمصر سنة ١٩٣١ - من زعماء القائلين بأن التحولات الفجائية mutation نتيجة التنبيل hybridation فتظهر الصفات الكامنة recessive . ورأيه هذا مبني على تجارب خاصة قام فيها بتضريب اصناف مختلفة من النبات ، نقل مبدأها عن بوئر (Baur) الألماني الذي ضرب نوعين من نبات Antirrhinum فحصل على عشرات من الصفات الجديدة التي لم تشاهد في الاصلين قط . ولكن رأيه لا يفسر ظهور التحول الفجائي في صفة متغلبة اي أنه لا يفسر كيف تظهر عوامل وراثية genes جديدة

والمقصود بالعوامل الوراثية تلك الوحدات الدقيقة التي تتألف منها الكروموسومات واشهر الباحثين في هذه الناحية هو الدكتور مورغن الاميركي واعوانه فانهم ربوا ملايين من ذباب الفاكهة (دروسوفيل) وجاراهم الباحثون في مختلف بلدان العالم فعينوا نحو ٤٠٠ عامل وراثي في كروموسومات هذا النوع من الذباب . ولكن حتى مباحث هؤلاء عجزت عن اقامة الدليل على البواعث التي تبعث العوامل الوراثية الجديدة على الظهور

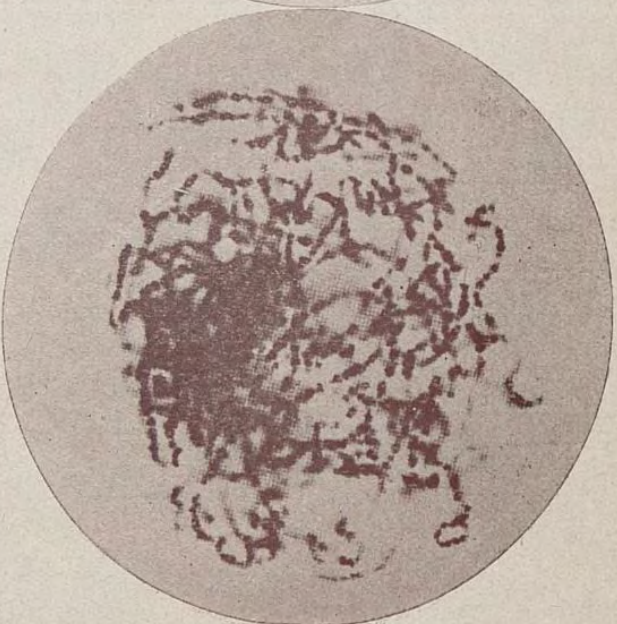
على ان الاستاذ ملر (Muller) احد اساتذة جامعة تكساس واحد تلاميذ مورغن

قد فتح باباً جديداً في هذا البحث باستحداث التحولات الفجائية في ذباب الفاكهة وغيرها باستعمال الاشعة السينية (اكس) فانه يوجه اشعة سينية من قوة معينة الى الخلايا التناسلية وهي في دور خاص من ادوار انقسامها . فيزداد عدد التحولات الفجائية . ولكن كيف نعلم ان ظهور هذه التحولات ليس ناشئاً عن تلف او ضعف اصاب بعض العوامل في الكروموسومات بتصويب الاشعة اليها لا عن ظهور عوامل وراثية جديدة . واذن فلا يزال ميدان البحث والاكتشاف في موضوع التباين الوراثي واسع الجنات

اليومانية

لقد اشرنا الى ان الوفاة من ذباب الفاكهة ربيت لتستعمل في مباحث الوراثة ونزيد على ذلك ان مئات الالوف من الجينات انققت في هذا السبيل ، فاذا سألنا ما قيمة هذه الحشرة من الناحية الاقتصادية وجدنا ان لا قيمة لها على الاطلاق . والواقع ان الانسان في نظرنا هو اهم الحيوانات التي على الارض ، واذا يهمننا ان نعرف ما كشف من اسرار الوراثة فيه . واذا قلبنا النظر في الحياة المصرية بدت لنا قلة العناية بموضوع الوراثة البشرية . ذلك انه اذا ذهب والدٌ يبحث عن عروس لابنه فما هو السؤال الاول الذي يوجهه عن الفتاة التي ينتظر ان تصبح والدته لاحفاده . هل يسأل عن ذكائها او صحة بنيتها او عن كمال قدها وجمال صورتها ؟ يقال ان الفتى نفسه يسأل هل عيناها نجلوان . وهذا سؤال معقول . ولكن ألا يغلب ان يعنى الوالد اولاً بثروة والد الفتاة دون الفتاة نفسها . وهو في هذا لا يختلف عن امثاله من الوالدين في مختلف انحاء الارض . فليس ثمة بلاد تعنى العناية الكافية بالزواج من ناحية اثره في تحسين السلالة او من ناحية اثر الاختيار الملائم في هناءة الاسرة ، التي لا ندحة عنها في تنشئة الصغار وتربيتهم

ولاريب في ان اهم البواعث على هذا الاهمال معرفتنا النزرة بشؤون الوراثة البشرية . ولكن لماذا نعنى بدرس الوراثة في ذباب الفاكهة هذا الدرس المسهب المدقق ونهمل درس الوراثة البشرية ؟ والجواب عن ذلك سهل . فعلم التناسل لم يولد الا في مطلع القرن العشرين والقسم الخاص منه المعروف باسم اليوجينية Eugenics لم يعن به الا من نحو جيل واحد فلم يتسن للباحثين فيه ان تتناول مباحثهم الا جيلاً واحداً من البشر في حين ان هذه المدة كانت كافية لتربية مئات الاجيال من ذباب الفاكهة ودرس آثار الوراثة فيها . . وثمة صعوبة اخرى . فالعالم يستطيع ان يزواج ذباب الفاكهة كما يشاء ولكن بماذا تجيب اذا جاءك عالمٌ يوجيني وقال لك « اريد ان تزوج هذه المرأة المعتوهة العوراء وضعيفة البصر في عيناها الاخرى لانني اريد ان ابحث في توريث هاتين الصفتين » !



عقود العوامل الوراثية بعد
انفصال الكروموسومات توطئة لاتقسام الخلية
في اثناء ترحلتها لقلم المستر مكوستن جاءت الجلات الاميركية منبئة بان الدكتور بلنغ اثبت وجود العوامل
الوراثية (Genes) بالتصوير الفوتوغرافي . راجع الاخبار العلمية

== مسألة السكان في مصر ==

فإذا يحدث اذا مضى سكان مصر يزيدون على مقتضى هذا المتوسط؟ يحدث ان يصبح سكان القطر بعد قرن وربع قرن (اي نحو سنة ٢٠٥٧) ٧٥ مليوناً وفي سنة ٢٢٥٧ يصبح سكانه مثل سكان العالم اليوم (اي نحو ٢٠٠٠ مليون). واذا فرضنا ان العرب، لما فتحوا مصر قتلوا كل من فيها وتركوا من اتباعهم رجلاً وامراً وان الرجل والمرأة، ونسلهما زادوا بمتوسط ٥٠٠ في المائة في اثناء قرن وربع قرن بعد محمد علي، لبلغ سكان مصر الآن نحو ٤٥ مليوناً او ثلاثة اضعاف سكانها اليوم. قد يبدو ان الامر مستحيلاً. ولكن خذ قلماً وورقاً واعمل حسابك وغني عن البيان ان الأحياء المذكورة في الامثلة المتقدمة لا يمكن ان تمضي متزايدة بأقصى سرعتها مدة طويلة. فتمتد عوامل عديدة تبطئ الزيادة منها قلة الطعام، والازدحام، ووجود اعداء لها تغذي بها. فنحن اذا ربينا مكروبات في عسيده غذائية وجدنا انها تقف عن الزيادة قبل نفاد الغذاء، والبطة في تكاثرها سببه ازدحامها في الانبوب الذي يحتوي على العسيده. كذلك دودة القطن القرنقلية لا تتكاثر تكاثراً مريعاً الآن مع ان كثيراً من لوز القطن يبقى سليماً، فبطء تكاثرها ليس سببه نفاد اللوز الذي تغذي به وانما احد اسبابه وجود حشرات تقتك بها امامن حيث سكان مصر، فغني عن البيان انهم لا يبلغون ٧٥ مليوناً في اواسط القرن المقبل (حوالي سنة ٢٠٥٧) فالقطر المصري لا يستطيع ان ينتج طعاماً لتغذيتهم، ثم اننا نعلم انه اذا قل الغذاء سهل نقشي الاوبئة. فتوسط عمر الهولنديين في هولندا مضاعف متوسط عمر الهنود لهذا السبب. والراجح ان كثرة وفيات الاطفال في مصر ناشئة عن الفقر. قد نقول ان الجبل افعل في كثرة وفيات الاطفال من الفقر، ولكن كيف نعلل قلة انتشار التعليم - قبل العصر الاخير - الا بشدة الفقر وما سبب الفقر في مصر؟ لماذا نرى الامة الاميركية اغني من الامة المصرية؟ قيل ان السبب هو الفرق بين سلالة الاميركيين وسلالة المصريين. حقاً انه لا يعقل ان نرمي المصريين بقول لا اساس له من الحقيقة. وقيل انه فرق في الدين. ولكن هل المصري المسيحي اغني من المصري المسلم. وقيل ان سببه اقليم القطر المصري. ولكن هل حال اقليم القطر المصري بين قدماء المصريين والنشأ اولى الحضارات؟ الفرق الواضح بين البلادين انك تجد في مصر ثلاثة اشخاص يتناولون رزقهم من فدان من الارض المزروعة في حين ان نصيب الواحد في امريكا من الارض المزروعة يبلغ نحو ثلاثة افدنة وثلاث فدان، اما نصيبه من المراعي والغابات والمناجم والمصانع فأعظم من ذلك كثيراً

ولا ريب في ان تكاثر سكان مصر سوف يبطئ ولكن ماذا يبطله؟ لعنا نجد الجواب عن هذا السؤال في النظر الى الصين اكثر من النظر الى اي بلاد اخرى. فالظاهر ان الريادة في سكان الصين ليست بكبيرة ان كان ثمة زيادة ما. ادرسوا تاريخها في القرون الحديثة تجدوا المجاعة

في اثر المجاعة. وهي الآن في نهاية مجاعة حصدت منها نحو عشرين مليوناً وفي بدء اخرى نتجت عن فيضان نهر اليانغ تسي. وسبب الفيضان ازدحام الناس على ضفاف النهر وتعددهم على ما هو في الواقع من ارض مجراه، فيحدث احياناً ان ارض المجرى الباقية لا تكفي لماء النهر فتطغى مياهه على الناس على ان مصر في خطر من الوقوع فيما نسميه نصف مجاعة. وهذه حالة عادية في بلاد الهند فقد قيل ان ستين مليوناً من الهنود ينامون على الطوى كل ليلة. وهذا هو احد الاسباب التي تجعل متوسط العمر في الهند ٢٥ سنة بدلاً من ٦٠ سنة. وحيث يكون الناس في مثل هذه الحال من قلة الغذاء تفتك بهم الامراض فتحصد منهم اكثر مما يحصد الجوع. فاية زيادة في سكان مصر تقترب بها من حالة شبيهة بهذه الحالة. لا ريب انه اتى عليها حين من الدهر كانت في مثل هذه الحالة، والا فلماذا كان سكان البلاد ثلاثة ملايين في بدء تاريخها الحديث؟ يقال ان المشكلة تحل بزيادة الارض التي تروى وبيضاء المصانع. ولا ريب في ان البلاد تحتاج الى ذلك اشد الحاجة، ولكننا نرتاب في ان زيادة الارض الزراعية والمصانع تحل المشكلة حلاً نهائياً، لان ماء النيل محدود ولا بد ان يقف التوسع الزراعي عن طريق الري بماء النيل عند حد محدود. ثم ان للتوسع الصناعي حدوداً دقيقة

واذا اعاد التاريخ نفسه، فاخشى ان لا يكون زيادة الاراضي المنزرعة سبيلاً الى تحسين حالة الفلاح المصري. قابل صديق لي من بضعة اشهر السر وليم ولكسكس فقال له انه لا يظن ان عمله في انشاء حزان اصوان كان نعمة على الفلاح المصري. فلم يغضب السر وليم ولم يتجههم وجهه بل قال: «كلاً». لم اكن نعمة بل لعنة!

كيف نفسر هذا القول الغريب. اننا نجد بعض التعليل في مراقبة الفلاح في حياته اليومية. فانه لا يزال يسكن في خوص من الطوب التي الذي كان يسكنه في ايام محمد علي ولا يزال يزرع ويحصد كما كان يفعل حينئذ ولا يزال الى حد بعيد يأكل نفس الطعام، مع اني اعتقد ان تحسيناً قد تم في هذه الناحية. اذن نجد ان احوال معيشته لم تتقدم. ولكن لماذا نقول ان الحالة الآن اسوأ مما كانت من نحو قرن من الزمان؟

اليكم الجواب. من نحو اسبوع كنت احدث الدكتور بارلو Barlow احد اطباء معهد ركفر المعني الآن ببحث مرض البلهارسيا في مصر من نواحيه المختلفة. كان قبيل حديثنا قد عاد من الوجه القبلي وهناك شاهد امراً إذا. ذلك ان مرض البلهارسيا كان منتشرًا على احد ضفتي النهر دون الاخرى. فليس ثمة بلهارسيا — او هي قليلة الانتشار جداً — على الضفة التي لا يزال اهلها يستعملون طريقة ري الحياض. ولكنها كثيرة على الضفة الاخرى. فخران اسوان الذي جعل الري على احدى الضفتين على مدار السنة ساعد على نشر البلهارسيا وما يلزمها من الالم، ومع ذلك فان بناءه لم يسفر عنه تحسين معيشة الفلاح

والراجح ان الزيادة في ارض مصر المنزرعة ومصانعها يقابلها من زيادة السكان ما يترك الحالة على ما هي . ففي مصر اليوم ١٤٠ الف نسمة علاوة على ما كان فيها في السنة الماضية وهذه تحتاج الى مأكل وملبس (كان متوسط الزيادة السنوية في العشر السنوات الماضية ١ في المائة) ومن الممتع ان تتصور ما تكون حالة مصر الآن لو خلف محمد عليًا حاكمًا راجع العقل كسلفه نافذ البصيرة فقال « اذا بلغ سكان مصر خمسة ملايين فيجب ان يقفوا عن الزيادة . وحينئذ نمضي في بناء الخزانات والسدود وحفر الترعة والمصارف .. ولكن سكان مصر يجب الا يزيدوا عن خمسة ملايين » . ترى لو قال ذلك ونفذه ماذا تكون حالة مصر الآن ؟ في المقام الاول يكون متوسط نصيب كل فرد من افراد الامة المصرية من الارض ثلاثة اضعاف نصيبه الآن . ولا نغلو اذا قلنا ان الثروة العامة تكون ثلاثة اضعاف ما هي الآن . ففي هذه الحال يملك المصري ما يكفي لبناء منزل صحي ، ويصبح التعليم العام امرًا ميسورًا ، وتغدو عامة الشعب قادرة على شراء اشياء تمنناها لها اليوم . حينئذ يساقون في رقيقهم اسوج وسويسرا والبلجيك أو يفوقونها وهي بلدان سكان كل منها خمسة ملايين تقريبًا وقد تقولون ما فائدة الكلام في الموضوع ؟ كيف نستطيع ان نسيطر على متوسط زيادة المواليد في شعب ما ؟ هو الله مدبر الامور ! . لقد وهبنا الله عقلاً نغير به البيئة التي نعيش فيها احوال الاجتماع الانساني . هل ولدت ببيت على ظهر ككصدفة البراقة وانت تبني بيتك يديك ! هل ولدت ببدة تكسو عريك او انت استأجرت خيلاً ففصل لك بدلة بحسب ذوقك ؟ انظر الى مئات النواحي التي ادخلت فيها تعديلاً على بيتك — وهي هي الفروق بينك وبين المتوحش لا ريب في ان بعض الملاك يقولون بان كثرة الفلاحين تجعل اجورهم ارخص ، ولكن لا بد من حلول يوم يصبح فيه العامل الرخيص عاجزاً عن القيام بعمل يساق اجرتة القليلة . ثم انهم سوف يرون ان خطر الثورة يزداد بتفشي الجوع . ومن الطبيعي ان يرغب الفلاحون في النسل — وفي الذكور منهم خاصة — لانهم يرغبون ان يعتزلوا العمل ويروا ابناءهم يحلون محلهم . ولكن ثمة كثيرون يقفون من المسألة موقف بستانبي فقد سألتها من مدة كم ولد يرغب ان يكون له فقال « ولم تسأل . عا الله » فقلت ولكن افترض ان الله سالك كم ولد ترغب ان يكون لك فاذا تقول . فاجاب ، وجوابه حملي على الدهشة اذ قال : « ولدين وبنت » وهذه الرغبة ينطوي عليها المثل السائر « خير الذرية ولدين وابنة »

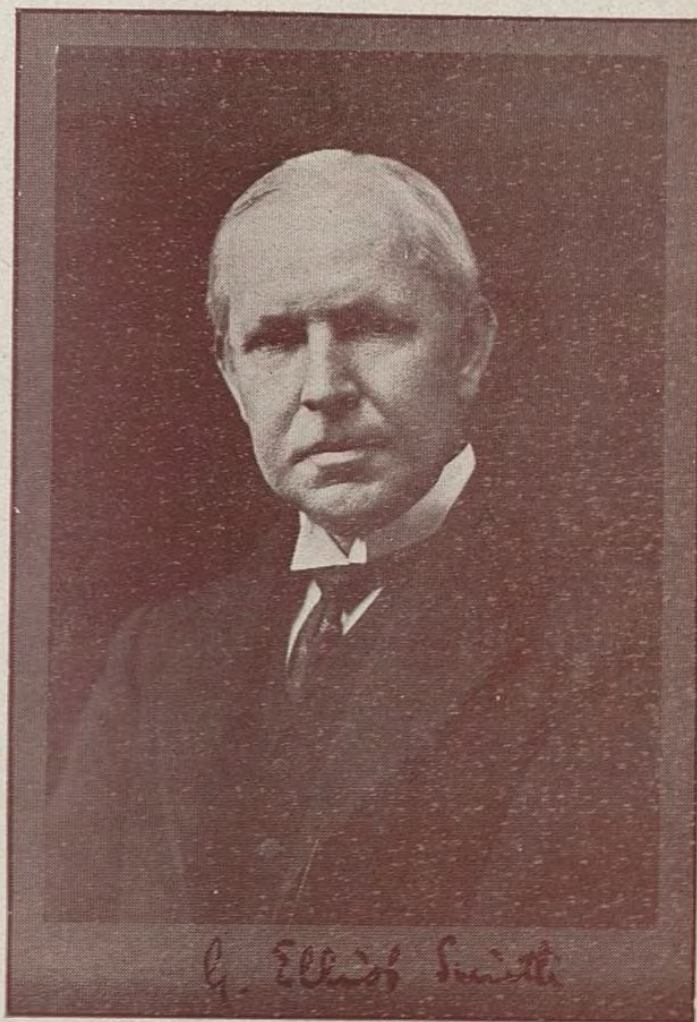
ان هذه المشكلة ، من الناحية البيولوجية ، ليست مشكلة عسيرة . وانما الحائل الكبير الذي يقوم في سبيل حلها هو « المحافظة » الشديدة « ولكن » المحافظة « اليوم اقل من قبل . ثم ان موالاة هذا الموضوع بالدرس والبحث ، وتنقيف العامة باصول الصحة ، لا بد ان يتغلبا على كل الحوائل في عصرنا . وما نحتاج اليه الآن هو ان نستوضح المشكلة كما هي ، وان نسعى سعياً جدياً لتوضيحها للغير . فاذا شاءت مصر ان توالي سيرها على طريق التقدم ، وجب على سكان البلاد الا يزيدوا عما تحتمله مصادر الثروة الطبيعية في البلاد

عمر النسل

الى هنا حصرنا الكلام في نوع النسل البشري، وعليه اريد الآن ان انتقل الى موضوع يهمني بوجه خاص وهو « عدد النسل » او « مشكلة السكان ». انكم تذكرون ان احد الاركان التي تقوم عليها نظرية دارون هو ميل الاحياء الى التكاثر تكاثراً سريعاً فيتعذر على نسلها وجود الغذاء الكافي اللازم لبلوغها، وفي بعض الاحيان يتعذر وجود المكان الكافي لكل النسل، فيندثر جانب من النسل في كلا الحالين

وهذه الزيادة في النسل اظهر ما تكون في الحيوانات الدنيا . ولعلكم تعلمون الارقام الكبيرة التي نبلغها اذا حسبنا عدد البكتيريا الذي يخلفه واحد منها في مدى ٢٤ ساعة من العيش في احوال ملائمة للنمو . ففي هذه الاحوال الملائمة ينقسم واحد بعض البكتيريا الى اثنين مرة كل نصف ساعة . فاذا مضى البكتيريوم الواحد ونسله في الانقسام على هذا المنوال مدة ٢٤ ساعة بلغ نسله بحسب تقدير ترانسو (Transseau) ٢٨١ مليون مليون ومع ذلك فان هذا النسل لا يملأ أكثر من زجاجة تسع نصف متر من الماء لشدة صغره هذه الاحياء . فاذا بدأنا اليوم التالي بنصف لتر منها اخلفت في آخر اليوم نسلاً يملأ ١٤٠ مليون مليون لتر او نحو ٣٢ ميلاً مكعباً . وفي آخر اليوم الثالث يصبح نسل البكتيريوم الواحد - اذا عاش كله - ٣٣ الف ضعف حجم الكرة الارضية ويقال ان انكليس النيل يضع ٥ ملايين بيضة دفعة واحدة . وهذا البيض يلقيه الذكر وعليه تقسم عدد البيض على اثنين لنعلم عدد النسل من الوالد الواحد . واذا فكل انكليس يخلف ٢ ١ مليون انكليس . فاذا بلغت كلها سن البلوغ واخلف كل منها نسلاً بدوره، فلا تمضي سنوات قلائل حتى يمتلئ البحر والنيل بحيوان الانكليس

او خذوا دودة القطن القرنفلية . يظن ان بضع حشرات من هذا الصنف افلتت من الاسكندرية سنة ١٩١٠ وتسربت الى مزارع القطن . ولعلها كانت عشر حشرات او مائة . فلم يمض بضع سنوات حتى اكتسحت ملايين الملايين من هذه الدودة مزارع القطن في الوجه البحري ولما كان الانسان اعلى الحيوانات ارتقاءً، تراه يخلف النسل اخلاقاً بطيئاً، ولكن اذا لامته احوال المعيشة يستطيع ان يزيد نسله بمتوسط ١٦٠٠ في المائة في مدى قرن واحد . ففي الولايات المتحدة مناطق كثيرة بلغت فيها زيادة السكان هذا المتوسط بالتناسل لا بالهجرة . والزيادة في سكان مصر الحديثة كانت كبيرة جداً في اول عهد محمد علي كان سكان مصر نحو ثلاثة ملايين وهم الآن ١٥ مليوناً اي ان الزيادة ٥٠٠ في المائة في نحو قرن وربع قرن من الزمان . واذكروا ان متوسط سكان مصر في اثناء اربعة آلاف او خمسة آلاف سنة سبقت عهد محمد علي كان ثلاثة ملايين نسمة تنقص او تزيد قليلاً



الدكتور اليوت سميث صاحب الكتاب الذي نقل عنه هذا الفصل

هذه الأمثال تساعدنا على توضيح طريقة الاتصال الثقافي وتفاعل الأخذ والعطاء الحادث من وقت ان بدأت الانسانية في خلق الحضارة لانه لا يوجد قوم ذوو ثقافة استطاعوا ان يتطوروا في عزلة تامة. والامم لا تتقدم في بيوت مائية مغلقة ، ونشر الثقافة من مكان الى مكان حدث خلال التاريخ العام للحضارة، والاخذ والعطاء للمواد والافكار هما عاملا الحياة المؤثران في التقدم والرقى واذا كانت مقبرة توت عنخ أمون خدمتنا لانها اضطرت الناس لتقدير الاعمال المصرية فيجب ان تساعدنا في اعداد عقولهم لادراك مقدار الدين الذي على الحضارة لمصر التي ولدتها وألهمتها في طفولتها وصباها. والاعمال الفنية التي اصطنعها البنائون والحفارون والنجارون والنساجون وصناع الحلى والاحجار الكريمة والتي ظهرت في الادوات التي اكتشفت في مقبرة توت عنخ أمون لدليل جديد على ما ذهبنا اليه من ان مصر ام حضارة العالم لاننا نشاهد فيها صناعة الناس الذين ابتكروا الحضارة ونشروها. ولاريب في ان اعداد مومياء فرعون وترتيب ذلك الجهاز المتقن لحاجاته جميعاً يدلان في صراحة تشبه صراحة الاطفال على اصول العقائد المتأصلة وبعض الطقوس التي اقترضها العالم من مصر في احوال كثيرة دون ان يفهم أصولها أو معانيها لان الاقوام الذين أخذوا هذه العادات المصرية لم يكلفوا انفسهم مشقة البحث عن اسبابها ، وهكذا تظهر قيمة دراسة الآثار المصرية في انها تقدم الايضاح الصادق لآلاف الاشياء التي نعملها تحت تأثير التقاليد كل يوم بل كل ساعة من دون أن نعرف لماذا نعملها

في عهد توت عنخ أمون وفي عهد اسلافه وخلفائه الادين كان هناك اتصال وثيق بين مصر وسوريا وكان هناك مصاهرة دائمة بين افراد الاسرتين المالكتين . وتوضح الاسانيد المكتوبة للاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة احدى طرائق الاختلاط الجنسي بين القطرين، وغرض هذا الكتاب بيان نتائج هذا الاختلاط في النى سنة حتى ذلك العهد

اول سكان مصر — على قدر اكتشافنا — هم القوم الذين ادخلوا زراعة الشعير وابتكروا فن الري وصياغة الذهب وطريقة استخراج النحاس من خاماته ، ومن المحتمل ان يكونوا اول قوم استعملوا لبن الابقار كطعام انساني

على ان أثرهم في ابتكار القيمة الباقية للمعدن الذي لا قيمة له في الواقع ، ونعني به الذهب لمن الاحداث الجسم في تاريخ العالم لانه ما ان اعطيت القيمة السحرية — كأكسير الحياة — لهذا المعدن الاصفر اللين السهل التناول وما ان صنعت منه التأمم البراقة الصافية حتى بعث شعور الناس بالجمال وحتى بحثوا عنه في كل مكان . . . ونتج عن ذلك ان اصبحت له قيمة عظيمة كانت المؤثر الاكبر في العالم من ذلك الحين

وقبل ان يصبح معدن الذهب واسطة التعامل بقرون أخذ الناس في البحث عنه واستخراجه حتى وصلوا الى ارلنده وساحل الذهب في الغرب وزمبابوى ومدغشقر في

الجنوب ، واليابان والفيليبين ومالانيزيا واميركا في الشرق ، فليس غريباً ان يصبح الذهب الباعث في نشر الحضارة في العالم كله لان كل مَحَلَّة مَعْدِن اصبحت مركز ثقافة اجنبية نبتت في قطر بعيد ، وليس غريباً ايضاً ان يصبح غواية الناس يدفعهم الى الجشع ويوقد بينهم نار المنازعات والحروب . وان مقابر توت عنخ آمون وغيره من الفراعنة تقدم درساً موضوعياً لنتائج مثل هذا الجشع الذي كان من القوة بحيث ان رعية أولئك الفراعنة الذين كانوا يعتبرون كالألهة كانت تعتقد ان قبورهم تدنس اذا خانت من الذهب . وبهذا كان المصريون مسؤولين عن خالق تلك القيمة المفتعلة لهذا المعدن . كان الذهب في عهد توت عنخ آمون يغري اللصوص ، ومع انه لم يكن قد استعمل للتداول الا انه كان المادة التي تدفعها الامة جزية للآخرى ، تصنع منه الحلي كما كان يقدر لمزاياه السحرية كواهب الحياة وكرمز للام الكبرى « هاتور » و « هاتور » هي منتجة النسل وصاحبة الحياة ومعيدة الشباب للناس ، وهي الى جانب هذا (البقرة الالهية) واهبة اللبن متصلة بالقمر الذي كان يظن انه المسيطر على قوى اعطاء الحياة عند النساء ؟ وكانت تمثل بصورة أخرى هي حبة الشعير

ولما ابتكر المصريون وسائل زراعة الشعير اصبحت للشعير شأن كبير جداً لا باعتباره مادة رئيسية من مواد الطعام ولا باعتباره المادة التي تصنع منها الجعة الالهية « واهبة الحياة » ولكن لان الحبة كانت كالاصداغ التي كانت تعتبر رمزاً للقوى المعطية للحياة عند النساء ولهذا كانت تعتبر حبة الشعير كواهب الحياة لا بالمعنى الضيق للتغذية ولكن بالمعنى السحري الواسع كرمز للام الكبرى

وذاع صيت الذهب من ناحية السحر أولاً لانه كان يستعمل في صياغة التماثيل المكونة من الاصداف ، وانا اعود لامثال هذه المسائل هنا لوجه الالتفات لهذه الحقيقة وهي ان جميع المواد التي استعملت في التبادل كالاصداغ وحبات الشعير والماشية والذهب كانت كلها رموزاً للام الكبرى ، وبالطبع عظمت قيمة هذه الاشياء المختلفة عندما نسبت لتلك الام وهكذا اصبحت لها صولة سحرية — وبهذا أمكن استعمالها في التعامل

وفي ايام توت عنخ آمون كان الشعير مستعملاً في مصر كلها وكانت حبات هذا النبات تعتبر مستودع المواد الحية التي على صورة « ام الحنطة » أو بعبارة اصح « ام الشعير » وكان يصور « اوزيريس » في مقابر اسلافه وخلفائه الادين بحبات الشعير النابتة التي كانت توضع في غرفة الدفن لتعيد بالسحر الى الفرعون الميت قوى الام الكبرى المعطية للحياة كما اعطيت لحبات الشعير النابتة . وفي الفصل الثالث من هذا الكتاب عدت الى الاشكال المسماة « Steatopygons » في القبور القديمة بمصر والتي كان الغرض منها ان تعبر بحق عن فكرة تقديس الاصداف

« البقية في باب الاخبار العلمية »



تأبوت توت عنخ آمون الذهبى وهو محفوظ فى متحف القاهرة امام صفحة ١٤٨

القليل من الحياة كثيراً وافياً بما يضاعف من معانيه ، ويترك الماضي منها ثابتاً قاراً بما يخلد من وصفه ، ويجعل المولم منها لذة خفيفاً بما ييث فيه من العاطفة ، والمملول ممتعاً حلواً بما يكشف فيه من الجمال والحكمة . ومدار ذلك كله على إيتاء النفس لذة المجهول التي هي في نفسها لذة مجهولة ايضاً ، فان هذه النفس طليعة متقلبة لا تبتغي مجهولاً صرفاً ولا معلوماً صرفاً كأنها مدركة بفطرتها أن ليس في الكون صريح مطلق ولا خفي مطلق وإنما تبتغي حالة ملائمة بين هذين يثور فيها قلق او يسكن منها قلق

وأشواق النفس هذه هي مادة الادب . فليس يكون أدباً الا اذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى ، او كان متصلاً بسر هذه الحياة فيكشف عنه او يوحى اليه من قريب ، أو غير لها هذه الحياة تغييراً يحیی طبعاً لغرضها وأشواقها فانه كما يرحل الانسان من جو الى جو غيره ينقله الادب من حياته التي لا تختلف الى حياة أخرى فيها شعورها ولتها وإن لم يكن لها مكان ولا زمان ، حياة كملت فيها أشواق النفس لأن فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكاليف . ولعمري ما جاءت الجنة والنار في الأديان عبثاً فان خالق النفس بما ركبها فيها من العجائب ، لا يحكم العقل أنه قد أتم خلقها الا بخلق الجنة والنار معها إذ هما صورتان الدائمتان المكافئتان لأشواقها وآلامها الخالدة إن هي استقامت مسددة أو انعكست حائلة وقد صحح عندي أن النفس لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتسبح وحدة الشعور ووحدة الكمال الأسمى الا في ساعات وفترات تنسل فيها من زمنها وعيشها وتقائقها واضطرابها الى « منطقة حياد » خارجة وراء الزمان والمكان ، فاذا هبطتها النفس فكأنما انتقلت الى الجنة واسترحت الخلد . وهذه المنطقة السحرية لا تكون الا في أربعة: حبيب فأن معشوق أعطي قوة سحر النفس فهي تنسى به ، وصديق محبوب وفي أوتي قوة جذب النفس فهي تنسى عنده ، وقطعة أدبية آخذة فهي ساحرة كالحيب أو جاذبة كالصديق ، ومنظر فني رائع ففيه من كل شيء شيء

وهذه كلها تنسي المرء زمنه مدة تطول وتقصر ، وذلك فيها دليل على ان النفس الانسانية تُصيب منها أساليب روحية لاتصالها هنية بالروح الأزلي في لحظات من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية . ومن ثم نستطيع أن نقرر أن أساس الفن على الاطلاق هو ثورة الخالد في الانسان على الفاني فيه ، وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلافاتها في الشعور والتأثير هو معنى الأدب وأسلوبه

ثم أن الاتساق والخير والحق والجمال — وهي التي تجعل الحياة الانسانية اسرارها — أمور غير طبيعية في عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والزراع والشهوات . فمن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة الحياة للحياة ، فيبدعون لتلك الصفات الانسانية الجميلة

علمها الذي تكون طبيعية فيه وهو عالم اركانه الاتساق في المعاني التي يجري فيها ، والجمال في التعبير الذي يتأدى به ، والحق في الفكر الذي يقوم عليه ، والخير في الغرض الذي يساق له . ويكون في الأدب من النقص أو الكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة ولا معيار أدق منها ان ذهبت تعبره بالنظر والرأي . ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافاً إليها الفن ، ويحيى التعبير مزيداً فيه الجمال ، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حيّة ، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها وانتظامها ودقها الموسيقي ، وتلبس الشهوات الانسانية شكلها المذهب لتكون بسبب من تقرر المثل الأعلى الذي هو السر في ثورة الخالد من الانسان على الفاني والذي هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معاً ، وبهذا يهبك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارة من خلال نفسك وتحس الأشياء كأنها انتقلت الى ذاتك من ذواتها . وذلك سر الاديب العبقري فإنه لا يرى الرأي بالاعتقاد والاجتهاد كما يراه الناس وانما هو يحس به فلا يقع له رأي بالفكر بل يلهمه إلهاماً . وليس يؤاتيه الإلهام الا من كون الاشياء تمر فيه بمعانيها وتعبه كما تعبر السفن النهر فيحس أثرها فيلبس ما يلهم . ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون على حين ان حقائق الكون هي النافذة من خلاله

ولو أردت ان تعرف الاديب من هو لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من ان تسميه الانسان الكوني وغيره هو الانسان فقط . ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الاشياء ومعانيها ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بالآلامها وافراحها إذ كانت فيه مع خاصية الانسان خاصية الكون الشامل . فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع انه منها ، وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والاسرار انه كذلك منها ، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه انه هو منها ، وهذا وذلك هو الشمول الذي لا حد له والاتساع الذي كل آخر فيه شيء أول فيه شيء وهو انسان يدلّه الجمال على نفسه ليدل غيره عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى وأضيف اليه في إحساسه قوة انشاء الاحساس في غيره ، فأساس عمله دائماً ان يزيد على كل فكرة صورة لها ويزيد على كل صورة فكرة فيها ، فهو يبدع المعاني للاشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها ويبدع الاشكال للمعاني المجردة فيوجد لها في الحياة ، فكانه خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها الناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني . وبالادباء والعلماء تنمو معاني الحياة كأنما اوجدتهم الحكمة لتنقل بهم الدنيا من حالة الى حالة . وكان هذا الكون العظيم يمر في أدمغتهم ليحقق نفسه ومشاركة العلماء للادباء توجب ان يتميز الاديب بالاسلوب البياني اذ هو كالطابع على العمل الفني وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الانسان الموهوب الذي جاءت من طريقه (١) ثم

(١) سنسب الكلام على الاسلوب وفلسفته في كتابنا الجديد (اسرار الاعجاز) الذي تم به كتاب اعجاز القرآن

لان الاسلوب هو تخصيص لنوع من الذوق وطريقة من الادراك كأن الجمال يقول بالاسلوب : ان هذا هو عمل فلان

وفصل ما بين العالم والاديب ان العالم فكرة ولكن الاديب فكرة وأسلوبها . فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة يشار اليهم جملة واحدة على حين يقال في كل اديب عبقرى هذا هو هذا وحده . وعلم الاديب هو النفس الانسانية بأسرارها المتجهة الى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة الى النفس . ولذلك فوضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الاسرار واذا رأى الناس هذه الانسانية تركيباً تاماً قائماً بحقائقه ووصافه ، فالاديب العبقرى لا يراها الا أجزاءاً كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها وكأنما أمرها في (معمله) أو كأن الله سبحانه دعاه ليرى فيها رأيه.... وبذلك يجيى النابغ من أدب العباقرة وبعضه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الانسانية ، وبعضه كالمراجعة للنفس والطبيعة ، وبعضه كالموافقة وقرار الحكمة ، وأساسه على كل هذه الاحوال النقد ثم النقد ولا شيء غير النقد، كأن القوة الازلية تقول لهذا المنسهم : انت كلمتي فقل كلمتك

وترى الجمال حيث اصابته شيئاً واحداً لا يكبر ولا يصغر ولكن الحس به يكبر في أناس ويصغر في أناس ، وههنا يتأله الادب فهو خالق الجمال في الذهن والممكن للأسباب المعينة على ادراكه وتبسيئ صفاته ومعانيه ، وهو الذي يقدر لهذا العالم قيمته الانسانية باضافة الصور الفكرية الجميلة اليه ومحاولته إظهار النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة وصولة الغريزة وغرارة الطبع الحيواني واذا كان الامر في الادب على ذلك فباضطرابه أن تهذب فيه الحياة وتتأدب ، وأن يكون تسلطه على بواعث النفس دُرْبَةً لاصلاحها وإقامتها لا لإفسادها والانحراف بها الى الزيف والضلالة ، وباضطرابه أن يكون الاديب مخلصاً تصحيح النفس الانسانية ونفي التزوير عنها وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ، ثم تصحيح الفكرة الانسانية في الوجود ونفي الوثنية عن هذه الفكرة والسمو بها الى فوق ثم الى فوق ودائماً الى فوق وانما يكلف الاديب ذلك لأنه مستبصر من خصائصه التمييز وتقدم النظر وتسقط الإلهام ، ولان الاصل في عمله الفني أن لا يبحث في الشيء نفسه ولكن في البديع منه ، وأن لا ينظر الى وجوده بل الى سره ، ولا يعنى بتركيبه بل بالجمال في تركيبه ، ولان مادة عمله أحوال الناس واخلاقهم وألوان معاشهم واحلامهم ومذاهب أخيلتهم وافكارهم في معنى الفن وتفاوت إحساسهم به وأسباب مغاويرهم ومرآشدهم ، يستد على كل ذلك رأيه ويحيل فيه نظره ويخلطه في نفسه وينقذه من حواسه كأنما له في السرائر القبض والبسط وكأنه ولي الحكم على الجزء

الخفي في الانسان يقوم على سياسته وتدييره ويهديه الى المثل الاعلى . وهل يخلق العبقري إلا كالبرهان من الله لعباده على ان فيهم من يقدر على الذي هو اكمل والذي هو ابداع ، حتى لا يئس العقل الانساني ولا ينخدل فيستمر دائباً في طلب الكمال والابداع اللذين لانهاية لهما؟ فالاديب يشرف على هذه الدنيا من بصيرته فاذا وقائع الحياة في حذو واحد من النزاع والتناقض واذا هي دائبة في محق الشخصية الانسانية تاركة كل حي من الناس كأنه شخص قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ، فاذا تلجأ ذلك في نفسه اتجهت هذه النفس العالية الى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والانسانية والايمان والفضيلة وقامت حارسة على ما ضيع الناس وسخرت في ذلك تسخييراً لا تملك معه أن تأبى منه ولا يستوي لها أن تغضب فيه ، ونقلت الانسانية كلها ووضعت على مجاز طريقها أين توجهت فتأكد الامر فيها ووصل بها وعامت أنها من خالصة الله وأن رسالتها العالم هي تقرير الحب للمتعادين ، وبسط الرحمة للمتنازعين وأن تجمع الكل على الجمال وهو لا يختلف في لذته وتصل بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرق في موعظتها وتشعرهم بالحكمة وهي لا تتنازع في مناحيها . فالاديب من هذه الناحية يشبه الدين كلالها يعين الانسانية على الاستمرار في عملها وكلاهما قريب من قريب ، غير ان الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهى والادب يعرض لها ليجمع ويقابل ، والدين يوجه الانسان الى ربه والادب يوجهه الى نفسه ، وذلك وحى الله الى الملائكة الى نبي مختار وهذا وحى الله الى البصيرة الى انسان مختار فان لم يكن للاديب مثل أعلى يجهد في تحقيقه ويعمل في سبيله فهو اديب حالة من الحالات لا اديب عصر ولا اديب جيل . وبذلك وحده كان اهل المثل الاعلى في كل عصر هم الارقام الانسانية التي يلقبها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته

ولا يخذل عنك عن هذا ان ترى بعض العبقريين لا يؤتى في ادبه او اكثره الا الى الرذائل يتغلغل فيها ويتملاً بها ويكون منها على ما ليس عليه احد الا السفلة والجهشوة من طعام الناس ورطاعهم ، فان هذا واضرا به مسخرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة ما فيها من النهي ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة ، وكثيراً ما تكون الموعظة برذائلهم اقوى وأشد تأثيراً مما هي في الفضائل . بل هم عندي ك بعض الاحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهي اقوى مما يأمر الامر على نحو ما يكون من قراءتك موعظة الفضيلة الادبية التي تأمر ان تكون غنياً طاهراً ثم ما يكون من رؤيتك الفاجر المبتلى المشوه المتحطم الذي ينهاك بصورته ان تكون مثله . ولهذا الحقيقة القوية في اثرها — حقيقة الامر بالنهي — يعمد النوابع في بعض ادبهم الى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه او الاحالة في الحادثة التي يصفونها فينتهي الراهب التي في القصة ملحداً فاجراً وترد المرأة البغي قديسة ويرجع الابن البر قاتلاً مجنوناً جنون الدم ، الى كثير مما يجري في هذا النسق كما

تراه لانا تول فرانس وشكسبير وغيرها . وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر ولكنه اسلوب من الفن يقابله اسلوب من الخلق ليدع اسلوباً من التأثير . وكل ذلك شاذ معدود ينبغي ان ينحصر ولا يتعدى لانه وصف لاحوال دقيقة طارئة على النفس لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرة فيها

والشرط في العبقرى الذي تلك صفته وذلك ادبه ان يعاود بالذيلة ... في اسلوبه ومعانيه آخذاً بغاية الصفة متناهيًا في حسن العبارة حتى يصبح وكأن الرذائل هي اختارت منه مفسرها العبقرى الشاذ الذي يكون في سمو فنه البياني هو وحده الطرف المقابل لسمو العبارة عن الفضيلة ، فيصنع الالهام في هذا وفي هذا صنعه الفني بطريقة بدیعة التأثير اصحابها في ادب الفضيلة ما يريد ويجهده فيه ، وفي ادب الرذيلة ما يقوده ويندفع اليه ، كأن منهما انساناً صار ملكاً يكتب وانساناً عاد حيواناً يكتب

واذا انت مسئلت بين رذيلة الاديب العبقرى في فنه ورذيلة الاديب النفسى الذي يتشبه به في التأليف والرأى والمتابعة والمذهب ، رأيت الواحدة من الاخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف : هذا دموعه الله وذلك دموعه الله وشعره . وفي كتابة هذه الطبقة من العبقرين خاصة يتحقق لك ان الاسلوب هو اساس الفن الادبى وان اللذة به هي علامة الحياة فيه اذ لا ترى غير قطعة ادبية فنية شاهدها من نفسها على انها بأسلوبها ليست في الحقيقة الا نكتة نفسية لاهتياج البواعث في نفوس قرائها ، وانها على ذلك هي ايضاً مسألة من مسائل الانسانية مطروحة للنظر والحل بما فيها من جمال الفن ودقائق التحليل

واللذة بالادب غير التلهي به واتخاذ للعبث والبطالة فيجىء موضوعاً على ذلك فيخرج الى ان يكون ملهارة وسخفاً ومضيعة . فان اللذة به آتية من جمال اسلوبه وبلاغة معانيه وتناوله الكون والحياة بالاساليب الشعرية التي في النفس وهي الاصل في جمال الاسلوب ، ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كله كسائر ما ركب في طبيعة الحي إذ يحس الذوق لذة الطعام مثلاً على ان يكون من فعلها الطبيعى استمرار التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها . اما التلهي فيجىء من سخرى الادب وفراغ معانيه ومؤثراته الشهوات الخسيسة والتماس الجوانب الضيقة من الحياة وذلك حين لا يكون أدب الشعب ولا الانسانية بل أدب فئة بعينها واحوالها . فان أدب صناعته أو ادب جماعته غير أدب قومه وأدب عصره . احدهما الى حد محدود من الحياة والآخر عمل جامع مستمر متفنن لان عمله الادبى هو وجوده وكل شيء في قومه لا يبرح يقول له اكتب

ومن الاصول الاجتماعية التي لا تتخلف انه اذا كانت الدولة للشعب كان الادب ادب الشعب

في حياته وافكاره ومطامحه والوان عيشه ، وزخر الادب بذلك وتنوع وافتن وبني على الحياة الاجتماعية . فان كانت الدولة لغير الشعب كان الادب أدب الحاكمين وبني على النفاق والمداهنة والمبالغات الصناعية والكذب والتلبيس ، ونضب الادب من ذلك وقل وتكرر من صورة واحدة . وفي الاولى يتسع الاديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كل من حوله الى الاحساس بالكون ومجاليه واسراره في كل ما حوله . اما الثانية فلا يحس فيها الا احوال نفسه وخليطه فيصبح ادبه اشبه بمسافة محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويحيى حتى يمل بنفسه ذهابه ومحيته

والعجب الذي لم ينتبه له احد الى اليوم من كل من درسوا الادب العربي قديماً وحديثاً انك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للادب في اسمى معانيه الا في اللغة العربية وحدها ولم يغفل عنه مع ذلك الا اهل هذه اللغة وحدهم

فاذا أردت الادب الذي يقرر الاسلوب شرطاً فيه ويأتي بقوة اللغة صورة لقوة الطبع وبعظمة الاداء صورة لعظمة الاخلاق ، وبرقة البيان صورة لركة النفس ، وبدقة التركيب المتناهية في العمق صورة لدقة النظرة الى الحياة ، ويريك ان الكلام أمة من الانفاظ عاملة في حياة أمة من الناس ضابطة لها المقاييس التاريخية محكومة لها الاوضاع الانسانية مشترطة فيها المثل الاعلى حاملة لها النور الالهى على الارض

واذا اردت الادب الذي ينشئ الامة انشاء سامياً ويدفعها الى المعالي دفعا ويردها عن سفاسف الحياة ويوجهها بدقة الابرة المغناطيسية الى الآفاق الواسعة من الحياة ويسدها في اغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرر المحكم ؟ ويملا سرأرها يقيناً ونفوسها حزماً وابصارها نظراً وعقولها حكمة وينفذ بها من مظاهر الكون الى اسرار الالهية

اذا أردت الادب على كل هذه الوجوه من الاعتبار وجدت القرآن الحكيم قد وضع الاصل الحي في ذلك كله . وأعجب ما فيه انه جعل هذا الاصل مقدساً . وفرض هذا التقديس عقيدة واعتبر هذه العقيدة ثابتة لن تتغير ، ومع ذلك كله لم ينتبه له الادباء ولم يحدوا بالادب حذوه وحسبوه ديناً فقط وذهبوا بادبهم الى العبث والمجون والنفاق كأنه ليس منهم الا بقايا تاريخ محتضّر بالعلل القاتلة ذاهب الى الفناء الحتم

والقرآن بأسلوبه ومعانيه واغراضه لا يستخرج منه للادب الا تعريف واحد: ان الادب هو السمو بضمير الامة

ولا يستخرج منه للاديب الا تعريف واحد: ان الاديب هو من كان لامته ولغتها في مواهب قلمه لقب من القاب التاريخ

العلم والفلسفة والاخيلة الشعرية^(١)

للامير مصطفى الشهابي

أشرت في المقالة التي عنوانها «هو اجس في الانسان وحياته» وهي المنشورة في مقتطف نيسان «ابريل» من السنة الحاضرة الى ان العلماء (أو اصحاب الفلسفة اليقينية) لا يؤمنون بغير ما يمكن اثباته بالطرائق العلمية من مختلف العلوم التي تقع تحت الحس او تدرك بدلائل عقلية راهنة. وهم يقدحون في اصحاب فلسفة ما وراء الطبيعة ويتهمونهم بأنهم اناس يرجعون بالغيب ويتيهون في ببداء من الاوهام ويتخبطون في خضم من التخيلات الفارغة عندما يجزمون العلة والمعلول وقدم العالم أو حدوثه والأزل والأبد وكنه القضاء وشكله وأسباب الوجود وغير ذلك من التصورات التي لا تحس ولا يمكن للعقل السليم ان يثبتها على الطرائق اليقينية. ويغالي بعضهم فيتهم الفلاسفة المذكورين بأن كل اجسامهم اخيلة شعرية لا تتعدى اذهانهم ولا يقوم دليل علمي على وجود مدلول هذه الاخيلة خارج اذهان هؤلاء الفلاسفة. ويستنتج العلماء المشار اليهم انه ما دام الأمر على ما ذكرنا فلا جدرك ترك الابحاث الفلسفية واطراحها جانباً وعدم التعرض لها البتة

ويهب الفلاسفة في وجه العلماء قائلين: لقد آمننا بشرائعكم العلمية التي تريدونها على الأكتفاء بها ولكن هذه الشرائع ليست كل شيء في هذا العالم ولا يمكنكم منع دماغنا عن تأمل هذا الكون واستقصاء احاجيه وعلاقته بذلك الإنسان الذي لا يفتأ يجالذ في الحياة ويكافح وهو كثيراً ما يتألم وقليل ما يفرح وربما كتب له النصر أحياناً لكنه من المتحتم عليه ان يهلك في النهاية مقهوراً مدحوراً. ثم ذلك العقل البشري اليس له حاجات طبيعية يجب فحصها، وذلك الفكر الجيئاش بالخواطر والاخيلة اليس من الضروري ان ننفذ الى اعماقه حيث نرى منتجاته فنفرز فيها السمين من الغث وارادتنا التي نتباهى بها اليس لها مطالب يجب اثباتها وتقديرها حق قدرها. وهذه الطبيعة التي نراها هل تسير بذاتها ام لها علة تسييرها، واذا كان هنالك علة فهل هي مادة أو عقل أو شيء لا يمكن إدراكه؟ وهل للكون حدود في الفضاء أم لا، وهل له بداية ام هو ازلي اذ لا بد من أن يكون أحد الأمرين صحيحاً. وما هي ماهية الإنسان ومن أين اتى وإلى أين يذهب وهل العالم مخيّر ام مسير بجبرية لا

(١) كتبت بعد ثلاثة تهاافت الفلاسفة للفرالي وتهاافت التهاافت لابن رشد ومستقبل فلسفة ما وراء الطبيعة لفويه Alfred Fouillée الفيلسوف الفرنسي والحركة الفكرية ضد العلوم اليقينية المعنوية لفويه أيضاً والفرق بين الفرق للبغدادى

تزعج. وهل أمام العالم رقي أم هو يدور ابدئاً على حاله ، وما الحركة العامة للكائنات وما الحكمة فيها. وهل القواعد الاخلاقية شرعية واجتماعية خصب أم لها اساس في الطبيعة كلها ويضيف الفلاسفة الى ذلك أن تأثير الفلسفة في حياة الناس الاخلاقية والاجتماعية أمر لا يمكن للرجل المستنير أن ينكره . ولا تكون سيرة الإنسان واحدة اذا ما اعتقد بأن عالم المادة والحواس هو كل شيء أو اذا ما اعتقد بأن وراء ذلك حياة اعلى واتم واقرب من الحقيقة. ولا يكفي ان يُلقي الإنسان الجبل على غاربه ويقول « لا أدري » فاللاأدرية غير واردة لأنها تحكم بأن العقل البشري عاجز عن ادراك هذه الامور دون أن تناقش وتتوخى اثبات صحة هذا العجز أو عدم صحته . هذا ولكل عالم فلسفته حتى اينشتين نفسه فان العلم اليقيني لم يمنعه عن البحث في الفضاء — الزمن وهو من ابحاث الفلسفة لا من ابحاث العلوم اليقينية. والخلاصة ان الفلسفة تدوم ما دام للإنسان دماغ يفكر في هذا العالم وفي غوامضه

عند ما يصل الفلاسفة في تبجحهم الى هذا الحد ينفد صبر العلماء فيقولون :
لو قصر الفلاسفة بحجهم على المدركات خاصة وعلى ارتباط ذهننا بما لا يمكن ادراكه لسكتنا على مضض ولتركناهم يتناولون هذه الموضوعات التي قد تكون صحيحة او غير صحيحة . اما ان يعمدوا الى ما لا يمكن ادراكه كالعلة او الله مثلاً فيبتسوا بتسا انه موجود او قابل الوجود او غير قابل الوجود او يمكن ان يكون على شكل ما أو لا يمكن ان يكون على شكل ما أو له صلة بالكائنات او لا صلة له بها او ان الكائنات صورة منه او انها ليست صورة منه فهذه امور لا يستطيع العقل البشري ان يجزمها والاجدر بالإنسان اذا ما سئل اسئلة كهذه ان يسكت ويقول لا أدري او ان يجيب بلفظة «ربما» دون غيرها . وجزم الفلاسفة لما لا يمكن ادراكه يجعل العلماء يسخرون بهم لاننا نرى كل فيلسوف يقطع امراً مخالفاً لما قطعته رفيقه فأين هي الحقيقة يا ترى ؟ هذا يقول بقديم العالم وبكونه موجوداً مع الله ومساوفاً له وبأن خلق العالم من القدم في دائرة الزمن اعتقاداً من الحماقة بمكان . فالعالم ازلي لا بدء له وهو لم توجده علة وذاك يقول بعكس ذلك اي بأن العالم مكوّن ومحدث وعلى ذلك اصحاب الاديان . ومع هذا لو سألتهم اصحیح ان العالم خلق منذ نحو ٨٠٠٠ سنة اجابوك ان ذلك مخالف لقواعد العلم والفكر الاساسية لان الفكر لا يتصور ماهية العدم ولا كيفية خلق الكائن منه ولا السبب الذي حمل الآله على اتيان هذه الاعجوبة منذ ٨٠٠٠ سنة او اكثر او اقل . اما العلة التي كوّن هذا العالم فقد ذهبوا فيها كل مذهب فالليونان خاصة والرومان بعدهم جعلوا لكل شيء الهاً او أكثر وجعلوا لهذه الآلهة كل ما يمكن ان تتصوره من صفات بشرية فالآلهة لديهم تتحارب وتتخايل وتتشائم وتسمر للطرب وللالعاب وترتاد اما كن الربية ومجالس الفساق فتسكر وتعربد وتتنازع الجميلات الحسان من إناث الآلهة الى آخر ما يمكن للناس ان يعملوه حتى السفلة منهم

وهذا جوبيتر (المشتري) اب الآلهة ورئيسها ورب السماء والارض آتدري بأي عجوبة جاء الى هذا العالم ؟ لقد خرج من فم ابيه ساتورن وعده او نذر بأنه سيلتهم اولاده عقب ولادتهم ومنهم جوبيتر. خزنتم امرأته حزناً شديداً وفتقت لها قريحتها بعد لأي أن تضع حجراً مكان ابنها جوبيتر حتى اذا ما جاء الأب ليوفي بوعده التهم الحجر بدل الطفل . وكذا كان . لذلك نجح رئيس الآلهة جوبيتر من الموت الزؤام وادرك اباه فهو ي به عن العرش ثم اخذ يفرق الكائنات على الآلهة لكنه لم يغفل عن حقوقه الشخصية فاحتفظ لنفسه بالسماء والارض معاً . ونظر الى ذوي القربى فبر بصلة الرحم وجعل اخاه نبتون إله البحر واخته سِرس إلهة الزراعة وابنته ديانا إلهة الصيد وابنته مينرفا إلهة الحكمة والفنون . اما بناته التسع الملهمات الشعر للشعراء فقد جعلهن ربات الفنون والاعلاق النفيسة . فأعجب لهذا الاله القادر وسل نفسك ماذا كان يحل بالعالم لو ان والده جوبيتر لم تضع حجراً مكانه بل تركت اباه يبتلعه وهو طفل في حجرها ...

ثم انظر الى فينوس الزهرة إلهة الجمال المولودة من زبد البحر ما اجملها وهي تخرج من بين الامواج ويدها تعقص شعرها فكم تمت غادات اليونان ان يحاكيها بحماتها الساحر الفتان ولا تنس ذكر سِرس إلهة الزراعة ولكن اذا كنت مثلي ذا صلة بالزراعة والنبات فلا تتردد واعبد من شئت ممن انعموا عليك من ارباب الزراعة الخالدين مثل اوزيريس المصريين ونينيب الكلدانيين وغيرها

ولكن أليس من الغريب ان هذا الجيش من الآلهة لم يرض احد منهم حتى اليوم بأن يتجلى امام احد من سكان هذه الارض الحيارى البائسين واين الجن والابالسة الذين طالما تغنى بوصفهم الشعراء وأخيف بذكرهم الاطفال والله در فيلسوف المعرة القائل :

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به حساً يحس الجنى ولا ملك

واذا نبا عقلك عن عبادة آلهة اليونان والرومان فعليك بآلهة المصريين الاقدمين فقد كانوا ايضاً عظماء لدى الناس مثل رع وايزيس واوزيريس وسائر الفراعنة وهم كثر . ويمكنك ان تعبد النيل وتحزم مثلهم ان ماءه ينزل من السماء ومع هذا لا تنس ان رواد ايماننا هذه قد كشفوا الغطاء عن منبعه وتبعوه حتى مصبه فاذا به لا صلة له بالسماء البتة

وربما جال في خلدك أن تتخذ لك صنماً تعبد . لكنني أخشى أن يكون من عجين أو حلوى فتضطرب الى أكله في مضطرب هذه الأزمة الاقتصادية كما فعل بعض العرب قبل الاسلام . وأخشى ايضاً أن يصيبه ما أصاب صنم بني سليم وكان سادنه يسمى غاوي بن ظالم فبينما هو ذات يوم جالس بعيداً عنه اذا بشعلبان اقبلا وهما يشندان فشعر كل منهما رجله وابل على الصنم فنظر اليه غاوي متأملاً وقال

ارب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بآلت عليه الثعالب
وتمجّس إن شئت واعبد النار والنور أو عليك بالأله برهما وواجهه الثلاثة أو آمن
بأقائم النصرى أو بالآه المسلمين الواحد الأحد أفطن انك وصلت الى حيث تبتغي أي بلغت
سدره المنتهى فارتاح فكرك وخلا من هواجسه . انك ياصاح ما برحت امام مذاهب عدة
في كل من هذه الديانات . وأنت تحار أيها اصدق . فاذا كنت مسلماً مثلاً أتكون من القدرية
او المعتزلة او الجهمية او المشبهة الى عشرات من الفرق التي يكذب دعاة كل منها اتباع الفرق
السائرة . او كنت من المسيحيين فربما ضعت في معترك الفرق النصرانية . وبعد مهما يكن نوع
اعتقادك بالعلة الاولى فايك ان تجعل منها في حياتك سبباً للكره والنزاع والقسوة والآن
عدنا الى مثل مذاهب « سان برتلي » الوحشية ايام شارل التاسع في فرنسا او الى مثل فظائع
الأزارقة من الخوارج في الإسلام الذين ظل القائد الكبير المهلب ابن ابي صفرة يحاربهم
مع ابنائه تسع عشرة سنة

* * *

ومتى بلغ العلماء هذا الحد من التعرض لمذاهب الفلاسفة واللاهوتيين الذين يتناولون
بأبحاثهم ما لا يمكن ادراكه كالعلة الأولى مثلاً فيفصلونها على قدر عقولهم او على قدر ما تبلغه
اوهامهم يغضب الفلاسفة على العلماء ويقولون : متى كانت علومكم هي الحقيقة يقينية بعينها .
ليست العلوم مجموع شرائع ذهنية لحوادث الطبيعة تتصورها نحن كما تتصور الأبحاث الفلسفية .
لا شك ان هذه الشرائع تركز على الحس والعقل وهي مضبوطة ضبطاً رياضياً في الغالب
وتدعمها التجارب والوقائع الراهنة لكنها هي شيء والطبيعة نفسها شيء آخر . فالغاز مثلاً
لا يتمدد بقانون ماريوط بل يتمدد بمؤثرات خفية لا يطلعنا القانون المذكور الا على نتائج
عملها والا على حساباتنا الرياضية لهذه النتائج . ولذلك نرى ان الطبيعة والحقيقة الواقعية
تجهل شرائعنا وارقامنا وطرائق تصوراتنا للطبيعة وتمثيلنا لها . وليست القوانين العلمية في
النهاية سوى افكار تجول في خاطرننا كلافكار الفلسفية . وهذه الافكار شيء وعالم الطبيعة
كما قلنا شيء آخر . ثم لنفرض اننا اتينا الى هذا العالم بعد ملايين من السنين واننا حللنا كل
حوادث الطبيعة بقوانين لا تقبل الاخذ والرد اوضبطنا كل هذه القوانين بقانون أعلى يشملها
جميعاً افتظنون ان دماغنا يكتفي بذلك ام هو يتساءل هل هذه الحوادث وقوانينها العلمية
والقانون الاعلى لقوانينها هي كل شيء في هذا الكون وهلاً يوجد شيء داخلها أو خارجها ؟
وبعد هذا كيف يطعن العلماء بالفلسفة متمثلين بمذاهب فلاسفة القرون الاولى والوسطى
مع ان فلاسفة اليوم قد ارتقت مداركهم وتصوراتهم عن قبل كما ارتقت العلوم نفسها فصارت
تؤخذ بوسائل يقينية غير الوسائل القديمة

وبعد ان يسكت الفلاسفة ويشفوا غليلهم من العلماء يقوم الشعراء الخياليون متبرمين متضجرين من القيود الحسية والعقلية التي يتقيد بها الفريقان فيقولون . اما نحن ياسادتي فلنا الاخيلة الواسعة والتصورات التي لاحد لها سواء اكان لها ظل من الحقيقة ام لا . فنحن اذا شئنا ضربنا الآلهة بعضهم ببعض ووقفنا الافلاك عن الدوران ووحدنا الاضداد واعدنا الموجودات وخلقنا ما اردنا من العدم . فان قلتم هذه اوهام سينمية لا تتعدى اذهاننا قلنا اثبتوا لنا ان العالم لا يصح ان يطلق عليه اسم السينما الاكبر . . . واثبتوا انه لا يوجد وراء حواسنا الخمس اشياء يجب لادراكها ان يكون لنا غير هذه الحواس . . .

ومتى وصلت المهارة الى هذا الحد يقوم رجل حكيم منصف وزن الامور بميزان العقل فيقول : لكل من العلوم والفلسفة والاهوام الشعرية حدود يجب ان تقف عندها . فالعلم اليقيني اليوم يتناول صلة الموجودات الثابتة بعضها ببعض بصرف النظر عن صلتها بالشخص الذي يحس ويفكر او صلتها بمجموع العالم . ولا يهتم في العلوم اليقينية الا لمعرفة ماهية انصلاص التي تربط الاشياء الثابتة بعضها ببعض ولذلك يمكن في العلم ان يتطلع الانسان لمعرفة النتائج من المقدمات اي معرفة الحوادث التالية من التي سبقتها وادت الى حدوثها دون ما حاجة الى معرفة الاسباب التي اوصلت الى ذلك اي الى حصول الحادث اللاحق من الحادث السابق . وتكون العلوم اليقينية ثابتة لانها تفرض بادئ بدء صحة شيء ما دون الابتعاد عنه وتقف عند النتيجة الحاصلة دون ان تتعدها . والعلم اليقيني كما ترون صحيح بذاته لكنه لا يتناول سوى جزء من الاشياء الحقيقية عدا ان كل علم لا يتعدى الحدود التي رسمت له . فالليكانكي مثلاً لا يهتم لغير الحركة والرياضي لغير الارقام والمسافات وهكذا . والعالم في نظر العلوم اليقينية كالمرآة المكسورة يتناول كل علم قطعة منها

اما الفلسفة فانها تجمع قطع هذه المرآة وتسعى لرؤية صورة الكون بها . فالفلسفة اذن هي التطلع لمعرفة الكون بمجموعه ومعرفة النفس التي تدركه . وهي ايضاً انتقاد العلوم وتحديداتها واتمامها بافكار يتوخى بها تصوير وحدة الكون الحقيقية . والسؤالان العظيمان اللذان تتناولهما الفلسفة هما كيف يمكن معرفة الاشياء وكيف تكون هذه الاشياء . ويجب ان لا تتناول الفلسفة سوى المدركات وسوى علاقة ذهننا بما لا يمكن ادراكه ولا ينبغي لها ان تجزم الامور في كل ما لا يمكن ادراكه مادام العقل البشري غير قادر على بته

ويتضح من ذلك ان الفلسفة تركز منطقياً على الاستقرار وانها تتوخى جعل الحقائق ضمن المعقولات اما الاخيلة الشعرية فاوهام لا نحسها ولا نعقلها

قبيلة عربية

من اصل ايطالي

شغفت من عهد بعيد بمطالعة مؤلفات السائحين الذين وفدوا منذ القرون الوسطى حتى القرن الماضي على مصر وبلاد الشرق الادنى فقرأت منها الشيء الكثير ولا سيما ما كتبه السائحون الايطاليون امثال شريا كودي أنكونا — وليوناردو فرسكو بالدي — وبيتروديلا قاله — وجيوثاني باتستا پلسوني دي يادوفا — وايودينو روزوليني دي پيزا وغيرهم الذين قصوا في مؤلفاتهم كثيراً من الاخبار الطريفة عن مصر وآثارها وأهلها من حضر وبدو وذكروا الكثير من عاداتهم وصناعاتهم وطبائعهم. وقد لفت نظري بنوع خاص ما كتبه عن القبائل العربية الضاربة في صحراء ليبيا ولكن بعد كل ما اطلعت عليه من اخبار هذه القبائل لم يكن ليخطر ببالي ان احدى هذه القبائل الشهيرة بقوتها ومنعة جانبها وهي قبيلة «السناجرة» يجري في عروق ابنائها الدم الايطالي حتى كان الاسبوع الماضي عند ما ذهبت لزيارة صديقي العالم الكبير الاستاذ الدكتور جوفاني كاپوڤيلا المدرس بالجامعة المصرية — في منزله ووجدت في يده مجلداً ضخماً هو مذكرات احدى هؤلاء السائحين الايطاليين الذين زاروا مصر في القرن الماضي وهو العالم المهندس روبتي بريكتي Robecchi-Brichetti الذي وصل الى مصر في سنة ١٨٨٥ ميلادية وبقي فيها مدة وكان هو اول من قام من الاوربيين برحلة في واحة سيوه والجهات المجاورة لها وكانت رحلته بحجة الاستقصاء وجمع الاعشاب الطبية المفيدة في معالجة المرضى ولكن يظهر انه كان له غرض آخر لم يكن ليبوح به لاحد وهو البحث عن موميات الفراعنة المدفونة بالواحة لانه خاطر بحياته بالنزول في احدى مقابرها القديمة ونجح في استخراج عدد كبير من الموميات من بطونها وهي احسن ما وجد من هذا النوع وارسلها كلها الى ايطاليا حيث لا تزال موضع اعجاب السائحين والمتفرجين في متحف فلورنسا. وقد اعجب بها وشاد بذكرها الكاتب الايطالي الذائع الصيت پاولو مونتجازا Paolo Montegazza ، ومات بريكتي من عهد قريب بعد ان طبع مذكراته في سنة ١٩٠١ م عن رحلته «الى معبد آمون»

وبعد ان استقر بي المقام بمنزل الدكتور كاپوفيللا بادرنى بسؤالى عما عساى ان اكون سمعت عن قبيلة السناجرة وعن منشئها ومؤسسها فقلت له لقد سمعت بها واظن اننى سبق ان قرأت شيئاً عنها وكل ما اذكره انها من القبائل العظيمة الشأن التى تقيم فى صحراء ليبيا فى منطقة واسعة ممتدة على الحدود المصرية الطرابلسية عند ساحل البحر الابيض المتوسط من شرق مدينة طبرق حتى واحتي جغبوب وسيوه جنوباً وعندئذ قال لى الا تعلم ان هذه القبيلة من اصل ايطالي وانها تنسب الى رجل من مدينة شاكا Sciacca فى جزيرة صقلية اسمه سينكييري ترينا كريزي Sinchieri الذى سماه العرب «سنجر» عند ما اسلم وأقام بينهم ولاسلام هذا الرجل قصة طريفة تقرأها فى هذا الفصل وفتح لى المجلد وأشار لى الى فصل عنوانه «قبيلة عربية من اصل ايطالي» فلما قرأته آثرت نشره لطرافته وها هو بالحرف الواحد

« ٩ اغسطس

انتشر بسرعة البرق ذلك النبأ القائل بان نصرانياً أو اوروبياً حضر مع القافلة من مدينة الاسكندرية وذلك لاننى عقب الفجر فى الصباح الباكر ألقيت نفسي يحيط بي عدد كبير من الناس الذين حضروا لمشاهدتى ولقد كانت هذه أول ليلة انام فيها تحت خيمة حقيقية منذ ان بارحت مدينة الاسكندرية ونمت نوماً هادئاً لاني لم اعد افكر فى السهر على امتعتى وأمنت من سطو اى انسان على ذلك لاننى نزلت ضيفاً على اسرة بدوية من كرام أسر قبيلة السناجرة ولست أدري هل كان سروري بشعوري بالراحة والطمأنينة أو هو الهواء الطلق النقي أو نسيم البحر القريب هو الذى قوى عندي الشهية لتناول الطعام لاننى بمجرد ان استيقظت من نومي وتناولت قهوتي شعرت بحاجة شديدة الى الاكل والتهمت صحناً كبيراً من الارز وبعض القوقع البحرى الذى كنا جمعناه فى اثناء الطريق فى اليوم السابق

ويخيل لى اننى حصلت على معلومات صحيحة طريفة عن قبيلة السناجرة وكل ما عرفت فى هذا الشأن وصلنى عن طريق شاب بدوى غاية فى الادب والطف اسمه حسن عبد المولى ذكى الفؤاد عذب الحديث يبلغ السابعة والعشرين من عمره تزوج من زمن ليس بالبعيد ولكنه سرعان ما افترق عن زوجته لعدم تلاؤم طباعهما . وقد تعلم هذا الشاب القراءة والكتابة منذ الحداثة فى احدى مدارس السنوسيين فى زاوية «رحم الغرب» وكان رفيقاً فى رحلتى من الاسكندرية الى هنا وقد جذبني طول الحديث بلطفه وادبه الجم حتى صرنا صديقين حميمين وبالامس لم يكذب ينزل عن ظهر بغيره حتى دعاني الى خيمته وقدم لى ماء عذباً طيباً احضره من بئر قريبة

ذهبت بعد الظهر الى خيام البدو المتقدمين في السن من الرؤساء ذوي النفوذ والمساكنة للتسليم عليهم ولكي اقدم لهم بعض نفقات التبغ ولكي استقي منهم بعض المعلومات الا كيدة عن قبيلتهم وقد أجمع كلهم على ان السناجرة يكونون شعبة كبيرة من البدو يزيد افرادها على العشرين الف نسمة وكل هؤلاء يرتبطون برابطة القرابة والمصاهرة بالقبائل الاخرى . وتمتاز قبيلة السناجرة باستقلالها المطلق فان رجالها يعيشون مغتربين وسعداء في جبالهم ذات الطرق المتنوعة المتشعبة التي لا يمكن ان يعرف منافذها سواهم ولم يعترفوا باية حكومة ولا باية سلطة حكومية عليهم ولم يخضعوا للتجنيد ولا يدفعون ضريبة أبداً كانت ولا يتساحون في اي قانون يخالف عقيدتهم وایمانهم الثابت كالصخور التي يعيشون بينها

والسناجرة مزارعون مهرة ورعاة اغنام لا مثيل لهم في تربية الماشية ولكنهم يعيشون مستقلين بعيدين عن اية مضايقة من اي نوع كانت ولذلك فليست لهم اية علاقات باحد قانعين برعاية اغنامهم ومواشيهم هنا وهناك ولا يزرعون من الاراضي الا بقدر ما هو ضروري لهم ولحاجاتهم وما اسعد الرجل الذي لا يعرف الحاجة لانه لا يعرف ما هو الحرمان مادام بطنه ممتلئاً مما كان نوع الطعام الذي اكله !

واني لاستطيع ان افهم سر الجفاء القائم بينهم وبين اولاد علي الذين هم اعظم القبائل في الصحراء الليبية والذين يبلغ عددهم نحو المائة الف نفس دون مبالغه وكلهم شجعان اقوياء محبون للقتال ولكنهم مع هذا خضعوا لسلطان الحكومة المصرية في عهد المغفور له محمد علي باشا عزيمصر وكانوا يقدمون للجيش المصري حتى عهد المرحوم سعيد باشا عدداً كبيراً من الجنود البواسل وهذا الجفاء الموجود بين القبيلتين الصديقتين يرجع الى علاقات اولاد علي بالحكومة

واذا كانت لاولاد علي السلطة والهيمنة على قلب الصحراء فان السناجرة يسيطرون على البحر وسواحلهم ولذلك فانهم يقدسون المثل السائر بينهم الذي يقول « طلعنا من البحر ودائماً في البحر »

وهم قبل ابتداء فصل الامطار يسرعون في حرق الارض وبذر الاذرة والفول والعدس والبصل والبطيخ والخيار وعلى الاخص الارز ثم بمجرد سقوط الامطار الاولى يهرعون جميعاً وتذهب كل اسرة من اسرهم للإقامة شهرين او ثلاثة اشهر في الجهة التي يرونها اخصب واكثر ملائمة لهم من غيرها ثم يعودون فيما بعد الى نصب خيامهم في اماكنها الاولى لكي يتمتعوا بالمحصول الوافر الناتج من الارض المنزرعة

ومنهم من يفضل البقاء او يختار جبلاً او سهولاً او اوديةً اخرى ولكن كلها على مقربة من البحر الذي هو اصل مبيتهم
ولقد استطعت ان اصل الى معلومات هامة عن قبيلة السناجرة استقيتها من اوثق المصادر
واصدقها فان تاريخ هذه القبيلة يرجع الى ثلاثة قرون مضت عند ما خرج رجل من اهالي شاكا
في جزيرة صقلية اسمه سينكييري ترينا كريزي Sinchieri Trinacrese كان يشتغل بصيد
الاسماك في سفينة شراعية مع جماعة من رفاقه الى الساحل الافريقي لصيد الاسفنج والمرجان
ولكن السفينة غرقت بكل من فيها ولم ينج منها سوى هذا الرجل الذي التقت به الامواج
بالقرب من الشاطئ فالتقطه العرب وكان في حالة يرثى لها وأتقدوه من الغرق والهلاك

ولقد كان خوفه وهلعهم منهم شديداً ولذلك فانه بقي عدة ايام دون ان يتفوه بكلمة واحدة
بينما كان البدو يكرمون مشواه ويعاملونه احسن معاملة ويعتنون به العناية كلها ولذلك فقد
أسرته هذه المعاملة الحسنة التي عامله بها العرب وذلك الاستقبال الودي الذي قابله به فلم
يُرد مفارقتهم ولم يشأ العودة الى وطنه وآثر ان يقضي بقية عمره بين اولئك البدو الذين
ردوا اليه حياته

ولكي يظهر لهم امتنانه واخلاصه ويؤكد لهم اعترافه بمجميلهم ترك عقيدته الاصلية
واعتنق دين الاسلام ثم تزوج فيما بعد من احدى بناتهم الجيلات وربما كان بقاءه بين العرب
واختياره هذه الحياة الجديدة وهذه العقيدة الجديدة راجعاً الى تعلقه وهيامه بتلك الفتاة
الحسنة التي تزوج منها والتي كانت بدوية رائعة الجمال

ولا يزال العرب من ابناء هذه القبيلة يذكرون اسم سينكييري (سنجر) مؤسس قبيلتهم
هذا بكثير من الاحترام والتبجيل وابناء هذه القبيلة اقوياء الابدان حسان الوجوه يكرمون
الضيف وشجعان فخورون «

الى هنا انتهى ما كتبه بريكييتي ولعل عند سمو الامير الجليل عمر طوسون علم هذه
القبيلة ولعله عرف شيئاً عن تاريخها من اثر بحثه وتنقيبه في صحراء ليبيا ذلك البحث الذي ابان
عنه في محاضراته النفيسة الاخيرة

طه فوزي

فوضى العالم ومسؤولية العلم

WORLD CHAOS : The Responsibility of Science
by William McDougall

== تلخيص وتعليق ==

الاستاذ وليم مكيدوجال كاتب انجليزي نابِه الذِكر وباحث في الشؤون الاجتماعية ولي منصب استاذ علم النفس في ا كبر الجامعات الانكليزية والاميركية . وله مذهبه الخاص في السيكلوجيا عامة وفي السيكلوجيا الاجتماعية خاصة فاذا تكلم أو كتب عن مسائل المجتمع ومعضلة الحضارة الاوربية فقد حق لنا ان نسمع له وان نعرف رأيه ومكانه من الصدق ، وحظه من العمق والصواب

ولقد تناولت الصحف الادبية هذا الكتاب حين ظهوره بشيء كثير من الاهتمام والعناية . وكتب عنه النقدة هناك بغير قليل من الجدل والمناقشة . لان المؤلف تناول فيه مسألة المسائل في الوقت الحاضر . وعرض لهذه الفوضى العالمية بذلك البحث اللامع فتغلغل الى لب الموضوع وجوهره ، وعرض كل ذلك بأسلوب واضح ، وحماسة بينة !

فليس شك ان العالم الآن يجتاز اعصب فترة في تاريخه . وان الحضارة الاوربية تهددها الاخطار من كل حذب وصوب . وان رجال الفكر يتوجسون شراً ان تكون هذه الازمة نهاية الحضارة الراهنة وارتداد العالم مئات الاعوام

فكل بحث يتناول هذه المشكلة ، وكل كتاب يعنى بهذه الفوضى ، هو بحث جدير بالنظر وكتاب يشعر العالم بانه في شديد الحاجة اليه !

فهذه الفوضى البادية في كل ميادين النشاط الانساني ، وهذا الخلل الظاهر في معظم النظم الاجتماعية ، وهذه الاخطار التي تحيق بالمدينة وتكاد تودي بالحضارة ، مما يهيب بكل كاتب وبكل باحث ان يدلي برأيه وان يقترح سبل الخلاص والنجاة

وقد رسم المؤلف صورة حالكة لحالة العالم اليوم ثم عزا هذا الخلل وتلك الفوضى التي نشهد ، والتي تهدد الحضارة بوشيك الدمار ، الى طغيان العلوم الطبيعية على كل مرافق الحياة العامة ، وصور النشاط البشري ، طغياناً أصبحت معه هذه العلوم ووسائلها ونتائجها الآلية هي الكل في الكل . وعاد كل ما عداها صدى لها ، او نفاية لا يعتد بها ولا يحسب حسابها

وليس مكدوجال هو الباحث الوحيد الذي ينظر الى الحضارة الراهنة بعين التشاؤم والخوف ولا هو بالرجل الوحيد الذي يلاحظ مظاهر الدمار وبوارده قوية الاندفاع ، غير بعيدة النتائج . بل هو واحد من رهط كتاب اجلاء ، يشاطرونه الرأي ، ويشايعونهُ النظر ولا يتسمون لدى رؤية المظاهر الكاذبة والتقدم الزائف !

غير ان الجديد الجدير بالناية في هذا البحث ان المؤلف عزى هذه الفوضى — في قوة وبصورة واضحة — الى تقدم العلوم الطبيعية Physical Sciences تقدماً ليس في ميدان العلوم الاجتماعية ودراسة النفسيات ما يقابله أو يقرب منه . فقرر — في غير تلكؤ أو شك او استثناء — ان العلوم الطبيعية ، وما يتبعها من النتائج العملية والمكتشفات الآلية ، هي المسؤولة أولاً ومباشرة عن هذا الاختلال في النظام العالمي ، الذي ابتدأت مظاهرهُ تبدو في النظم الاجتماعية والمصاعب السياسية والازمة الاقتصادية الحاضرة . فليس شك في ان العالم يشهد اليوم ازمة اقتصادية عنيفة لعله لم يشهد مثيلاً من قبل ، وان مسائل السياسة العامة قد بلغت حدّاً من الخلل واختلاف الرأي وتعدد المذاهب لعلها لم تبلغهُ في يوم من الأيام مثل ما هي عليه اليوم من القوة والعنف

ضعف نظام الأسرة ، وانتشار الجريمة ، وتفشي الرشوة وما ماثلها من مظاهر النقص والخلل الاجتماعي في الحضارة الراهنة ، ما كل ذلك الا النتائج المباشرة لتقدم البحث العلمي ، واستفحال أمر الآلة الميكانيكية ، مما اصبحت معه الحياة الهادئة المطمئنة متعسرة صعبة ، أو هي بالفعل وفي واقع الامر ، معدومة !

يقول المؤلف ان الحضارة الراهنة ليست وليدة العلم الحديث كما يخيل الى البعض ، وانما هي ترجع الى ما هو ابعد من العلم الحديث واكثر أيعالاً في التاريخ من « كوبرنيكوس » Copernicus فهي ترجع الى الفلسفة الاغريقية ، والى القانون الروماني ، والى غير ذلك من المخلفات الماضية والتراث الأدبي القديم

والعالم لا يضطرب الآن ، ولا تحتل نظمهُ لو انه لم ينسَ او يتناسى تلك الدعائم وذلك الاساس القديم . ونتج من ذلك أن أصبح البناء اثقل من ان يحتمله الأساس الذي أهمل أمره . وفي الوقت الذي نجد فيه أن احد جوانب هذا البناء قد تضخم و« استكرش » نجد الجانب الآخر ما زال هزيلًا نحيلًا . واذا تصور القارئ شكل بناية أهمل أساسه ، ونقل سقفه ، وتضخم جانبٌ من جوانبهِ كملت عنده صورة الحضارة الراهنة كما تبدو لمكدوجال ، وكملت لخيلته صورة الانهيار الذي لا بد أن يحصل !

فقد صرح الاستاذ رمزي ميور — وهو من الاحرار المجددين — في حديث له مع احدى الصحف « أن الحضارة الراهنة مهددة بالخراب ، اذا لم تتمخض الاعوام المقبلة عن

حرية واسعة للتجارة العالمية ، واذا لم تعمل انجلترا ضد هذا التيار الجنوبي » ١
 وصرح « الديوك أوف نورمبرغ لاند » — وهو الرجل المحافظ — بقوله « اننا على وشك
 أزمة كبرى في الشؤون العالمية . وان ليس في الدلائل الحاضرة ما يشير الى التقدم المضطرب ؟
 وان الأمل في السلام العالمي لم يعد إلا حاماً جيلاً . وكذلك الحال في شؤون الأجماع والسياسة
 فقد دلت النظم الحاضرة على افلاسها وانها لم تعد صالحة للوقت الحاضر . وهذه الظاهرة التي
 نلمحها في التاريخ الأدبي الحديث سيستفحل أمرها الى ان تقضي على البقية الباقية من النظم
 القائمة . والسبب في كل ذلك ان اي حضارة انما تقوم على أساس الدين والوطنية — وقد
 فقدت هذه الأشياء مكانها وسلطانها في العصر الحديث » ١

ويتضح من هذا ان معظم الكتّاب ورجال العلم — على اختلاف مشاربهم وأحزابهم —
 يرون هذه الفوضى ويتوجسون شراً من دوام هذا الروح الخطر
 يقول مك دو جال في تعزيز رأيه ان الإنسان العصري قد اهتم بالعلوم الطبيعية ، فنالت
 هذه العلوم كل الحظوة عند الباحثين والعلماء ، وكل التشجيع من جانب الجمهور والرأي العام
 لأن فوائدها نفعية مادية ! فالآلة البخارية ، والطيارة ، والاتوموبيل ، ووسائل المواصلات الأخرى
 التي قربت المسافات وجعلت السفر من مكان الى آخر لذة وممتعة ، هي في واقع الامر النتيجة
 المباشرة لتقدم العلوم الطبيعية وازدهارها

والسينما والراديو ، والنور الكهربائي ، والنفوغراف واشباهها من آلات الترف ، ومعدات
 النعيم هي الأخرى من دخر العلوم الطبيعية وفيضها ومتاعها . فلماذا لا يقبل عليها الناس
 ويولونها العناية ويساعدون من يعمل في حقها ويقوم بالتجارب والمباحث في ميدانها ، اذ
 جعلت لهم الحياة جنة تجري من تحتها الأنهار !

فنحن نحترم العلوم الطبيعية هذا الاحترام الذي يقرب من العبادة في مظاهره ، ولا يختلف
 عن الايمان الديني في شيء لانها قد أذلت لنا الطبيعة ، ومكنتنا من خيراتها وجعلتنا السادة
 الحكيمين بامرنا ، نقول « كن فيكون » ١

غير ان كل ذلك الترف ، وكل تلك الميزات ، قد ابتدأ ظلها يتقلص . واتضح — ولكن
 أخيراً — أن الصناعة وحدها ، وان الانتاج الفائض ، وان الآلة وسهولة المواصلات وما اليها
 ليست هي كل شيء في نظام العالم ليثبت العالم ، ويرفل الناس في حلل الرخاء والسلام والنعيم .
 لان هنالك عناصر وعوامل اجتماعية وإنسانية لا يمكن ان تقوم حضارة ، او يعم رخاء ، أو
 زدهر ثقافة ، او يستتب أمن ، أو يستقر نظام وتطمئن حياة ، من غير معرفتها والتوفر على
 درسها ، والعمل بمقتضى تلك المعرفة وذلك الدرس !

في هذا العصر الذي نرى فيه كل شيء يغري بالتبحر في العلوم الطبيعية ، نرى من عوامل

التبسيط ، وانصراف رجال البحث والذكاء عن ميدان العلوم الاجتماعية ، ما وقف معه كل بحث نزيه في حقيقة الانسان ، وعلوم المجتمع والحياة عامة

فالكنيسة مثلاً قد وقفت حجر عثرة امام اي بحث في التقاليد والمعتقدات ودرسها درساً حراً . ولم تسلم الجامعات ، وهي المعاهد الحرة ، من هذه العراقيل الرجعية . وحكم بذلك على علوم الاجتماع ان تبقى راكدة آسنة ، واصبح درس الكواكب والالكترونات أهم عندنا بكثير واحق بعنايتنا من درس الانسان ، وهو «الدرس الحق» كما قال بوب في قصيدته المعروفة يقول مكدوجال ما معناه : « اننا نعيش في عصر بلغت فيه الفوضى الاجتماعية اشدها .

ومرجع هذه الفوضى ولا شك هو العلوم الطبيعية . فما علاج ذلك ؟ ! ... العلاج من داء العلم هو زيادة العلم ! ولكن اي علم ؟ ! ... عندنا الكفاية من العلوم الطبيعية وهي التي تحمل تبعه هذا الخراب . ولنفرض بأننا ازددنا بهذه العلوم عرفاناً ، وبها بصراً وتبحراً ، واكتشفنا المدهش الرائع في ميدانها . وجاءنا «اينشتين» آخرفبرهن على ان هذا الفضاء الذي نرى لا وجود له ، ولا حقيقة فيه . فهل ذلك العلم يا ترى يحل مشكلتنا الاجتماعية الحاضرة ، او يجعلنا ابصر بنظام الحكم ، واعلم بطبيعة الانسان ؟ ! »

فعالم السياسة يضطرب الآن وتتجاذبه قوى مختلفة ، وتتنازعه دوافع متباينة . ورجال السياسة يزعمون لنظمهم التي يقترحونها من الصدق والحق ما يجعلنا اشد ريباً واكثر شكاً في حقيقة اي نظام وصدق اية نظرية . وقيام النظم السياسية المختلفة من فاشية ودكتاتورية وديمقراطية وشيوعية الى آخر النظم السياسية الحاضرة هي الدلائل المادية على اننا لا نفهم شيئاً صحيحاً عن حقيقة النظام الاصلاح . واننا نجعل هذا الانسان الذي نود ان نشرع له ، ونسن له القوانين ، ونفرض عليه الحقوق والواجبات جهلاً اقل ما يقال فيه انه لا يمكننا من الاضطلاع بهذه المهمة الخطرة

هل يستطيع الرجل السياسي الآن ان يطمئن الى نتائج بعينها من اسباب محدودة . وهل نحن نعرف الدوافع الانسانية واختلافها ، والظروف الخارجية وتشعبها مما يجعل نظاماً من الحكم ، أو اسلوباً من النظام ينجح في مكان وبين قبيل ، ولا يكون نصيبه مثل ذلك النجاح في مكان ثان ، وبين قبيل آخر ؟ !

وهل نحن نعرف حقيقة التباين ومداه بين الاجناس والافراد . وهل التشابه بين الاجناس البشرية اكثر ، أم ان وجوه الاختلاف اكثر وأظهر وابعد ؟ وهل اصلاح الفروق مستطاع عن طريق التربية والتثقيف ، ام ان لا اصلاح للنفوس ولا تدريب للطباع . وهل البشر يتفاوتون من حيث انتاج الحضارات والابقاء عليها ، ام ان كلهم في هذا الصدد قريب من قريب . وهل حصة التربية وانتشار سبل الصحة هي الآن كما يجب ان تكون ؟ !

وبالاختصار ما طبيعة علم الحياة ، وحقيقة « الانسان » وصحة النظم الاجتماعية ! ؟
 اننا لانعلم من كل ذلك شيئاً يصح الركون اليه والاعتماد عليه . وهذا العلم — لو علمنا —
 هو وحده القدير على انتشالنا من هذه الوهدة التي تتردى فيها الانسانية اليوم !
 وعلم الاقتصاد ، هل هو علم حقا ؟ يمكن عرفان النتائج المحتممة من المقدمات المقررة ؟
 يكفي ردّاً على هذا السؤال وامثاله ان يطالع القارئ اي صحيفة عصرية تتناول الشؤون الاقتصادية
 فيجد من الاختلاف في الرأي ، والتبليبل في وجوه النظر ما يجيب عن سؤاله أشنى جواب !
 ونحن لو كنا اعلم قليلاً بشؤون الاقتصاد والمعاملة لما وقعنا في هذه الازمة الطاحنة
 التي اختلفت الآراء وتعددت في أسبابها ، حتى أصبح كل شيء سبباً لها ، ألا جهلنا بها !
 بل ان هنالك مسائل اقتصادية أولية ، مثل الاساس الذهبي للعملة ، وقانون الطلب والعرض
 يختلف في شأنها هؤلاء (العلماء) الاجلاء ولا يعرفون وجه الصواب فيها
 ومع كثرة احاديث الاقتصاديين هذه الايام عن « الدوافع والقوى » المجهولة ، وعن
 « الثقة » فالعالم ما زال ينفق ملايين الجنيهات في البحث عن الغازات السامة ومعدات
 الحروب ولا ينفق ربع ذلك المبلغ للتوفر على دراسة هذه « الثقة » مثلاً
 وليس يبعد في ظننا ان بعضهم ينتظر من علماء الكيمياء ان يكتشفوا لنا محلولاً كيميائياً
 تصبح « الثقة » بعد تناوله بين الافراد والجماعات مستوفاة مزدهرة . ثم ماهي طبيعة هذه
 « الدوافع والقوى » النفسانية التي كثر الحديث عنها في كتابات الاقتصاديين . اننا بلا شك
 في حاجة الى نور يضيء ظلماتها . ولن يكون ذلك على كل حال بدراسة المريخ والبحث عن معادلة
 الحامض الفنيك !

والسيكولوجيا : هذا العلم الحيوي الذي لا يمكن ان تقوم علوم الحياة والمجتمع على غير اساسه .
 ما حقيقته ؟ . . ان هذا العلم — ونسميه علماً من باب التجوز — ما زال مرتعاً خصباً لمختلف
 الآراء المتنافرة ، ومتباين الاحكام والنظريات . وفي السيكولوجيا الحديثة من النظريات
 والفروض والمدارس الفكرية مما يخيّل للقارئ معه ان هذا « الشيء » الذي نسميه انساناً قد
 يكون الها ، أو قد يكون آلة . أو قد لا يكون شيئاً من الاشياء على وجه الاطلاق ! ؟
 هذه هي مجمل آراء المؤلف . وقد حاولنا تصويرها بأسلوب يقرب من أسلوبه ونسبغ عليها
 شيئاً من مرارة تهكمه وشدة حماسه ونكون امانة في نقل آرائه بعد كل ذلك . والرأي الذي
 يخرج به الانسان من كتابه هذا هو ان علوم الاقتصاد والتشريع والتاريخ والنفس
 والسياسة وخلافها من العلوم يجب ان تكون قبلة الباحثين والنهباء اذا رغبتا في الابقاء على
 حضارتنا هذه وحفظ التوازن الضروري بين معلومات الإنسان . ذلك لأن هذه العلوم هي
 الأسس التي لا يمكن ان يقوم الرقي الآلي والصناعي الأعلى عليها

غير اننا نلاحظ — ولو اننا نوافق المؤلف في النتائج التي توصل اليها والدعوة التي ينادي بها — ان الاستاذ مكيدوجال في اعتقادنا قد فاته أن يشير الى أكثر الأسباب قوة ووضوحاً وصدقاً في تقدم العلوم الطبيعية، وتخلف علوم الاجتماع. ويبدو لنا أن المنفعة المادية التي ذكرت ليست بأميز خواص العلوم الطبيعية، وان كانت نتيجة من نتائجها. غير أنها لم تكن الحافز الأول والمهم لدى العالم في معمله او الرياضي في مكتبه. بل ان هنالك من العلوم الطبيعية، المزدهرة ما ليس فيها اي فوائد مادية مباشرة تنجم عنها أو يقبل عليها الجمهور لفائدتها، كبحاث اينشتين مثلاً ودراسة الفلك وطبقات الارض الخ !

وعندنا ان السبب الأول والمهم في تقدم العلوم الطبيعية انما هو سبب طبيعي لا سبيل الى نكرانه او تخفيه وهو ان العلوم الطبيعية اسهل من العلوم الاجتماعية اذ ان البحث في العلم الطبيعي يرجع الى ملكات الانسان الأولية المشاعة. وان اسلوب البحث العلمي أسهل ووسائل التثبت والفحص فيه قريبة التناول. والباحث في العلوم الطبيعية لا يحتاج الى أكثر من الذكاء العادي الى جانب الملاحظة والفحص والتجربة والمثابرة — الاشياء التي يعتمد فيها على الحواس — والعلم الطبيعي في هذا المعنى لا يعنى إلا بعالم المحسوسات ولا يهتم بالقيم الغامضة والدوافع المجهولة، والسبح وراء التأملات والتخيلات وعالمه انما هو عالم المادة والمحسوسات وادواته موجودة في « حيز الفضاء والزمن ». على خلاف علوم الاجتماع ودراسة الإنسان فإن حظ الحس فيها أقل وعالم القيم والفكر فيها أكثر، ونصيب التخيل والذكاء أوسع. فنحن قد نتفق عموماً على وجود هذه الحروف والكلمات التي تكون هذا المقال. ثم نحلل هذه الصحيفة ومحتوياتها وعناصرها الكيميائية والطبيعية فنرد الورق والخبر الى اصلها والحروف والرسوم الى طبعتها. ولكننا قل أن نتفق على قيمة هذا المقال او نفسية كاتبه او الدوافع التي دفعت به الى تسطيره، لأن مرد هذه الأشياء الى غير الحس والى غير المنطق الذي يسهل الاتفاق عليه بين معظم الناس

فارتقاء العلوم الطبيعية اذاً شيء طبيعي لم يتعد قانون البساطة والسهولة. وليس الغريب ان ترتقي العلوم الطبيعية أكثر من علوم الاجتماع. بل الغريب ان تنعكس المسألة. والعلوم الطبيعية مهما ارتقت تكاد تكون أولية — من هذه الوجهة — اذا قيس بالدين والفلسفة وعلم النفس مثلاً

فاذا نجم عن العلوم الطبيعية بعض الفوائد النفعية فليست هذه الفوائد بواعث تقدمها والاقبال عليها. وان كانت مما يشجع على البحث فيها والمضي في درسها ولطالما ظننت، أن العلم الطبيعي — مهما طنطن الناس بعظمته — أولى في وسائله وفهمه اذا قيس بالدين في صميمه ولبابه

المعنى التائه

أنتِ معنى تائهٌ في ذات نفسي يا حياتي
كلما دققتُ فيه طوحتُ بي خطرَاتي

كان قبل الحبِّ، قلبي، يتغنَّى هائماً
في رياض طلع البدرُ عليها باسماءِ
وليلٍ رقدَ الكونُ عليها حالمياً
تترأى بسمةُ الثغر عليها دائماً
ثم طار القلبُ حيناً في وسيع الخلواتِ
وصداهُ لم يزل يُسمعُ حُلُو النغماتِ...

لست أدري أين ولى، حين ولى ومضى ؟ !
هو في الافقِ توارى، وتلاشى في الفضاءِ
مثل لحظٍ بعثتهُ الغيدُ في ساعِ الرضا
أو كبرقٍ خطف الأَبصارَ لما ومضا
وأختفى عن مقلتي، قلبي، سريعَ النبضاتِ
وتلاشى الصوتُ في الآفاقِ الألهِمَساتِ

همساتُ كُنْ كالوحي سرِيعاتِ التخفي
لم تكدهبِبط حتى أسرعَ في مثل خوف

وتلاشتُ، وأنا ابحثُ عنها مثل طيفٍ
غير أن الزهر افشى سرّها في طيب عرف
فذاكا. واستشعرتُ رُوحِي حديثَ الزهراتِ
فنشقتُ العطرَ حتى اسكرتني نشقاتي

ثملتُ رُوحِي قليلاً، وغفت عيناي حيناً
فتعرتُ ذكرياتي عن جلايب السنينا
ومضتُ ترقصُ أحلاماً تهزُّ الحالمينا
وترامت فوق صدري فترفتُ حنونا
في احتضاني جسمها الرطبَ، وكانت قبلاي
تسترُ الجسمَ المعرّى، عن دنيا نظراتي...

من هي الحسناء؟... ذكرى حب رُوحِي
نزلت من أوجها العالي لمعشوق جريحٍ
من هو المعشوق؟... يا أحلام بُوحي!
لم تبسُح أحلامُ نومي، ورنّت للذكرياتِ
فأفاقت ومضت عني، وحلت يقظاتي

وإذا بالحلم معنى تائه في ذات نفسي
استمد الوحي منه في خيالاتي وحسي
وإذا في راحة النفس، وكون الله ممسٍ
هتفت رُوحِي بقلبي فاذا بالقلب آتٍ
وإذا بالحلم يبدو مُخنياً لي ذكرياتي

ممن لامل الصبر في

نوابغ العرب في العلوم الرياضية

مع الأسف الشديد لم يكن لبعض علماء العرب حظ في البحث عن آثارهم والتنقيب عن منتجات قرائحهم ومعظم ذلك يرجع الى اهمالنا الاهمال الذي جعل البعض ينكر على العرب ملكة الابتكار والذي جعل ايضاً فئة من علماء الفرنجة يأخذون بعض النظريات التي وضعها العرب ويدعونها لانفسهم. وقد كنا ذكرنا امثلة على ذلك في مقالات لنا سابقة في هذه المجلة. ونما لاشك فيه ان اهمالنا ايضاً كان عاملاً من العوامل التي جعلت تاريخ العلوم عند العرب غامضاً ومن ذلك نتج ان طائفة من اصحاب العقول الممتازة لم تنل نصيبها من التحليل وأصبح البحث عنها عسيراً ويحتاج الى جهد كبير لاسيما بعد ضياع بعض المخطوطات. وتفرق الاخر في اوربا ولكن كل ذلك يجب ان لا يحول دون ذكر من نستطيع ان نكتب عنه ولو اسطرأقليلة، وأملنا ان يأتي اليوم الذي تتمكن فيه من ان نفي هذه الشخصيات حقها. ومن هؤلاء ابي كامل شجاع بن اسلم الحاسب المصري الذي ظهر في اوائل القرن الثالث عشر الهجري بين سنتي ٨٥٠ و ٩٣٠ م^(١) وتاريخ حياته غامض « وكان فاضل وقته وعالم زمانه وحاسب اوانه وله تلاميذ تخرجوا بعلمه »^(٢) وله عدة تأليف منها :

كتاب الجمع والتفريق^(٣) وهو كتاب يبحث في قواعد الأعمال الأربعة ولا سيما فيما يتعلق بالجمع والطرح . وكتاب الخطأين^(٤) الذي يبحث في اصول حل المسائل الحسابية بطريق الخطأين^(٥) ويقول كشف الظنون انه كتاب مفيد . وكتاب — كمال الجبر وتاممه والزيادة في اصوله — وكان يُعرف بكتاب الكامل ويقول كتاب آثار باقية « ان هذا الكتاب اول اثر لأبي كامل في الجبر وان المؤلف ادعى انه الف هذا الكتاب لا كمال نقصان كتاب محمد بن موسى الخوارزمي » وقد بين في ان للخوارزمي فضلاً في تقدم علم الجبر والمقابلة . وكتاب الوصايا بالجبر والمقابلة الذي يقول عنه كتاب كشف الظنون في الجزء الثاني ص ٢٧١ ما يلي « قال ابو كامل شجاع بن اسلم في كتاب الوصايا بالجبر والمقابلة الفت كتاباً معروفاً بكمال الجبر وتاممه والزيادة في اصوله والقيت الحجة في كتابي الثاني بالتقدمة والسبق في الجبر والمقابلة لمحمد بن موسى والرد على المحترف المعروف بابي بردة ينسب الى عبد الحميد الذي ذكر انه جده ولما بينت تقصيره وقلة معرفته بما ينسب الى جده رأيت ان أولف كتاباً في الوصايا بالجبر والمقابلة »

(١) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٧ (٢) ابن القفطي — كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١٤٣ (٣) ابن النديم — الفهرست — ٣٩٢ (٤) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٩٢ (٥) صالح ذكي آثار باقية — ج ٢ ص ٢٥٤

وكتاب الجبر والمقابلة^(١) ويقول عنه كشف الظنون في الجزء الثاني في ص ٢٧١ ما يلي «ولأبي كامل المذكور كتاب الجبر والمقابلة مجلد اوله ذكر أنه كان كثير النظر في كتب العلماء بالحساب فرأى ان كتاب محمد بن موسى الخوارزمي المعروف بالجبر والمقابلة اصحها اصلاً واصدقها قياساً وكان مما يجب علينا من التقدم والاقرار له بالمعرفة والفضل اذ كان السابق الى كتاب الجبر والمقابلة والمبتدي له والمخترع لما فيه من الأصول التي فتح الله لنا بها ما كان منغلقة وقرب بها ما كان متباعداً وسهل بها ما كان معسراً ورأيت فيها مسائل ترك شرحها وايضاحها ففرعت منها مسائل كثيرة يخرج اكثرها الى غير الضروب الستة التي ذكرها الخوارزمي في كتابه فدعاني الى كشف ذلك وتبيينه فالتفت كتاباً في الجبر والمقابلة ورسمت فيه بعض ما ذكره محمد بن موسى في كتابه وبينت شرحه واوضحت ما ترك الخوارزمي في ايضاحه وشرحه الخ . وكتاب الوصايا بالجذور^(٢) وكتاب الشامل الذي يبحث في الجبر وهو من احسن الكتب فيه ومن احسن شروحه فيه شرح القرش^(٣) وقد يكون هذا الكتاب هو بعينه كتاب الجبر والمقابلة. وعلى كل فابو كامل قد اعتمد كثيراً على كتب الخوارزمي واوضح بعض القضايا التي لم يبحث فيها وكذلك اوضح في مؤلفاته مسائل كثيرة حلها بطريقة مبتكرة لم يسبق اليها . وله كتب اخري ككتاب الكفاية وكتاب المساحة والهندسة وكتاب الطير وكتاب مفتاح الفلاح^(٤) واشتهر ايضاً برسائله في الخمس والمعشر وكذلك بكتبه في الجبر والحساب^(٥) وهو وحيد عصره في حل المعادلات الجبرية وفي كيفية استعمالها لحل المسائل الهندسية^(٦) ، ولقد كان ابو كامل المرجع لبعض علماء القرن الثالث عشر للميلاد وبرهن على ذلك كاربنسكي^(٧) ومنهم محمد بن حسن ابي جعفر الخازن الذي ظهر في اواخر القرن الرابع الهجري^(٨) ومع الأسف لا يمكننا ان نكتب عنه كغيره من السابقين اذ ان المصادر التي بين ايدينا لا تفيه حقه ولا تكتب عن حياته شيئاً يشفي الغليل فلا نجد مثلاً في كتاب الفهرست لابن النديم الا ما يلي « واسمه وله من الكتب زيج الصفاح وكتاب المسائل العددية » . ويقال انه من الذين حلوا المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط^(٩) اما كاجوري فيقول ان ابا جعفر اول عربي حل المعادلات التكعيبية هندسياً بواسطة قطوع المخروط . وبحث ابو جعفر في المثلثات وقد عرفت ذلك من كتاب شكل القطاع لنصير الدين الطوسي في ص ١١٥ من هذا الكتاب عند الكلام عن الشكل المغني نجد ما يلي « برهان آخر — استعمله ابو الفضل التبريزي في شرح المجسطي وابو جعفر الخازن ايضاً

(١) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٩٢ (٢) كاتب جاني — كشف الظنون — ج ٢ ص ٣٠٦ (٣) كاتب جلي — كشف الظنون — ج ١ ص ٣٨٩ (٤) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٩٢ (٥) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٧ (٦) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٧ (٧) كاجوري — تاريخ الرياضيات — ص ١٢١ (٨) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٧٧ (٩) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٦

في مطالب جزئية ميل الميول الجزئية والمطالع في الكرة المستقيمة قبل ان اقامه هؤلاء الفضلاء مقام الشكل القطاع وتقريره على ما اورده هكذا » وكذلك عند الكلام في فروع المغنى ولواحقها نجد فيه ما يلي « ... وبوجه آخر قد اورده ابو الفضل التبريزي وابو جعفر الخازن كل واحد منهما في تفسيره للمجسطي شكلاً لمعرفة المطالع يتبين هذا البرهان منه وتقريره بان نعيد الشكل الذي اورده رواية عنهما للبرهان على المغنى »^(١) ومن مؤلفاته عدا زيج الصفائح وكتاب المسائل العددية رسالة في الحساب وشرح للمقالة العاشرة من كتاب الاصول لافلديس وهذا الشرح محفوظ في احدى مكاتب الاستانة ومن الذين ظهروا في عصر المأمون احمد بن عبد الله حبش الحاسب المروزي وما يعرف عن حياته نادر^(٢) فيقول كتاب الفهرست انه جاوز سن المائة

وقد قضى معظم اوقاته في المطالعة والبحث في كتب الاقدمين في مختلف الفروع ، وهو من الذين كتبوا كثيراً في الفلك وآلات الرصد^(٣). ويقال انه عمل اول جدول للظل وللظل تمام^(٤) وهذا الجدول في احدى المخطوطات الموجودة الآن في برلين ويظهر ان حبش الحاسب استعمل القطاع ايضاً . وله عدة تأليف منها: ثلاثة ازياج ، اولها المؤلف على مذهب السند هند خالف فيه الغزاري والخوارزمي في عامة الاعمال واستعمله حركة اقبال البروج وادباره على رأي (ثاون) الاسكندراني واتضح له بها مواضع الكواكب في الطول^(٥) وثانيها الزيج الممتحن « وهو اشهر ما له ، الفه بعد ان رجع الى معانة الرصد وضمنه حركات الكواكب على ما يوجب الامتحان في زمانه^(٦) » ومما يدل على خطر هذا الزيج وفضل مؤلفه كون ابي الريحان البيروني في كتابين له دافع عن الزيج الممتحن^(٧) ولقب حبش الحاسب بالحكيم حبش في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية^(٨). وثالثها: الزيج الصغير المعروف بالشاه^(٩). وله ايضاً كتاب الابعاد والاجرام وكتاب عمل الاسطرلاب ، وكتاب الرخائم والمقاييس وكتاب الدوائر الثلاث المهمة وكيفية الاوصال ، وكتاب عمل السطوح المبسوطة والقائمة والمائلة والمنحرفة^(١٠). ولقد لحظت ان للحبش ايضاً زيجين آخرين غير الثلاثة المذكورة — الزيج الدمشقي والزيج المأموني — وهذان الزيجان مذكوران في كتابي تاريخ الحكماء والفهرست ويقول كتاب — آثار باقية — ان هذين الزيجين قد يكونان كناية عن زيج الممتحن^(١١)

قصري حافظ طوقان

نابلس — فلسطين

- (١) نصير الدين الطوسي — شكل القطاع ص ١٢٣ (٢) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٥٦
(٣) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٤ (٤) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ٢ ص ٦٢٠
(٥) صاعد الاندلسي — طبقات الامم — ص ٨٦ (٦) صاعد الاندلسي — طبقات الامم — ص ٨٦
(٧) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٥٧ (٨) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٥٧
(٩) صاعد الاندلسي — طبقات الامم — ص ٨٦ (١٠) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٨٤
(١١) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٥٧

العلم يكشف خفايا الجرائم

المكرسكوب

قُتِلَ « داوود وتر » من اهالي ولاية نيوجرزي الاميركية في ليلة من ليالي الشتاء . فكان مقتله سبباً للتدزع بالمجهر المكرسكوب الى فضح اسرار الجناية . وكان في الدار حينما قتل ربه ، شاب في العشرين من عمره وهو ابن اخي القتل ، ومديرة شؤون الدار ، وسائق سيارة ، قضى عدة سنوات في خدمة ذلك الغني الارمل . وما بلغ الخبر اسماع الشرط حتى خفوا الى مكان الحادثة قصد تحقيقها فسألوا اهل الدار ، الذين تقدم ذكرهم ، عما يعرفونه بشأن الجريمة ، فقرروا جميعاً انهم قصدوا ليلتئذ الى مخادع نومهم مبكرين مغادرين ذلك الشيخ بجانب الموقد حيث كان يصطلي ويراجع حسابات دخله وخرجه وانهم لم يسمعوا في تلك الليلة اصواتاً خارقة للعادة . وقالت مديرة شؤون الدار انها شاهدت في صباح ذلك اليوم سيدها صريعاً على مقعده ذي المسندين المغشى بقماش الكريتون ^(١) وقد حطم رأسه بمطرقة وجدت ملقاة بجانبه مضرجة بالدم

ثم نيط تحقيق الجناية بمخبر سري من الفنيين ففحص مقبض المطرقة فعثر فيه على قطرة دم جسيد ^(٢) وذلك في الموضع الذي مسته ابهام كف الشخص الذي قبض على المطرقة . ودرس المخبر الفني مقبض المطرقة درساً مدققاً بالمجهر فلم يجد فيه آثار لاصابع السفالك لانه كان متفقرّاً حينما اقترف الجريمة . وعندئذ طلب المخبر رؤية كل ما كان في الدار من القفايز فأجاب سائق السيارة بأن قفازه كان قد اتلف بالامس من حامض اريق عليه من احدي بطاريات السيارة فنبذه قصيماً فأصرّ المخبر الفني على معاينته فلم يسع السائق الا ارشاده الى الموضع الذي القاه فيه وهو ركام من رثيث الثياب كان مركوماً في مستودع السيارة ، فشرع المخبر الفني يفتش ذلك الركام حتى عثر فيه على القفاز المنشود . ثم اخذه معه وعرضه للضياء متفرساً فيه فوضح له ان ا姆لة ابهام القفاز اضحت كلها هريئة من تأثير الحامض فيها

وخشى ان تجوز عليه تلك الخدعة المحبوكة فهرول الى معمله العلمي حاملاً بيديه القفاز والمطرقة حيث عرضهما للمجهر مزدوج قوي فأتيج له في ثلاث دقائق الاهتداء الى شيء غريب اذا استطاع في اقل من ساعة الحصول على شريطين محتويين على صورتين فوتوغرافيتين

(١) القماش القطني المنقوش الذي يستعمل للستائر والمفروشات (٢) الجسيد — جسد الدم به لصق

ميكروسكوبيتين حللتا لغز الجريمة . اذ احتوى احد ذينك الشريطين على صورة مكبرة لبقعة دقيقة بيضية الشكل حيث يظهر منخفض خشبي على مقبض المطرقة . وظهر له ان الخراط لما خرط الخشب الذي اتخذ منه مقبض المطرقة كان قد مر على المنخفض من دون صقله . وبان في الشريط الآخر بقعة بيضية الشكل تماثل التي في الشريط الاول بيد انها ملاءى بخطوط موجية الشكل تمثل صورة مكبرة لبصمة بصمت في كف القفاز عند ما قبض القاتل على الاداة التي ارتكب بها الجريمة . والواقع ان المطر كان قد نزل في ذلك الحين فبسل قفاز القاتل . وهذا سبب ظهور البصمة جيداً تحت المجهر . فجاء بالصورتين ووضع طرف احدهما فوق طرف الاخرى فظهرتا كأنهما مطبوعتان من شريط واحد فلم يجد السائق بداً من الاعتراف وهو أن سيده كان قد علم بالسرقا التي كان يسرقها منذ عدة سنوات فهدده ببلاغ امره الى البوليس الا اذا رد كل المسروقات التي سرقها ، فاستاء جداً الاستياء وجعل يفكر في الانتقام . فتسلل خلف مقعده بينما كانت العاصفة تعصف حول الدار ثم قتله بضربة واحدة . وكان السائق المجرم وقتئذ متفزعاً لكيلا تظهر بصمات أصابعه على مقبض المطرقة . ولكن من سوء حظه أن سقطت قطرة من دمائه القاتل على أصبع قفازه فعمد الى ازالها فغمسها في احد الاحماض متوخياً طمس معالم الجريمة ، فتم له ما اراده وانما الى حين . لان الادلة الخفية التي اظهرها الجهر أوقعت ذلك المجرم في أحبولة العدل فاعترف

قال الكاتب الأمريكي : — والذي ابلغني تفاصيل الحادث المدهش المتقدم ذكره هو مخبر في من صفوة المخبرين السريين الذين يعملون تحت إمرة معمل التحليل الكيماوي الخاص بالبحث عن الجرائم بالوسائل العلمية في مدينة شيكاغو بأمريكا . ولقد سمعت بعشرات من النوازل التي استخدمت فيها المجاهر لظهور خفاياها بفحص أشياء دقيقة جداً تتعذر رؤيتها بالعين المجردة ومنها وقائع كانت البيئة فيها على الأتمة الطغاة ، ذرات من الغبار والفلزات ، وحوادث لكبار مزوري الوثائق كان الدليل فيها عليهم تضاريس دقيقة جداً تظهر في المداد الجاف الذي استعمل في الكتابات القديمة وغيرها من وقائع شططار الجناة الذين استدل عليهم المخبرون الفنيون من خدش دقيق وجد على سطح معدني لا تزيد سعته على جزء من ١٠٠٠٠ جزء من العقدة واخرى ضد القتلة حملة المسدسات كانت الادلة فيها شهادات صامته شهدت بها نسالة ضئيلة !! فسجنوا وفالوا القصاص الحق

وبناء على ما تقدم ترى المخبر الفني العصري اذا ما تحفز لعمله ونظف عدسة مجهره ليفحص بها دقائق الاشياء للبحث عن المجرمين خلت ذلك المصباح وهو بين يديه مصباح علاء الدين^(١) في كتاب الف ليلة وليلة العربي المشهور . وللمجاهر المزدوجة اعظم شأن في عالم الجرائم ودوائر

(١) مصباح في الاساطير : اذا ظهر به امرؤ ورغب في صقله فسه يديه يظهر له الجان قال « ليك سيدي : ماذا تبني »

التنقيب عن المجرمين في هذا العصر فيتمكن بها العلماء من فحص الغبار والشعر والوبر وفرز الجواهر الكاذبة ونقد النقود المزيفة . ويتيسر بالمجاهر دراسة انواع الكتابة خطية كانت او طباعة او مكتوبة بالآلة الكاتبة ، درساً فنياً . ويعتمدُ على المجاهر ايضاً في استقراء بصمات الاصابع . وعلمها كذلك المعوّل في فن دراسة الآثار التي توجد على الرصاص المطلق وما يجدر ذكره أن العلماء لا ينون في استنباط الاجهزة العلمية التي تساعد المخبرين الفنيين الذين يعملون في اعمالهم على المجاهر . ومن هذا القبيل ان متجراً من متاجر ديترويت في الولايات المتحدة الامريكية عرض في السوق مجهراً مجهزاً ببطارية كهربائية تشعل مصباحاً ينير المجر ليلاً كي يستعمل في التحقيقات الليلية . وان صانعاً من صناعات مدينة نيويورك ايضاً قد اخترع مجهراً محتويّاً على عدة مصابيح كهربائية صغيرة الحجم . وتمت ايضاً مجاهر قوية من الصنف الممكن طيه ونشره لتستعمل في الميادين . وآلات لمعارضة الاشياء بعضها ببعض ذات عدسات مزدوجة تظهر للدرس شيئين في آن واحد ، وهذه تصنع على احجام مختلفة . وهناك آلات اخرى مزدوجة تكبر الاشياء الدقيقة الى ١٢٠٠ ضعف اخترعت مندجحة بعضها في بعض لكي تستعمل بمثابة أدوات وقتية في المعامل العلمية عند اشتداد الحاجة اليها . فأصبحت اجهزة ذلك الفن تتراوح في الحجم بين آلات صغيرة يتسنى عملها في الجيب ولا يزيد جرمها على ربع الريال ، الى اجهزة ضخمة تبلغ هامة الانسان طولاً ويصل وزنها الى نصف طن والذي اخترع هذا المجهر الضخم (الذي يسمى مجناسكوب) المستعمل في المعامل العلمية هو (لوقا . س . ماي) المشهور بكشف اسرار الجرائم بالوسائل العلمية . وهذا المجهر يكبر الجسم الى ٥٠٠٠ ضعف . فاذا اتفق لك زيارة مختبره العلمي في مدينة سيتل بولاية واشنطن استطعت رؤية عدسة ذلك المجهر الصقيلة وابصرت شعرة الانسان المكبرة خلفها عمود تليفون ، وذرة الغبار كأنها صخرة ضخمة . واصغر شُرط الكتابة التي تخطها ببراعة فولاذية ، ممتدة كأنها شريط أسود عريض على سطح ابيض هذا المجناسكوب هو الذي ذاعت شهرته منذ سنتين في الكشف عن جنائية غامضة بالوسائل العلمية . وتفصيلها كما يلي : —

اضطر موظف من موظفي احد مناجم ولاية ايداهو الى الغياب عن داره ذات ليلة لانشغاله في عمل يتعلق بادارة المنجم وترك قرينته في الدار وحدها . وكانت تلك الليلة حالكة الظلام فأوجست الزوجة خيفة وباتت ساهرة حتى بعيد الساعة الاولى بعد منتصف الليل فسمعت صريف أحد ابواب مخدعها يطرقه طارق فارتعدت فرائصها ثم سمعت هيمعة المعتدي وهو يتلمس طريقه في غرفة خارج الغرفة التي كانت نائمة فيها حيث كان يُعَيِّثُ^(١) في خزانة الملابس

وكانت تحتوي على ٦٠٠ ريال كان زوجها مزماً ايداعها في البنك صباح اليوم التالي . وما أيقنت من وجود اللص في الدار حتى اخذت تصرخ بأعلى صوتها مستغيثة بحفظة الامن والجيران . حينئذ استحوذ الذعر على اللص وشرع في الهرب حاملاً غنيمة في احدى يديه فاتجه نحو النافذة وهو يظنها باباً مفتوحاً فغاب ظنه فاشعل ثقاباً لينير طريقه ، فما تبينه حتى لاذ بالفرار تحت جناح الليل قبل قدوم الجيران . ولما كانت تلك السيدة لم تلمح وجه اللص فلم يجد المحقق أي دليل يستدل به على الجاني فحفظ القضية لافتقاره الى البينة الكافية فرأى ولاية الامور الاستعانة بالمستر لوقا . س . ماي فلبى الطلب وتولى التحقيق

وكان اول سؤال وجهه الى ربة الدار المجنى عليها « اين أشعل اللص ثقبه ؟ » فاجابته قائلة « بجوار النافذة » . وكانت ربة الدار بناءً على ارشاد الشرطة قد تركت كل شيء من الامتعة التي كانت في الغرفة التي وقعت فيها السرقة في تلك الليلة على حاله حتى يفحصه المخبر الفني . فلما دخل ذلك المخبر المشهور ، الحجرة رأى فيها كرسيين مائلين نحو الحائط بجوار النافذة ثم شاهد بجانب ذينك الكرسيين على أرض الغرفة ثلاثة عشر عود ثقاب لا عوداً واحداً كما كانت تزعم ربة الدار !!!

وجعل مخبرنا هذا ينقب عن الجاني فعلم انه في المساء السابق لحدوث السرقة كان ذلك الموظف رب الدار هو وصديق له جاءه زائراً ، يدخان بجانب النافذة ساعات طويلة حيث اشعلا في اثناء التدخين كثيراً من عيدان الثقاب . وكانا يرميا المستعمل منها تحت اقدامهم فسر المستر ماي بتلك العيدان الثلاثة عشر الصغيرة الحجم فالتقطها من ارض الغرفة وغني بجمعها في يده . وكان عند حسن ظنه فانه لما فحصها وجد اثني عشر عوداً منها محتوية على خطوط مستطيلة اما العود الثالث عشر فكان مستديراً مثني الطرف . فأشار المخبر الى ذلك العود وقال « هذا هو ضالتي المنشودة » . وادار وجهه نحو مجهر قوي كان يحمله واخذ يدرس عود الثقاب الصغير الآنف الذكر فوجده ملوناً بدقيقة من الشحم وذرة من تراب الفحم الحجري وذرة من خليط معدني مؤلف من برادة الحديد والنحاس الاصفر مما يستعمل في اللحام بالنحاس . ثم دققة من خيط طريف لا مثيل له في مجموعة المستر ماي الوافرة . فكانت هاتيك البينات العشر التي عثر عليها في ذلك العود الصغير كافية لارشاده الى المجرم — ذلك انه قصد الى المناجم السبعة المجاورة لمكان وقوع الحادثة ودخل غرفة الآلات البخارية في كل منها وفتشها فعلم ان احدى تلك الآلات كانت قد نسفت منها احدى رؤوس أساطينها وذلك في نهار اليوم الذي حدثت فيه السرقة فسأل قائلاً « أين البراد الذي برد ذلك الرأس الطائر من الاسطوانة بعيد لجه بالنحاس ؟ » فجيء به في الحال فتفرس في اظفاره واخذ يخرج من تفقها ذرات تراب فحم حجري واخرى من برادة خليط الحديد والنحاس الاصفر . ثم جرد المخبر ذلك الصانع من ثياب العمل

التي كان يرتديها وقتئذ فابصر تحتها حلة أخرى (بذلة) مصنوعة من نسيج غريب ذي شكل شاذ . ففتش جيوب تلك الحلة فوجد فيها بعضاً من الثقاب مستديرة الشكل مثنية الاطراف . ثم اخرج المخبر ذرات من وبر بطانة جيوب تلك الحلة فاذا هي مطابقة من كل الوجوه لقطعة الخيط الدقيقة التي وجدت عالقة بعود الثقاب الثالث عشر . وبناءً على تلك النتيجة القى المخبر الفني القبض على الصانع المشار اليه وقاده الى مكتب عمدة البلدة فلم ير السارق مفراً من اقراره بوزره وهو سائر في الطريق قبل وصولها الى مقر العمدة . وكان القبض على ذلك الجاني من المدهشات إذ اتيح للمخبر الفني اخراجه من وسط ٧٠٠ صانع من زملائه الذين يعملون في مناجم تلك البلدة بولاية ايدهاو

ولما كانت ذرات التراب وغبار المعادن ذات فوائد جلية في حل معضلات الجرائم لذلك ترى المعامل العلمية الخاصة بتحقيق الجنايات في اوروبا وامريكا تخص دراستها بفائق عنايتها . وهذا مما حمل الدكتور سيقرين ايكار الفرنسي المشهور بالتخصص في تحقيق الجنايات بالجهر ، على اعلان نجاحه الباهر في طريقة الاستدلال على صناعة أي شخص من ذرات الغبار التي توجد في جوف ساعته

ومثال ذلك ان ذرات الكربون توجد دائماً في بواطن ساعات الصانع ، الذين يستخدمون في مستودعات السيارات ، وعمال الفحم الحجري كما توجد ذرات المعادن في ساعات المهندسين الميكانيكيين وذرات الطين الخزفي في ساعات البنائين . وتوجد أيضاً في بواطن ساعات الحلاقين دقائق من الشعر . وفي ساعات العازفين على الكمنجات ذرات من الراتنج (القلفونية)

وقد حذا حذوهم في تلك الدراسة المخبرون الفنيون في مدينة برلين عاصمة المانيا فتراهم يحملون أنواع الغبار الذي يتطاير من الصناعات المختلفة على ثياب الصانع فيعلق بها . وفي فرنسا مخبر فني قضى عدة أشهر يحلل ذرات الغبار التي توجد في حواجب عيون المجرمين . ومخبر آخر يدرس نماذج الغبار التي توجد لاصقة بصملاخ آذانهم . فلا غرو اذا اصبحت مجموعة انواع الغبار من معدات المعامل العلمية التي يستعين بها المخبرون الفنيون على مقابلة الاصناف بعضها ببعض . ولا مندوحة للقضاة عن التعويل على الشهادة البليغة التي تشهد بها تلك الذرات !!

قال الكاتب الاميركي : — دخلت احدي الحجر المودع فيها مجهر من مجاهر تحقيق الجنايات فقضيت ساعات عديدة في مشاهدة أولئك المخبرين الفنيين قائمين باعمالهم حيث رأيت طبقات من غبار نقض من حذاء مجرم وحلل ابتغاء الاستدلال على تنقلاته قبيل اعترافه بالجناية ، فوجدت فيها ذرات من الطين الخزفي واخرى من تراب زيتي ودقائق من الهشيم وهتافات من الحصى ملتصق بها نزر من التبن والبرسيم . فكانت تلك البيانات بمثابة سجل لحركات المجرم مكن الخبير الفني من رسم الطريق التي سلكها محتدياً حذاءه أنف الذكر إذ يقن الخبير ان

الجاني قد مشى على طريق مغطاة بالزيت فاجتاز حقلًا ذا طين خزي ثم اخترق غابة ومن ثم سار على ضفة نهر حتى التقى عصا الترحال في هري من اهراء الغلال . وثبت ان هاتيك المعلومات ومثيلاتها في عشرات من القضايا كانت معواناً صادقاً لدحض مزاعم المجرمين بانهم لم يكونوا في أماكن الجرائم عند اقترافها وكافية لاثبات التهم عليهم

واليك واقعة خطيرة من وقائع مناهضة المجرمين وهي دراسة الخدوش والآثار التي تتركها السكاكين في الاشياء المختلفة فيتوسل المخبرون الفنيون الى ادراك كنهها بالمجاهر القوية حدث من عهد ليس بعيداً أن ورد على احد اهالي اقاليم الغرب في الولايات المتحدة كتاب تهديد فباشر احد المخبرين الفنيين اقتفاء آثار مرسله فاستدل عليه بشيء تافه وهو آثار دقيقة جداً المبراة « مطواة » وجدت على براية قلم رصاص . ذلك ان ذرة من البراية الخشبية كانت قد سقطت عرضاً في الظرف الذي غلفت به الرسالة قبيل ارسالها بالبريد الى ذلك الوجه

فيتناول الخبير الفني الصور المكبّرة بالمجهر الخاصة بالخطوط الغائرة والبارزة التي وجدت في البراية فاذا هي مطابقة جداً المطابقة للآثار التي تركتها مطواة عشرين عليها في جيب احد المتهمين أما اذا اريد تسجيل الآثار التي تتركها السكاكين الكبيرة والفؤوس والبلط والقدم فيتناول الخبير الفني آلة حادة منها ويضربها في قالب من شمع النحل فتؤثر شفرتها فيه التأثير المرغوب اذ تترك في القالب قطعاً عرضياً تظهر فيه صورة كاملة للخطوط الغائرة والبارزة التي تميز آلة قاطعة من سواها

ولكن الخدوش التي تحدث من الآلات القاطعة للخشب ليست هي وحدها الشواهد التي يستتير بها المخبر الفني في سبيله بل هناك بيانات أخرى جوهرية وهي التي توجد على سطوح المعادن . وفي هذا الصدد يقول الكاتب الاميركي : —

كنت ذات يوم اناقش الاميرالاي كلثن جوارد رئيس المعمل العلمي الخاص بالكشف عن الجنايات في مدينة شيكاغو في تلك الحالة من أحوال أعمالهم فقال : « لو كان لديك مبرد فبردت به شيئاً مرتين لوجدت الأثر الذي يحدث من البردة الأولى مختلفاً عنه في البردة الثانية » وهذا الامراء فيه . وجميع ذلك تراه عدسات المجهر الثاقبة حيث يظهر كل شيء مهما كان دقيقاً سواء في السرعة او الزاوية او الضغط . وكذلك كل آلة قاطعة ومديّة تحدث الأثر الذي يرم عليها تماماً وتأيداً لما سبق نورد الحادثة الآتية التي وقعت في كاليفورنيا من عهد قريب

سطا لصان شاطران على الصناديق التي تودع فيها أجور المحادثات التليفونية الأوتوماتيكية في شوارع المدن الساحلية بكاليفورنيا فأخذوا يكسرون أقفالها ويسلبان ما فيها من الدراهم والدنانير فغنا من ذلك ثروة جزية . واستمر في عملهما ستة اسابيع وكانا يفتحان الصناديق عنوة بمقاطع ومفكات خاصة ثم يهربان قبل أن يتمكن الشرطة من ادراكهما . ثم قبض الشرطة

ذات ليلة على شايين في فندق من فنادق مدينة سيتل بولاية واشنطن ففتشوا حجرة نومها فعثروا تحت حشيرة السرير على مقاطع وآلات أخرى . فكانت تلك الأدوات هي الدليل الوحيد على اتهامها . ولكنه دليل غير كاف لتأييد التهمة تأييداً تاماً . فاستعان ولاية الأرموري بمخبر فني فأخذ يفحص الآلات السابقة الذكر فعرض المجهره الثاقب الخدوش التي وجدت على آخر صندوق نقود وقعت فيه السرقة والخدوش التي أحدثت بالآلات المضبوطة فثبت أنها تشبه بعضها بعضاً كل الشبه اذ بينت عدسات المجهر مائة أثر كبير الحجم في مساحة لا تزيد على ثمن بوصة . وكان بعضها قبل التكبير لا يزيد على جزء من ١٠٠٠٠ من البوصة المربعة فتأيدت التهمة عليهما فسجنا واليك نادرة أخرى من نواذر الانتفاع بالمجاهر أبلغنيها الدكتور هرمان بنديسن وكان وقتئذ موظفاً منوطاً به فحص اسباب الوفيات الفجائية ومناهضة الجرائم وهي كما يأتي : -

اشتهر منذ بضع سنين اخوان من افطع السفاحين إذ بلغ عدد الذين قتلهم بمسدساتهما اثني عشر رجلاً ، فأخذ الشرطة في البحث عنهما حتى قبضوا عليهما راكبين سيارة . مأجورة في شارع متشيغان وطفقا يفتشونهما فتجههم لهم القاتلان ولكنهما لم يسعهما الا الاذعان للتفتيش . فلم يجدوا معها شيئاً ولكنهم عثروا في السيارة على مسدسين من النوع الأتوماتيكي محشوئين بمخبوءين خلف كرسي السيارة فاعتقلوها متهمين بتريب الاسلحة . فاصر المتهمان على القول إنهما لا علاقة لهما مطلقاً بدينك المسدسين . ثم دافع عنهما محاميهما بأن طلب أمام المحكمة سجل عداد السيارة من الشركة التي تديرها . فالتضح بفحصه أن أحد عشر راكباً ركبوا السيارة نفسها في ذلك اليوم وعندئذ قال المحامي لا بد أن أحد أولئك الركاب قد دس المسدسين المشار اليهما في المركبة

وسألني الدكتور بنديسن قائلاً : « ليت شعري ماذا ترى في الوسيلة التي توسلنا بها الى الصاق التهمة بدينك المجرمين رئيسي العصابة ؟؟ » فأجبتُه من فوري قائلاً « لعلها بصمات الأصابع » فقال « كلاً لم تكن البصمات واضحة وضوحاً يساعدنا على ذلك بيد أننا عثرنا في أثناء التفتيش على نسالة لاصقة بأنبوبي المسدسين من بطانتي جيبي الحلية التي حُمِلَ فيها فاحضرنا في الحال بنطوني المتهمين وفتشنا جيوبيهما حتى حصلنا منها على ندافة فقابلناها تحت المجهر بالنسالة التي وجدناها عالقة بالمسدسين فالتضح انهما من نوع واحد فاستنتجنا من ذلك ان المسدسين لدينك السفاحين بل عرفنا سلاح كل منهما بالذات »

ويوجد لدى المستر فرنك جومبرت الموظف في ادارة الأحكام المدنية في مدينة لوس انجيليس بكاليفورنيا مجموعة نماذج طريفة من الأوبار جمعها من أقطار العالم كافة وذلك توحياً لاطلاع المخبرين الفنيين عليها لكي تعاونهم على الاضطلاع بأعمالهم . ويقال ان تلك المجموعة مؤلفة مما يزيد على مائتي الف نوع من الور

وقد علمت أن العلماء كثيراً ما يلجؤون إلى المجهر كي يمتحنوا به نسالة الأقمشة في القضايا الغريبة . ومن هذا القبيل ما حدث في مدينة من مدن الأقاليم الشرقية بالولايات المتحدة من عهد قريب حيث كان مندوب لشركة من شركات صنع الملابس ، كشف عرض نماذج من مصنوعات الشركة على الجمهور ترويجاً لها ، وهي صدارات لا يؤثر فيها الرصاص إذا أطلق على ملابسها ، أقام هذا الرجل دعوى على زوجته قصد تطليقها ومن سوء طالع أنه هو نفسه لم يكُ لابساً صداراً من ذلك النوع حين وجوده في المحكمة فحدث أن دعاه القاضي للشهادة فنهض من بين النظارة في المحكمة . وما لبث أن نطق بالشهادة المطلوبة حتى وثبتت زوجته من مكانها وانترعت من مثبتتها^(١) مسدساً كان مخبأً فيها وأطلقت منه طلقتين ناريتين فطاش أولهما واخترق الثاني الجزء العلوي من رئة زوجها اليسرى فزقه . ونقل المصاب إلى المستشفى ليعالج حيث قضى أسبوعاً وكان يرجح شفاؤه ولكنه أصيب بخلة بالتهاب رئوي فتوفي مأسوفاً عليه .

وجعل ذوو الشأن يتساءلون : هل حدث الالتهاب الرئوي من الطلق الناري؟؟ وعرضت القضية على المحكمة لتفصل فيها فندبت للتحقيق الخبراء الموثوق بعلمهم فقام هؤلاء بكشط باطن الجرح الذي اخترقته الرصاصة ثم عرضوا الكشاش^(٢) وخصوه بالمجهر فرأوا نساlet من ثياب القتل الخارجية قد نفذت إلى صدره حاملة إليه الجرائم التي ستمت الجرح فكانت منشأ الوفاة . فحكمت المحكمة بتأييد تهمة القتل عمداً على القاتلة .

وقصارى القول ان المجهر الدوار قد أصبح ذا شأن عظيم في حل معضلات الجنايات وذلك بامتحان الأوبار والخيوط والألياف حينما ينشق القماش أو يتمزق . لأن شقة القماش مهما بدت للعين المجردة منتظمة الحواشي فلا تحسبها كذلك لأن عدسة المجهر تظهرها مخرسة . وقد ثبت ذلك جلياً حينما يُلْمَسُ شعنها فتتعاشق كما كانت

وفي كثير من القضايا يظهر المجهر التزوير على الوثائق ونحوها ويوضح أيضاً الغش الذي يرتكب في تقليد الاختام الشرعية وفي تزيف النقود . ومن النوادر التي كان للمجهر القدح العللى في فضح أسرارها ما يأتي :-

حدث في صباح يوم من أيام الخريف الماضي بعيد الساعة التاسعة أن لمح رهط من الناس رجلين وهما كياوي مشهور ومعاون له ، كان حديث الخدمة عنده ، بلجان معملاً صغيراً للتحليل الكيماوي حيث كان ذلك العالم يقوم بتجارب في السوائل الطيارة . وما انقضت ساعتان حتى سمع الجيران صوت انفجار هائل فتغلغلوا في الشارع مستطلعين الخبر فوجدوا النار مشتعلة في ذلك المعمل الكيماوي والسنة الالهيب تندلع من نوافذه مشبعة بالمواد الكيماوية . ودمر الحريق المعمل برمتيه قبل وصول وسائل الاسعاف . فلما أدركته فرقة المطافي أخذ رجالها

(١) المثبتة — كيس تضع فيه المرأة مرآتها وغيرها وجمعها مثابن (٢) الجلد المكشوط

يشقون طريقهم في اطلال المعمل المتصاعد منها الدخان فعثروا في خلاها على جثة متفحمة فاستدلوا من آثار الثياب التي وجدوها تحتها ومن خاتم وجدوه في أصبع من أصابع اليد اليمنى أن المحترق هو العالم نفسه وأما معاونه فلم يوقف له على أثر

وشرع المحققون في التحقيق فتبين لهم ان العالم السابق الذكر كان قد أمّن حياته حديثاً في غير شركة على مبالغ كبيرة ثم عهدوا الى الدكتور شنيدر استطلاع مكنونات الكارثة فاستنتج مما قام به من المباحث التي اجراها في شعر القاتيل ، اذ جاءه معاونه الفني بثلاث نشرات من شعر قذال (١) الكيماوي المحروق (حيث صين قذاله صيانة جزئية بحرام مبلل) ووافاه معاون آخر بسباطة (٢) من شعر العالم الكيماوي نزعها من فرجون شعر كان يستعمله في بيته قبيل الحادث ثم عورضت الشعور بعضها ببعض وهي تحت عدسات المجهر فظهر الاختلاف توّاه ظهور الشمس في رائعة النهار وعند ذلك ثبت للدكتور شنيدر أن شعر العالم الكيماوي كان دقيقاً سبطاً مستديراً بينما السبد (٣) الذي نتف من رأس الرجل الذي وجد محترقاً كان قطر الشعرة فيه اكبر منه في شعر العالم الكيماوي وشكله بيضي مما يدل على ان شعر القاتيل كان جعداً . وهذا مما يبين بلاشك لعيني الخبير الفني ان القاتيل لم يكن هو العالم الكيماوي

وأعلنت الجرائد تلك الخفايا المهيجة للعواطف فاخذ القراء يتهافون على قراءتها ولكنهم ما لبثوا ان بوغتوا بنبا آخر لاسلكي من مدينة بورتلند في ولاية أوريجون وهو انتحار رجل غريب كان زياراً في فندق قريب من صميم المدينة وانه هو الكيماوي المفقود . وقد تحققت شخصيته باعترافه الذي كتبه بخط يده قبل اقدمه على الانتحار . وكان يقصد بتلك الجريمة الشيطانية التدليس على شركات التأمين وابتزاز أموالها

وتفصيل الحادثة ان الكيماوي احرق ليمه المعاون عمداً وانه لم يستخدمه في العمل الا لسبب واحد وهو مشابهته التامة له ليظفر بغايته ثم انه البس الجثة ثيابه وخاتمه تمويهاً على الناس لكي تجوز عليهم الحيلة . وقد ارتكبت تلك الحناية عقب اهراقه الايثروثاني كبريتور الكربون على فريسته ثم هرب دون ان يراه احد تاركاً تلك المواد الكيماوية المتصاعدة لتشتعل وتتفاعل بمضي الوقت . وما تجلّت تلك الحقائق الباهرة في الحوادث التي اوردناها وغيرها حتى ثبت ثبوتاً قاطعاً بان المجهر خير معوان للخبير الفني في اظهار خفايا الاوزار وسلاح ماضٍ لمقاتلة اللصوص والفجار والجرمين العتاة بالوسائل العلمية . فليتنا نستفيد من هذه المباحث القوية المدهشة (نقلاً عن مجلة العلم العام الاميركية) عوض جندي

(١) القذال ما بين الاذنين من مؤخر الرأس (٢) السباطة ما سقط من الشعر اذا سرح

(٣) السبد القليل من الشعر

فلسفة التاريخ الاسلامي

في القرن السابع للهجرة

كان التاريخ الاسلامي من التواريخ المصابة بالجود والتعصب ، فلم يتمحص من الاكاذيب والتوليدات والخرافات ، ولم يتخلص من قيود الرواية الشعبية والاسناد التعصبي ، ولم يتملص من سلطة دجاجة الدين الا في عهود هي في تاريخ الاسلام كالشبايك المنيرة لقرارات السجون الحالكة ، ولقصر هذه العهود المنيرة والمواترة بينهما ، نظر المحققون الى تاريخنا الاسلامي نظراً الى الآثار المهمة والابنية العتيقة المتداعية التي طالما استرمت فلم يرمها أحد واستهدمت فلم تجدد ، والحق في ناحيتهم لانه — على كونه تاريخنا — نرى فيه من الاضطراب والتناقض والاختلاق والمبالغات ما لا يسكت عليه الا جاهل ولا يؤمن به الا دجال مخداع ، وحسبك دليلاً على ما ذكرنا ان بعض المنافقين كانوا يكذبون على رسول الله — ص — في حياته فيسمع باكاذيبهم ويصعد المنبر ويعلم الناس بانها مكذوبة ، والاسلام حينئذ غض فتي والايمان شمس مشرقة والفرائض ثابتة الاعلام راسخة الصوى . ان كل تاريخ لامندوحة لاهله عن تفهم فلسفته ، ولا بد لهم من فستنه في مصهار التحييص كفتن الذهب المخاوط بغيره في البوتقة ، وان الفلسفة تسير حرية الدين وإباحة المعتقدات وعهد ترقى العقل ، وتحمد في عصور دجاجة المتسلطين والساطين الجاهلين والشعوب المبتلاة بالتعصب الاعمى

إن قلة فلسفة التاريخ الاسلامي ناشئة من ان اسلافنا — على رأي جماعة — ناس كاملون كلاً بشرياً فافعالهم كاملة صالحة بعد افعال انبيائهم — ان لم تكنها — فمن تعرض لها بتمحيص او نقد او تحليل كان ملحداً زنديقاً فيلسوفاً ، والفلسفة كانت عندهم ترادف الزندقة ، مع ان هؤلاء الجاهلين لو تتبعوا الاخبار تتبع ناقلاً عاجلاً لاجل لوجدوا ان اولئك الاسلاف الآدميين كثيراً ما غلطوا فاستدركوا غلطهم وطالما وهموا فوق قواعلي او هامهم وربما تاهوا فارشدوا الى لقم الطريق وما نستحسن ذكره ههنا انه قد جاء في الاخبار ان الامام عليا — ع — كان يتكلم مع جماعة فرقه يهودي فقال له « لو انك تعلمت الفلسفة — يا ابن ابي طالب — لكان يكون لك شأن من الشؤون » فقال له الامام علي « وما تعني بالفلسفة ؟ اليس من اعتدل طباعه صفامزاجه ومن صفامزاجه قوي أثر النفس فيه ومن قوي أثر النفس فيه سما الى ما يرتقبه ومن سما الى ما يرتقبه فقد تخلق بالاخلاق النفسانية ومن تخلق بالاخلاق النفسانية فقد صار موجوداً بما هو انسان دون ان يكون موجوداً بما هو حيوان وقد دخل في الباب الملكي الصوري وليس له عن هذه

الغاية مصير « فقال اليهودي : « نطقت بالفلسفة جميعها في هذه الكلمات يا ابن ابي طالب ^(١) »
فهذه الحكاية سواء أكانت صحيحة ام مولدة تثبت عليهم جواز تعلم الفلسفة لان الذي يتدع
حديثاً لاستحسان شيء هو راض به بحيز له بداهة

ولو تتبع منصف عاقل ضحايا الفلسفة والزندقة في تاريخ الاسلام لذابت نفسه أسفاً من
اتخاذهم الدين وسيلة للتشفي والنار وستر عيوب السياسة واشباع الطمع ومماشة الجشع وطلب
الدنيا والجاه ، ولا اترك القارئ وفي نفسه شيء مما قلت بل اذكر له بعض الحوادث الدالة على
صحّة الدعوى ، فقد نقل الجاحظ عن عبد الله بن ياسين : ان المهدي بن المنصور كان فيه غزل
وشدة حب للخلوّة بالنساء فبلغه جمال عن ابنة لكتابه ابي عبيد الله فقال للخيزران : « استزريها »
فاستزرتها وجاءت اليها ، فقالت لها الخيزران : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلت
الحمام وافاها المهدي فبرزت له ولم تستر عنه فقال لها : انا وليك فزوجيني نفسك ، فقالت
انا أمتك ، فزوجها ونال منها ، فلما انصرفت أخبرتها اخوتها بما كان فقالوا : أمسكي عنه ، فلما
كان بعد مدة قالوا لها : استزري الخيزران ، فاستزرتها ، فلما صارت اليها قالت : هل لك في
الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلتنا معاً ما شعرت الخيزران الا ببني ابي عبيد الله قد عمدوا عليها
فاستترت عنهم ، فقالوا لها . لو اردنا ان تفعل كما فعلت بحرمتنا لفعلنا ولكننا لا نستطيع
فقالت : والله لو رميت ذلك لأمرت الخدم بقتلكم ، فانصرفوا ، فلما رجعت الخيزران أخبرت
المهدي بذلك فكان السبب في قتل المهدي لمحمد بن أبي عبيد الله على الزندقة

ولما استولى البويهيون على العراق وما اليه ازدهرت الفلسفة ازدهاراً عجيباً فنشأت رسائل
اخوان الصفاء وخلان الوفاء وغيرها وسبب ذلك المسامحة الدينية وتحرير العقول بل تجاوزت
الفلسفة الى الشعراء كالمعري أبي العلاء الفيلسوف

والقرن الذي يزيد الابانة عن فلسفة التاريخ الاسلامي فيه كان فاتحة عصور الحرية الدينية
في الشرق فقد كثر فيه الفلاسفة على اختلاف تفلسفهم وبلغ أولو الامر فيه الى درجة رفيعة
من العلم كأبي العباس أمير المؤمنين احمد الناصر لدين الله العباسي أعظم ساسة الخلفاء العباسيين
ومجدد الدولة العباسية وخلافته من سنة « ٥٧٥ الى ٦٢٢ » هـ كان العلم فيها سامي المسكاة
عظيم الحفاوة وافر الاقبال واشتهر من الفلاسفة في هذا القرن السابع « ٦٠٠ — ٧٠٠ »
محمد بن سليمان بن قتلمش حاجب الناصر لدين الله الأكبر ، وسيف الدين ابو الحسن علي الآمدي
ومعين الدين سالم بن بدران المعتزلي وجعفر القطاع الملقب بالسديد البغدادي والموفق عبد
اللطيف البغدادي ونظر الدين محمد بن عمر الرازي وركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب بن
الشيخ عبد القادر الجيلي ، والحسن بن الامير أبي علي بن نظام الملك الوزير ومحمد بن ميثم

البغدادى والحسن بن محمد الاربلى الضرير الملقب عز الدين وعبد الحميد بن أبي الحديد المدائني وعلي بن يوسف القفطي وموسى بن ميمون اليهودي الاندلسي ونجم الدين النخجواني ونصير الدين محمد الطوسي شيخ الفلاسفة وموسى بن يونس العقيلي الموصلى وعز الدولة بن كھونة اليهودي صاحب الابحاث عن الملل الثلاث وكمال الدين حسن بن يحيى ، اما ابو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلوي نقيب البصرة فقد كان فريداً في فلسفة التاريخ ويليهِ في ذلك محمد بن سليمان بن قتلمش . والآن ننقل للقارىء شيئاً من فلسفته في التاريخ الاسلامي وكانت وفاته سنة « ٦٢٠ هـ » (١) « اعني وفاة محمد بن سليمان »

قال عبد الحميد بن ابي الحديد المدائني « حدثني جعفر بن مكي الحجاب — رحمه الله (٢) — قال : سألت محمد بن سليمان حاجب الحجاب (وقد رأيت أنا محمد هذا وكانت لي به معرفة غير مستحكمة وكان ظريفاً اديباً وقد اشتغل بالرياضيات والفلسفة ولم يكن يتعصب لمذهب بعينه) قال جعفر : سألته عما عنده في امر علي وعثمان ، فقال : هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم وكان ابو سفيان يحسد محمداً — ص — وحاربه ولم تزل الثفتان متباغضتين وان جمعتها المنافسة ، ثم ان رسول الله — ص — زوج علياً بابنته وزوج عثمان بابنته الاخرى ، وكان اختصاص رسول الله لفاطمة اكثر من اختصاصه للبنت الاخرى وللثانية التي تزوجها عثمان بعد وفاة الاولى ، واختصاصه ايضاً لعلي وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه ايأه لنفسه اكثر واعظم من اختصاصه لعثمان ، فنفس عثمان ذلك عليه فتباعد ما بين قلوبهما ، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الاختين من مباغضة أو مشاجرة أو كلام ينقل عن احدهما الى الاخرى فيتكدر قلبها على أخيها ويكون ذلك التكدير سبباً لتكدير ما بين البعيلين ايضاً — كما نشاهده في عصرنا وفي غيره من الاعصار — وقد قيل : ما قطع بين الاخوين كالزوجتين ، ثم اتفق ان علياً قتل جماعة كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله — ص — فتأكد الشنآن ، واذا استوحش الانسان من صاحبه استوحش صاحبه منه ، ثم مات رسول الله — ص — فصبا الى علي جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ولا حضر في دار فاطمة مع من حضر من المتخلفين عن البيعة وكانت في نفس علي امور عن الخلافة لم يمكنه اظهارها في ايام ابي بكر وعمر لقوة عمر وشدته وانبساط يده ولسانه ، فلما قتل عمر وجعل الامر شورى بين الستة وعدل عبد الرحمن بها عن علي الى عثمان ، لم يملك نفسه علي ، فأظهر ما كان كامناً وأبدى ما كان مستوراً ولم يزل الامر يتزايد حتى اشري ما بينهما وتفاقم ، ومع ذلك فلم يكن علي لينكر من امره الا

(١) كتابنا « السنوات الضائعة من الحوادث الجامعة » (٢) توفي سنة « ٦٣٩ هـ » كما في ص ١٤٨ من الحوادث الجامعة لعبد الرزاق بن القوطي الذي قننا بطبعه حديثاً وكما في « ٤٦ : ٥ » من طبقات الشافعية الكبرى للسبكي وراجع شرح ابن ابي الحديد « ٢ : ٢٢٠ ، ٤٠١ » و « ٣ : ٣٨٢ »

منكراً ولا ينهأ إلا عما تقتضي الشريعة نهيه عنه وكان عثمان مستضعفاً في نفسه رخواً قليل الحزم واهي العقدة وسلم عنانه الى مروان يصرفه كيف شاء فاختلافه له في المعنى ولعثمان في الاسم فلما انتقض على عثمان امره استصرخ علياً ولاذ به والقي زمام امره اليه فدافع عنه حيث لا ينفع الدفاع وذبح عنه حين لا يغني الذبح فقد كان الامر فسد فساداً لا يرجى صلاحه « قال جعفر » فقلت له : أتقول ان علياً وجد من خلافة عثمان أعظم مما وجد من خلافة ابي بكر وعمر ؟ فقال . كيف يكون ذلك وهو فرع لها ولولاها لم يصل الى الخلافة ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل ولا تخطر له ببال ، ولكن ههنا امر يقتضي في عثمان زيادة المنافسة وهو اجتماعها في النسب وكونهما من بني عبد مناف والانسان ينافس ابن عمه الاذنى اكثر من منافسته الأبعد ويهون عليه من الأبعد ما لا يهون عليه من الاقرب «

قال جعفر « فقلت له : فما تقول في هذا الاختلاف الواقع في امر الامامة من مبدأ الحال وما الذي تظنه اصله ومنبعه ؟ فقال : لا اعلم لهذا اصلاً إلا امرين احدهما ان رسول الله — ص — اهل امر الامامة فلم يصرح فيه باحد بعينه وانما كان هناك رمز وايماء وكناية وتعريض لو اراد صاحبه ان يحتج به وقت الاختلاف وحال المنازعة لم يقيم منه صورة حجة تغني ولا دلالة تحسب وتكفي ولذلك لم يحتج علي يوم السقيفة بما ورد فيه لانه لم يكن نصاً جليلاً يقطع العذر ويوجب الحجة وعادة الملوك اذا تمهد ملكهم وارادوا العقد لولد من اولادهم اوثقة من ثقاتهم : ان يصرحوا بذكره ويخطبوا باسمه على اعناق المنابر وبين فواصل الخطب ويكتبوا بذلك الى الآفاق البعيدة عنهم والاقطار النائية منهم ومن كان ذا سرير وحصن ومدن كثيرة ضرب اسمه على صفحات الدنانير والدرهم مع اسم ذلك الملك بحيث تزول الشبهة في امره ويسقط الارتباب بحاله فليس امر الخلافة بهين ولا صغير ليترك حتى يصير في مظنة الاشتباه والبس ولعله كان لرسول الله — ص — عذر في ذلك لا نعلمه نحن إما خشية من فساد الأمر وارجاف المنافقين وقولهم : إنها ليست بنبوة وانما هي ملك أوصى به من بعده لذريته وسلالته ولما لم يكن أحد من تلك الذرية في تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصغر السن جعله لأبيهم ليكون في الحقيقة لزوجته التي هي ابنته ولأولاده منها من بعده ، وأما ما تقوله المعتزلة وغيرهم من أهل العدل : أن الله — تعالى — علم أن المكلفين يكونون على ترك الامر مهملاً غير معين أقرب الى فعل الواجب وتجنب القبيح ، ولعل رسول الله — ص — لم يكن يعلم في مرضه أنه يموت في ذلك المرض وكان يرجو البقاء فيمهد للأمامة قاعدة واضحة ومما يدل على ذلك : أنه لما نوزع في احضار الدواة والكتف ليكتب لهم ما لا يضلون بعده غضب وقال : اخرجوا عني ، لم يجمعهم بعد الغضب ثانية ويعرفهم رشدهم ويهديهم الى مصالحهم ، بل ارجأ الأمر إرجاء من يرتقب الأفاقة وينتظر

العافية ، فبتلك الأقوال المحجمة والكنايات المحتملة والرموز المشتبهة مثل حديث خصف النعل ومنزلة هرون من موسى ومن كنت مولاه وهذا يعسوب الدين ولا فتى إلا علي وأحب خلقك إليك وما جرى هذا المجرى مما لا يفصل الأمر ولا يقطع العذر ولا يسكت الخصم ولا يفجم المنازع وثبت الأنصار فادعتها ووثب بنو هاشم فادعوها وقال ابو بكر : يايعوا عمر او أبا عبيدة وقال العباس لعلي : امدد يدك لا يابعك ، وقال قوم ممن رجع به الدهر في ما بعد ولم يكن موجوداً حينئذ . إن الأمر كان للعباس لأنه العم الوارث وإن أبا بكر وعمر ظاماه وغصباه حقه ، فهذا أحدها . واما السبب الثاني للاختلاف فهو جعل عمر الأمر شورى في الستة ولم ينص على واحد بعينه إما منهم وإما من غيرهم فبقي في نفس كل واحد منهم أنه قد رشح للخلافة وأهمل للملك والسلطنة فلم يزل ذلك في نفوسهم واذهانهم مصوراً بين أعينهم مرتسماً في خيالهم منازعة إليه نفوسهم طامحة نحوه عيونهم حتى كان من الشقاق بين علي وعثمان ما كان وحتى أفضى الأمر الى قتل عثمان وكان اعظم الأسباب في قتله طلحة وكان لا يشك ان الأمر له من بعده لوجوه منها : سابقته ومنها : انه ابن عم لأبي بكر ، وكان لأبي بكر في نفوس اهل ذلك العصر منزلة عظيمة اعظم منها الآن ومنها : انه كان سمحاً جواداً ، وقد كان نازع عمر في حياة ابي بكر وأحب ان يفوض ابو بكر الأمر اليه من بعده ، فما زال يقتل في الذروة والغارب في أمر عثمان وينكسر له القلوب ويكدّر عليه النفوس ويغري أهل المدينة والأعراب واهل الأمصار به وساعده الزبير ، وكان أيضاً يرجو الأمر لنفسه ، ولم يكن رجاؤهما هذا الأمر دون رجاؤه علي بل رجاؤهما كان اقوى لأن علياً دحضه الأولان واسقطاه وكسرا ناموسه بين الناس فصار نسياً منسياً ومات الأكثر ممن يعرف خصائصه التي كانت في ايام النبوة وفضله ونشأ قوم لا يعرفونه ولا يرونه إلا رجلاً من عرض المسلمين ولم يبق له مما يمت به إلا انه ابن عم الرسول وزوج ابنته وأبو سبطيه ونسي ما وراء ذلك كله واتفق له من بغض قريش وانحرافها ما لم يتفق لأحد وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحب طلحة والزبير لان الأسباب الموجبة لبغضهم لم تكن موجودة فيهما وكانا يتألفان قريشاً في اواخر ايام عثمان وبعدانهم بالعتاء والأفضال وهما عند انفسهما وعند الناس خليفتان بالقوة بالفعل لأن عمر نص عليهما وارضاها للخلافة وعمر متبع القول مرضي الفعل موفق مؤيد مطاع نافذ الحكم في حياته وبعد وفاته ، فلما قتل عثمان ارادها طلحة وحرص عليها فولوا الأشر وقوم معه من شجعان العرب جعلوها في علي لم تصل اليه ابداً ، فلما قاتل طلحة والزبير فتق ذلك الفتق العظيم على علي واخرجاه «أم المؤمنين» معها وقصدا العراق وأثار الفتنة وكان من حرب الجمل ما قد علم وعرف ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيداً لحرب صفين فان معاوية لم يكن ليفعل ما فعل لولا طمعه بما جرى في البصرة ثم اوجم اهل الشام ان علياً فسق بمحاربة أم المؤمنين ومحاربة المسلمين وانه قتل طلحة والزبير وهما من اهل الجنة

ومن يقتل مؤمناً من اهل الجنة فهو من اهل النار ، فهل كان الفساد المتولد في صفين الأفرعاً للفساد الكائن يوم الجمل ، ثم نشأ من فساد صفين وضلال معاوية كل ماجرى من الفساد والقبیح في ايام بني امية ونشأت فتنة ابن الزبير فرعاً من فروع يوم الدار لان عبد الله كان يقول : ان عثمان لما ايقن بالقتل نص علي بالخلافة ولي بذلك شهود منهم مروان بن الحكم ، افلا ترى كيف تسلسلت هذه الامور فرعاً على اصل وغصناً من شجرة وجذوة من ضرام هكذا يدور بعضه على بعض وكله من الشورى في الستة واعجب من ذلك قول عمر — وقد قيل له : انك استعملت يزيد بن ابي سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلاناً وفلاناً وفلاناً من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وابناء الطلقاء وتركت ان تستعمل علياً والعباس والزبير وطلحة — فقال : اما علي فانبه من ذلك وأما هؤلاء النفر من قريش فاني اخاف ان ينتشروا في البلاد فيكثروا فيها الفساد ، فمن يخاف من تأميرهم ثلثا يطمعوا في الملك ويدعيه كل واحد منهم لنفسه كيف لم يخف من جعلهم ستة متساوين في الشورى مرشحين للخلافة ؟ وقد روي ان الرشيد رأى يوماً محمداً وعبد الله ابنيه يلعبان ويضحكان فسرّ بذلك فلما غابا عن عينه بكى فقال له الفضل بن الربيع : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين وهذا مقام جدل لا مقام حزن ؟ » فقال : « امارأيت لعبهما ومودة بينهما اما والله ليتبدلن ذلك بغضاً وسيفاً وليختلس كل واحد منهما نفس صاحبه عن قريب فان الملك عقيم » وكان الرشيد قد عقد لهما الامر على ترتيب هذا بعد هذا فكيف من لم يرتبوا في الخلافة بل جعلوا فيها كأسنان المشط ؟ « قال عبد الحميد بن ابي الحديد : فقلت انا لجعفر هذا كله تحكيه عن محمد بن سليمان فما تقول انت فقال : اذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام ^(١) »

ونحن لم ننقل هذا ونحن مؤمنون بما جاء فيه وانما لنبين للقارئ كيف كانت فلسفة التاريخ الاسلامي في ذلك القرن السابع والى أي غاية بلغت من تجري الحقائق ورجع الحوادث الى اسبابها وكان في هذا العصر خروج التتر على الشرق الادنى فاستحوذوا عليه بحروب دونهما الحروب العظمى ولكن الحرية الدينية زادت زيادة عظيمة مع حرية التمدد والمذاهب فترقت الفلسفة في الشرق الادنى ، فالقآن (الخاقان) قوبلاي مثلاً ، وهو سلطان المغول ، كان يحب الحكماء والفلاسفة والعلماء والمتدينين من سائر المذاهب والامم ^(٢) وفي ذلك العصر ألف كتاب « الآداب السلطانية » المعروف بالفخري وهو مبني على فلسفة التاريخ والاصول العلمية ومنه اقتبس المرحوم جرجي زيدان قواعد التأليف في التاريخ كما يظهر لكل عارف بأساليب التأليف التاريخي ، هذا ولا نرى في انفسنا حاجة الى ذكر مثال آخر لفلسفة التاريخ الاسلامي في هذا العصر لان في ما قدمنا احساباً وكفاية بالنسبة الى مواضع النشر بغداد مصطفى جواد

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للكاتب: **عبد الرحمن شهبند**

الاسرة السيوعية

الاسرة عند الشيوعيين **تبتدىء** فكرة التشيع في العلائق بين الذكر والانثى منذ ايام افلاطون ، ففي جمهوريته — وهي المدينة الفاضلة التي ذكرها الفارابي — ان السلع والنساء مشاعة في الامة ، وان المرأة يجب ان تشاطر الذكر العمل كما تشاطر الكلبة في القطيع الكلب حراسة الغنم . والمثل الاعلى الذي كان ينشده للمدينة الفاضلة السعيدة هو ان تكون جميع العلائق الشقية خاضعة لسلطة الدولة ومحصورة في اناس يتحلون ببعض الصفات من حيث اعمارهم واهليتهم في الابدان والاخلاق والعقول وهو ما يؤدي الى علم له مقام رفيع بين العلوم الاجتماعية الحاضرة وهو علم « اليوجنيكس » أو اصلاح النسل وعسى الا يستغرب القراء موقف افلاطون شيخ حكماء اليونان في شيوعية النساء ولا موقف من تابعه من متطرفي الاشتراكيين في العصر الحاضر . فان رواد الاصلاح في الشؤون الشقية كما قال (سبارجو) و (ارز)^(١) قد سلكوا في معالجة قضية المرأة والرجل واحداً من سبيلين متناقضين كل التناقض الواحد تحريم الاتصال بين الجنسين بتاتا والثاني التشيع في النساء ، ففي صدر النصرانية امتهنت المرأة وعد الزواج شراً مستطيراً أو وصف بأنه استسلام للطبيعة البهيمية وانهماء في الشؤون الحيوانية وان المثل الاعلى والكمال المنشود هو التبتل والرهابية . على حين يرى طائفة (الشانكر) و (الودنسي) مثل (الانابابست) و (الكالين) وغيرهم من الطوائف المسيحية ينحون نحو التشيع في النساء كأن تعقد موضوع الزواج والعيوب العالقة بجميع طرائقه المنتشرة ارغمت الباحثين على هذا التناقض في الاجتهاد ، وكان من شأن الاشتراكية المتطرفة انها حينما عالجت هذا الموضوع ايدت فكرة التشيع لاسباب بديهية تتعلق برأس المال ، فالاسرة في نظر الاشتراكية متصلة اتصالاً وثيقاً بالتملك الخاص والميراث الاهلي بحيث يصعب الفصل بينها جميعاً ، فلا غرو ان يحسب الاشتراكيون المتطرفون كل زواج فردي او كل نظام عائلي مدعاة الى الانحلال والرجوع بالبشر الى سلطة الراسمالية التي هي في نظرهم علة العلل . والحرص على

تخصيص الخلف بمراث السلف ظاهر في يومنا هذا حتى بين القبائل التي لا تعنى بالعرض كثيراً فقد كتب الي السيد نصوح الخرسا من (الساحل الذهبي) في افريقيا الغربية عن بعض القبائل يقول « اما العرض فغير معروف عندهم واذا احب العبد احداً من البيض قدّم له اخته او غيرها من اهله وذوي قرابته الا امراته فانه يهتم لها لكن اذا تعدى عليها احد فانه يشكوه الى الحكومة ليحصل منه على صداقها ثم يتنازل عنها ، وبسبب هذا الاسترخاء الشقي اذا مات العبد خلف جميع ثروته لابن اخته لانه ليس واثقاً ان الولد الذي ولدته امراته هو من صلبه ، اما ابن اخته فلا شك في نسبه مطلقاً ولهذا فهو الوارث الوحيد بين الاقارب »

واضاف الاشتراكيون الى حقدّهم على التملك والميراث كرههم ان يروا الحكومة تاركة للأفراد الحبل على الغارب يتزاوجون ويتوالدون من غير اشراف ولا قيد مما يعرض الجنس البشري للانحطاط بسبب زواج المرضى والمعتوهين ، والحروب والابوثة والمجاعات بسبب تزايد النسل على وسائل المعيشة ومقومات الحياة

على ان اعلام الاشتراكية لم يحجموا عن الكيل للراسمالية الصاع بالصاع واتهامها بأنها هي تنسخ الزواج وتهدم الاسرة . فالطلاق كما قال (سبارجو) و (ارنر) قد انتشر في النصرانية انتشاراً مريعاً حتى « لم يعد الزواج وضعاً آمناً مما كان على عهد رومية في القرن الخامس . ونحن اذا اضعنا الى كثرة الطلاق انتشار البغاء اضطررنا الى القول ان الزواج الموحد لا يكاد يحسب الصفة البارزة التي تتصف بها علائقنا الشقية »^(١)

ودلت الاحصاءات الرسمية التي ضبطت في الولايات المتحدة على ان عدد اذونات الطلاق بلغت في تلك البلاد في خلال عشرين سنة نهايتها سنة ١٩٠٦ زهاء ٩٤٥٦٢٥ يعني على معدل مائة وثلاثين طلاقاً في اليوم وقد وجد ان كل اربع عقود يتم الزواج فيها يفسخ واحد منها بالطلاق في كثير من الولايات ، ويمنع نحو الثلثين من اذون الطلاق للنساء بحجة الهجر والقسوة غالباً لكن هذه اعدار مصطنعة يتملحها طلاب الطلاق من الجنسين سترّاً للفضيحة والعار وليس في هذه الاحصاءات ما يدل على ان الغاية من الطلاق استبدال شريك بشريك آخر غالباً ، وما يستوقف الانظار ويتطلب عناية الشرق كثيراً ان المقاضاة للحصول على الطلاق متى كانت تنقّتها باهظة فلت من عزيمة طلابه وقالت من وقوعه . وهذا لعمر الحق يستحق انتباه المسؤولين في العالم العربي لانه اذا زيدت نفقات الطلاق في محاكمنا زيادة معقولة بحيث لا يجعل الطلاق ميزة يتمتع بها الاغنياء فقط فالروابط الزوجية تكون امّتين واسس البيت تكون اقوى على مقاومة الزعازع العائلية والعواصف الشقية

﴿البغاء﴾ : هو الخطر الآخر على الزواج والاسرة وان كان بعض اهل البحث قد ذهبوا الى ان البغاء الرسمي هو حصن لاهل العفاف او « صمام الامن » يفرج به الضغط الناشئ عن القوى البشرية الاندفاعية . وفي الاحصاءات التي اجريت في الولايات المتحدة في اوائل القرن العشرين ان عدد المومسات في تلك البلاد يناهز ثلاثمائة الف فيكون عدد الرجال الذين يحموهن^(١) لا يقل عن ثلاثة ملايين ومما لا شك فيه ابدأ ان الاحوال بعد الحرب ساءت في هذا الموضوع اضعافاً مضاعفة وان هذا العدد العديد من النساء البغايا هو ضئيل جداً بالنسبة الى الوقت الحاضر وقد سمعت خطيباً مشهوراً في نيويورك في سنة ١٩٢٤ ينحو باللائمة على الحرب ويقول ان زيادة الفحش اتت الاميركيين من زول جيوشهم في فرنسا وتعودهم عادات اهلها . ولم يحجم الاشتراكيون عن اتهام الرأسمالية بأنها علة العلل في هذا المرض الاجتماعي الخبيث . ففي كتاب « الاصول الاشتراكية »^(٢) انه لا مفر لنا من الاعتراف بأن الفقر هو من اهم البواعث على بيع الاعراض ، وان نسبة النساء من اهل الاجور الزهيدة اللاء يصرن فواحش هي نسبة عظيمة جداً ، وكلما اصبحت الاسواق التجارية بالغرار بعد الدرة أو بالكساد بعد الرواج ازداد عدد البغايا ، والمحنة قوية جداً كما قال (برناردشو) على البنت الجميلة التي ترى انها اذا باعت قواها العقلية للخدمة في المكتب أو المصنع لا تربح عشر ما تربحها اذا هي باعت جمالها في تلك الحالة لا تحصل على غير الكفاف من العيش غالباً واما في هذه الحالة فقد تكون القصور والسيارات والبواخر والمصارف طوع بناتها

اضف الى ذلك ما تسببه الفاقة واكتظاظ السكان في الامكنة القذرة واختلاط البنات والصبيان في المعامل مع الاحداث والبالغين من الاسترخاء في الاخلاق والانحطاط في البنية

﴿ حملة الاشتراكية المتطرفة على الاسرة ﴾ : يقول الاشتراكيون ان حملتهم الشعواء ليست موجهة الى الزواج والاسرة بل الى سوء الاستعمال فيهما في عصر الرأسمالية فكل زواج لا يقوم على الحب بل يعقد لاجل المال او المكاونة والجاه هو في نظرهم سفاح مستور مشروع يجب ابطاله مع سائر انواع الفحش . وفي البيان الشيوعي الذي اصدره (ماركس) و(انجلس) ان البغاء بانواعه ، البغاء الخاص والبغاء العام ، البغاء المشروع وبيوت الخنا كل ذلك يتلاشى في عصر الاشتراكية وزوال سلطة الرأسمالية ، حينئذ ينشأ في العالم جيل جديد بالغ راشد مؤلف كما يقول (انجلس)^(٢) من رجال لم تسنح لهم فرصة في العمر يشترن فيها بالمال او بغيره من الوسائل الاقتصادية استسلام المرأة لشهواتهم وجيل من النساء لم تسنح لهن فرصة في العمر

(١) Elements of Socialism, p. 246.

(٢) The Family Private Property & the State, Chap. III.

يستسلم فيها لاي رجل لسبب من الاسباب غير الحب او يرفض هذا الاستسلام لمن يحبهم خوفاً من العواقب الاقتصادية وقصارى القول ان الاشتراكيين الاقبح يصرون على القول انهم ليسوا اعداء الزواج ولا خصوم الاسرة بل هم اضداد ما تولده الرأسمالية فيهما من سوء الاستعمال

لكن الخطة التي سارت عليها حكومة السوفيت الروسية لا تدع مجالاً للشك في مذهب الشيوعية في القضية الشقية . ففي بلاد روسيا اليوم لا يوجد — امام القانون — زواج او اسرة بالمعنى المفهوم ، وان وجدا فبقوة العادة والاستمرار ، لان المرأة التي تسجل اسمها في الحكومة انها زوجة زيد من الناس اليوم يحق لها بعد مدة معينة اذا شاءت ان تذهب الى دائرة الحكومة فتسجل اسمها انها زوجة بكر او خالد وما ينطبق على المرأة ينطبق على الرجل طبعاً ، والوجه الجديد في هذه الطريقة — وهو ما يختلف عن الطريقة القديمة المألوفة — هي المساواة التامة في الحرية والاختيار بين الرجل والمرأة

وعلاوة على ذلك فحكومة السوفيت قد فتحت مستويات عمومية في الحواضر الكبرى يؤمها الحوامل للاجهاض ، واعتبرت الاطفال بعد بلوغهم السنة الثانية من العمر ملكاً للدولة وما هو حري بالتدوين ان هذا الانقلاب المتطرف في الافكار لم يخل من تأثير في القضاء ولو كان في بلاد محافظة كالبلاد الانكليزية . فنذا اشهر قرأنا في البرقيات العمومية حديث الاجهاض وتجاوز القاضي عن الجھض وجاء في قضية الجندي (جون بلاس) وزوجته (جنديلين رسل) وحبیبها الدكتور (شارل فردريك سيرل) وهي قضية طلاق بسبب هذا الحب ظهرت في المحاكم الانكليزية في شهر مارس الماضي ان قال الماضي المستر (ماكاردى) في الرد على المحامي عن الزوج ان السيدة (بلاس) حرة ببيع القانون الانكليزي لها الخروج من المنزل متى شاءت وان المرأة المتزوجة لها اليوم مطلق الحرية في ترك زوجها متى شاءت . فلما اعترض المحامي بقوله ان القانون الانكليزي يسمح للرجل المتزوج ان يقول لزوجته « عليك ان تمكثي معي » اجابه القاضي مستنكراً « وهل تقصد ان تقول ان للزوج في الوقت الحاضر ان يغلق على زوجته باب غرفتها ويقول لها انه سيبقيها فيها ؟ انك تسعى لتعزيز الرأي القائل اذا خرجت الزوجة لمأدبة عشاء او سافرت لتمضية نهاية الاسبوع مع صديقة لها رغم ارادة زوجها فان الضرر — بالمعنى القانوني — يقع لانها لم تحصل على موافقته ورضاه ، ولكن هذا يجعل المرأة المتزوجة اسيرة واذا كان هذا رأيك فاني لا ارى ما هي الحقوق التي تتمتع بها المرأة المتزوجة اليوم واذا كان البيت ملكاً للزوجة كما هو الحال في قضية السيدة

(بلاس) فلها ان تخرج منه لا الغرباء فقط بل زوجها ايضاً

استقلال المرأة عند الاشتراكيين: يراد باستقلال المرأة ان تحصل على رزقها بعرق جبينها خارج حلقة الاسرة الا في وقت حملها ووضعها وهو سنة كاملة يسلم الطفل في نهايتها الى روضة الاطفال ، حيث يهيأ الطعام في مطبخ عام ويتم التنظيف على ايدي اخصائيين وتعتني الممرضات والمعلمات بالاطفال منذ الشهر السادس من اعمارهم الى ان يذهبوا اما الى المدارس الكلية او الى دور العمل والصناعة ، والمطلوب ان يكون اليوم المدرسي مطابقاً لليوم العملي فيخرج الآباء والابناء من بيوتهم ويرجعون اليها في وقت واحد . والمطلوب بحسب هذا المنهج تحرير المرأة من اتعاب الاسرة وتحقيق استقلالها عن الزوج باشتغالها للحصول على الكسب وهذا كله يؤدي في آخر الامر الى الحيلولة دون اجتماع افراد الاسرة الاجتماع الكافي الذي يقوي اواصر المحبة والعطف بينهم ثم الى ابطال البيوت الخاصة والمعيشة الاجتماعية العائلية

ويحتج انصار هذا المذهب لمذهبهم ببرهانين اثنين الواحد اقتصادي والاخر بيولوجي حيوي . اما الاقتصادي فما يزعمونه من التوفير الذي يتم بالمطابخ العمومية والخدمات المشتركة واما البيولوجي فما يظنونه من ان تعليق المرأة على الرجل في حياتها وشؤون معيشتها اكسبها هذا الضعف وجعلها شبيهة بالطفيليات مما لا نجد له شبيهاً في عالم الحيوان حيث الانثى مثل الذكر تحصل على رزقها بكدها وتقوم بأود اولادها بسعيها

بيد ان الخطأ في البرهان الاقتصادي هو ان التوفير الذي طنطن به الاشتراكيون امر مشكوك فيه كثيراً واما البرهان البيولوجي فخواه ان المرأة لا تشبه الاناث في الحيوانات فهي لا تلد الاولاد وتتركهم وشأنهم بل تستمر في تربيتهم الى ان يعتمدوا على النفس وهذا ما يحتم عليها الالتجاء الى الرجل وطلب معونته

واذا كانت ثمة امرأة لم تخلق للزوجية والامومة فليس من الضروري كما قال الاستاذ (بايندر) ان تنزل الى ميدان الصراع العملي بل هنالك بعض صفات في مثل هذه المرأة يعزها المجتمع ويحتاج اليها وهي صفات لا تشمن بالمال . واذا ارادت سيدة من اهل المواهب ان تجرب مواهبها فلا بأس ان تطرق انواع الابواب التي فتحت امامها في العصر الحاضر ، فالآنسة (هرشل) والسيدة (سمرفيل) و (كونستانس) و (نادن) و (صوفيا كوالفسكي) هن في الرياضيات مثل (مدام كوري) في الطبيعيات وغيرها وغيرها في التاريخ والادب والفن والتعليم آيات محكمات

على ان مسألة النساء اللاء خلقن للزوجة والامومة وهن الاكثرية العظمى يجب ان تسوى^(١)
 (اولاً) بتقدير الامومة قدرها وطبع كلام الاستاذ (بايندر) في الازدهان وهو اذا كان
 المطلوب حفظ القوم وان يتمتعوا باسباب التقدم ، واذا كانت تنمية الشخصية هي الغاية
 الكبرى في الحياة ، واذا كانت هذه الغاية لا تتحقق الا في الاسرة فالام هي الفرد الازم
 في المجتمع وذلك لانها تحلى العالم بمنحة نادرة وعطية سنية مؤلفة من العناصر العامة على هيئة
 خاصة من الجمال النادر . (ثانياً) باهمال ذاك البحث السخيف عن أيهما اعظم شأناً المرأة ام
 الرجل وما يجر هذا البحث المبني على النظريات البالية من استياء فضليات النساء ، فالمرأة
 والرجل عنصران يتمم الواحد منهما الآخر في تكوين المجتمع كما يتم الهيدروجين والاكسجين
 في تأليف الماء ولا يوجد كياوي مهما كان سخيفاً يصرف قواه العقلية في المفاضلة بين هذين
 العنصرين . واذا كان الرجل رأس البيت فالمرأة قلبه ومن المحال ان يعيش مخلوق
 من غير هذين العنصرين الجوهريين (ثالثاً) بتنظيم الموارد المالية تنظيماً يسمح للزوجة ان
 تنال قسطاً من ارباح زوجها كافياً . وغير نكير انها في بعض الاحيان تستولى على جميع موارده
 او انها لا تنال شيئاً الا اذا هو تفضل عليها وتكرم بما يعده منحة ، وهاتان طريقتان فاسدتان
 لان الرجل الذي يعيش (بخرجية) من زوجته لا يكتسب احترامها كثيراً والمرأة التي تعيش بالمنحة
 من زوجها ولا تستأمن على شيء هي كالطفل في نظره (رابعاً) بزويد المرأة بالتربية العلمية
 التي تؤهلها للاستقلال الاقتصادي قبل زواجها حتى لا تكون عبئاً على اهلها ولا تتوقع
 بسبب الحاجة على كل خطيب صادفته ، وللامومة بعد الزواج حتى تؤدي الامانة التي خلقت
 لها في الدرجة الاولى

ويسرني ان انهي هذا المقال عن قضية المرأة والرجل بما ذهبت اليه السيدة (النكي)
 وهي من اشهر من كتب في هذا الموضوع ، فقد ذهبت الى وجوب حصر الاعمال النسوية
 في منطقة معينة تنطبق كثيراً على روح كلامنا فهي تريد المرأة ان تنصرف بكليتها الى خدمة
 الحياة العائلية ولا تكتفي فقط بالرضى بقلة الخدم والحشم بل ان تطردهم من عندها لتوقف
 نفسها على خدمة ابنائها واقرب الناس اليها وان تكون الامومة قطب الدائرة في حياتها وان
 ينحصر عملها فيما ينمي ابناءها ويكسبهم قابلية وهكذا تصبح شخصية سامية ذات قوة ونفوذ
 باحترافها اتم حرفة اجتماعية تمارسها بالفهم والنباهة ، وتكون قد زودت العالم باهم ما يحتاج
 اليه — زودته بالرجال والنساء الاصحاء النافذين الذين لا يعتمدون على شيء سوى انفسهم

العوامل الوراثية والغدد الصماء

للمركز نور شريف عسيران

— ٢ —

﴿ الغدة الصعترية ﴾ — مركزها في الصدر وراء عظم الفص وتمتد الى الرقبة طولها مقدار خمس سنتيمترات وعرضها مقدار ٣،٧٥ سنتيمتر وهي لا تبقى بعد السنة الثانية من العمر ثم تضمر وتضمحل ووظيفتها الحقيقية غير معلومة وقد نسبوا اليها تأثيراً في نمو الجسم بوجه خاص في نمو العظام ولكن ذلك لم يتحقق بعد

﴿ الغدتان اللتان فوق الكليتين ﴾ — مركزها امام القسم الاعلى من الكلية لونهما اصفر وطول الواحدة منهما مقدار ٤ — ٥ سنتيمترات ووزنها مقدار ست غرامات وهما مؤلفتان من طبقتين الطبقة النخاعية والطبقة القشرية ولكل طبقة افراز خاص ووظيفة خاصة ولهما تأثير عظيم في حياة الشخص واستئصالهما يؤدي الى الموت. فالطبقة النخاعية تفرز مادة تسمى الادرنالين او ايبينفرين ذات خواص مهمة في تنظيم حركة الجسم فالادرنالين يقوي ضربات القلب ويقلص الاوعية الدموية ولهذا يستعملونه كثيراً في نزف الدم وحين هبوط القلب اثر البنج او خلافه وقد عوزوا اليه تأثيراً فعلاً في عواطفنا فحينما يغضب المرء او يخاف يكثر افرازه فتشتد ضربات القلب ويزداد ارسال الدم الذي هو القوة المسعفة فيستعد المرء ان يحارب او ينهزم ويستمد قوة من زيادة الدم والادرنالين يدفع الكبد في حالات كهذه الى امداد الجسم بالكليكوجين المخزون فيه ليجز القوة اللازمة وحينما يتعب الانسان يزداد افراز الادرنالين وازدياده يحمل الكبد على زيادة تجهيز الكليكوجين الذي هو مصدر القوة. ولم تتحقق العلاقة بين افرازه والعواطف كالغضب والخوف والحرارة والبرودة فان الانسان حين ينجل يحمى وجهه بسبب ازدياد الدم وقد نسبوا هذا التأثير الى الادرنالين والادرنالين يستعمل كثيراً في الطب لنزف الدم ومع البنج الموضعي وفي احوال كثيرة لا مجال لذكرها

وقد نسبوا الى الافراز القشري تأثيراً كبيراً في صفات الجنس الثانوية كنمو الشعر ونوع الصوت ويزعم بعض العلماء ان خلل هذا الافراز يؤدي الى تغيير الجنس فيقلب الذكر انثى والانثى ذكراً وينسبون نمو الشعر والشوارب واللحية في بعض النساء الى نقص هذا الافراز ويقولون ان خلله يؤدي ايضاً الى سرعة نضوج اعضاء التناسل فيجعل اعضاء تناسل الاولاد

الذين هم بين سن ٤-٦ من العمر يكتمل نموها. واغرب من ذكر من هذا القبيل توماس هول Thomas Hall الذي ولد بولنهام قرب كمبردج بانكلترا سنة ١٧٤١ ومات وعليه امارات الشيخوخة سنة ١٧٤٧ مع انه لم يكد يبلغ السادسة من عمره اصلع الرأس مجعد الوجه وقد كتب على قبره الكتابة الآتية « قف ايها السائح وتعجب واعلم ان هنا مدفون رفات توماس ابن توماس ومرغريت هول الذي بلغ الرجولة قبل السنة الاولى من العمر وكان طوله اربع اقدام قبل ان يصير عمره ثلاث سنوات وقد خص بقوة خارقة وتناسب باعضائه وصوت رنان ومات بسن السادسة كانه شيخ هرم » ويعزون هذا النضوج قبل الاوان الى الغدة الصنوبرية ايضاً

﴿ الغدة النخمية ﴾ — مركزها في قاعدة الدماغ وطولها بضعة ملاترات ووزنها مقدار سنتين سنتغراماً وهي مؤلفة من فصين الفص الامامي والفص الخلفي ورغماً عن صغر حجمها ووزنها فان لها سيطرة عظيمة على الجسم ولكل من فصيها تأثير خاص فافراز الفص الخلفي يدعى البتوترين Pituitrin ولهذا الافراز خواص مهمة منها رفع الضغط الدموي وزيادة قوة عضلات الجسم خاصة اعضاء الهضم والتناسل وهو يستعمل بسبب هذه الخواص لتوقيف نزف الدم من الرحم ولاسراع الولادة لانه محرك لعضلات الرحم فيزيد تقلصها وقوتها ويستعمل ايضاً حين شلل الامعاء. والخواص التي ذكرناها تجعله مدرراً للحليب والبول وهو يستعمل كثيراً في الطب حقناً تحت الجلد أو بشكل حب. اما افراز الفص الامامي فلم يستحضر بعد ولكن تأثيره في الجسم عظيم وقد وجدوا ان هناك علاقة بين انواع الغدد الصماء خاصة الغدة الدرقية والتي فوق الكلية وغدد التناسل ولم يتوصلوا بعد الى معرفة كنه تلك العلاقة فكما ان الغدة الدرقية والغدتان اللتان فوق الكلية تؤثران في نمو الجسم هكذا يفعل افراز الفص الامامي من هذه الغدة. فهذا الافراز يؤثر تأثيراً بيناً في نمو الجسم والتحولات الغذائية فاذا كان ناقصاً فان الجسم لا ينمو خاصة اعضاء التناسل وينشأ ما يسمونه الطفالة Infantilism اي بقاء الجسم في حالة الطفولة الى ما بعد البلوغ ويتأخر نمو الفرد جسداً وعقلاً ويرافق هذا النقص تراكم المواد الدهنية الذي يؤول الى السمن وكثيراً ما نرى اناساً قصار القامة ضعيفي النمو متضخمين سمناً وسبب هذه العلة نقص في خلاصة هذه الغدة. وقد جاء في عدد نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٢ من مجلة العلم العام اهمهم اجروا تجارب على الصلع في كلية الطب بجامعة لينوي باميركا فوجدوا ان كثيراً من حوادث الصلع ناشئة عن نقص هذه الغدة وقد حققوا رجلاً مصاباً بهذه العلة من سنة ١٩١٤ فلما شعره في اربعة اسابيع وقد ذكرت عدة حوادث لهذا الداء شفيت باستعمال حقن خلاصة هذه الغدة يومياً لعدة ايام وقد ذكر كاتب المقال المذكور شفاء عدة اشخاص مصابين بداء الصلع شفيوا باستعمال خلاصة افراز الغدة النخمية وزيادة افراز الفص الامامي من هذه الغدة يؤول الى المرض المعروف بالضخامة فاذا

حدث الافراط بالافراز قبل تعظم العظام اي في سن الحداثة يدعى Gigantism وحصوله بعد ذلك يدعى Acromegaly فتتضخم العظام خاصة عظام الاطراف تضخماً هائلاً وتطول القامة طولاً كثيراً واشهر ابطال هذا النوع من التضخم الناشئ عن هذه العلة تشارلس بيرن Charles Byrne الارلندي فان هيكله العظمي معروض في معرض كلية الجراحين الملكية بلندن وقد ذكر السر ارثريت العالم الانكليزي المشهور ان طوله ٧ اقدام و ٤ ، ٨ البوصة وكان طوله في حياته ثمانى اقدام وبوصتين . وقد حققوا الجرذان بخلاصة هذه الغدة فنمت ضعف حجمها الاعتيادي

﴿ الغدة الصنوبرية ﴾ — ومركزها في قاعدة الدماغ ووظيفتها غير معلومة ويقولون انها كانت فيما مضى عيناً ثالثة في الحيوانات البرمائية (الامفيلية) ويوجد في زيلاندا الجديدة حردون لا يزال حياً وله عين ثالثة في أعلى رأسه وقد نسبوا اليها تأثيراً في السيطرة على نمو اعضاء التناسل ففقدانها يجعل اعضاء التناسل تنمو بسرعة هائلة فتبلغ في الطفل الصغير حجم البالغ او ما يزيد عن ذلك ولم تحقق الاختبارات هذه النظرية

﴿ الغدة المشتركة ﴾ — الغدة المشتركة هي التي تفرز نوعين من الافراز خارجياً وداخلياً فالخصيتان والمبيضان يفرزان الحيوانات المنوية والبويضات وقد بحثنا عنها مفصلاً ويفرزان علاوة عن ذلك افرازاً داخلياً يذهب الى الدم رأساً ويؤثر تأثيراً محسوساً في نشوء صفات الجنس الثانوية وقدمر ذكرها. فلو نزعنا من ذكر صغير اعضاءه التناسلية لم تظهر فيه صفات الذكورة الثانوية وكذلك اذا استئصلنا اعضاء الانثى التناسلية لم تظهر صفات الانوثة الثانوية وقد وجدوا في الحيوانات امراً غريباً وهو اننا اذا استأصلنا من انثى صغيرة جداً اعضاءها التناسلية لم تظهر فيها صفات الانوثة الثانوية بل تظهر فيما بعد صفات الذكورة والعكس بالعكس. وقد استنتجوا من ذلك انه لا يوجد حد فاصل بين الذكورة والانوثة كما يوجد فاصل بين الابيض والاسود وسنة ١٩٧٤ احاطوا ديكاً في بلدة بال بسويسرا لانه باض بيضة فنسبوا اليه السحر وحرقوه في الساحة العامة وقد تمكن الدكتور Dr. Michael F. Guyee استاذ علم الحيوان بجامعة وسكنسن من ان يجعل الديك يبيض بيضة باستعمال طرق اصطناعية وكذلك جعل اسكار ردل من معهد كارنيجي ذكر حمام يبيض بيضة . وقد استندا في عملهما الى الحقيقة الآتية ان جانباً صغيراً من الغدة التناسلية في ذكر العصفائر انثى اي فيه خاصية من خواص الانثى ويكون عادة موجوداً بصورة غير فعالة فاذا استئصلنا معظم غدة الذكر التناسلية تلاشت صفات الذكورة ثم ينمو هذا الجزء اليسير من الانوثة ويجعل الذكر انثى والعكس بالعكس وبهذه الطريقة تمكن العلماء ان يجعلوا الديك يبيض بيضة وقد يحصل هذا المظهر بصورة طبيعية اي يضمّر معظم غدة الذكر او الانثى التناسلية وينمو الجزء اليسير

المعاكس لتلك الصفة فينقلب الذكر انثى والانثى ذكراً ويسمى ذلك الانقلاب الجنسي الكامل ويقولون ان صفات الانوثة والذكورة درجات مختلفة تتراوح بين الزيادة والنقصان فتكون في بعض الافراد اكثر من مائة في المائة وفي آخرين اقل ولهذا نرى بعض الاشخاص متناهين في الانوثة او الذكورة ونشاهد عكس ذلك في غيرهم فكم من اناث يشبهن الرجال بصوتهن ونحو شعرهن الى غير ذلك وكم ذكور يشبهون الاناث ويعزى ذلك الى زيادة او نقص صفات الانوثة او الذكورة في اشخاص كهؤلاء

ان افرازات اعضاء التناسل الداخلية تؤثر في نمو الجسم والعقل فاستئصالها في الصغر يؤول الى تأخرها وقد عزوا اليها قوة الانسان ونشاطه وبلوغه الشيخوخة وعلى هذا المبدأ جروا في تجديد الشباب فادعوا ان تلقيح الشيخ بغدة شاب يعيد اليه شبابه وقواه العقلية ويطيل حياته واستعملوا لذلك غدد الشمبازي وهناك طريقتان الاولى عملية شتيناخ النمساوي وهي ان يربط القناة المنوية فينقطع الافراز الخارجي ويتقوى الافراز الداخلي فيعيد الى المرء قواه ونشاطه . والدكتور فرونوف الروسي يلحق القرد بغدة حيوان آخر بعد ان يستأصل الغدة الهرمة واكثر غدد الحيوانات استعمالاً غدد الشمبازي. فعمليات كهذه تعيد الى المرء بعض قواه الحيوية وتجدد نشاطه بعض التجديد ولقد بالغوا في تأثيرها مبالغه جعلتنا نحلم بالشباب الدائم بواسطة هذه العمليات ونعتقد اننا صرنا بمأمن من غائلة الشيخوخة ومما لا شك فيه ان لهذه الغدد تأثيراً كبيراً في شخصية الفرد وقد اثبتنا ما هو محقق علمياً ولم نتمسح مجالاً للمبالغات المبنية على الدعاية والغايات التجارية ولا تزال الاسرار تحيط بهذه الغدد ولا بد ان يكشفها العلم غداً او بعد غد وعلينا ان لا نعول الا على الحقائق العملية المدعومة بالتجارب وقد نسبوا اختلاف اصناف البشر الى اختلاف افرازات هذه الغدد كما نسبوا اليها الشيء الكثير مما لا حاجة الى ذكره

بقي علينا غدة واحدة لم نذكرها وهي ان البنكرياس ومركزها خلف المعدة وهي التي تفرز العصارات الهضمية الى الامعاء الدقيقة وتفرز افرازاً داخلياً اسمه الانسولين اكتشفه الكنديان بانتنغ ومكليود سنة ١٩٢٧ ويعالجون به البول السكري وهو لا يشفيه الشفاء التام بل يكون المريض في مأمن منه طالما هو يستعمل الانسولين

ان العوامل الوراثية هي الاصل في منشأ هذه الغدد فاختلف باختلاف العوامل ولكن العوامل تؤثر تأثيرها بواسطة افرازات هذه الغدد والفرق بين العوامل والافرازات الداخلية ان الاولى تحدث تأثيرها في ادوار الحياة الاولى والثانية في ادوار الحياة المتأخرة وهي الوسيط بين العوامل الوراثية وكثير من الصفات الناشئة عنها

الكوميديا الالهية

نشأتها وتطورها — الموازنة بين رؤيا يوحنا — ورحلة رع

الكوميديا الالهية علمٌ على القصة الشعرية الخالدة التي نظمها دانتي عن رحلة تخيل انه رحلها في العالم الثاني وقد اخترت هذا الاسم عنواناً لهذا المقال لطرافته ومطابقته لموضوعه لست أريد البحث في القصص التي تناول فيها كتابها وصف العالم الثاني من حيث ما فيها من ابداع في الوصف وقوة في التخيل ومتانة في الاسلوب وانما لي وجهة أخرى هي التحري عن أصل فكرة العروج الى العالم الثاني ووصفه والبحث عن منشأ هذا الخيال

سبق دانتي كثيرون من مواطنيه الى الموضوع ويظن انه أخذ عنهم الفكرة لكن يزعم بعض كتاب العرب ويشايهم على ذلك فئة من المستشرقين ان مبدع هذا الخيال هو ابو العلاء بما جاء في رسالته الغفران من ذكر احوال العالم الثاني ووصف الجنة والنار ثم انتقلت الفكرة الى اوربا بعدما احتك الافرنج بالمسلمين في الحروب الصليبية وترجوا علومهم وفلسفتهم الى لغاتهم حيث تأثر بها دانتي وغيره من كتاب الافرنج . لكن هذا الرأي ضعيف فانك لا تجد بين رؤيا دانتي ورسالة الغفران وجهاً للشبه الا في الموضوع اما في السياق فهما جد مختلفين فأبو العلاء يصف العالم الثاني على لسان صاحب له ويذكر مباحثته لأهل هذا العالم من الكتاب والشعراء المتقدمين في الأدب ونحوه وجل قصده من ذلك السخرية بهم ولم يعرض لأحوالهم من حيث ما هم فيه من شقاء او نعيم الا بالقدر الذي ينسجم مع هذا القصد . انظر حديثه مع الخنساء كيف يقول أنها أحببت ان تنظر الى أخيها صخر فاذا هو في الجحيم كالجليل الشامخ والنار تضطرم في رأسه فيقول لها اخوها اذ يراها لقد صح مزعمك في مشيراً الى قولها من قصيدة في رثائه :

وان صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وغاية ابو العلاء ان يوكس من شاعرية الخنساء بهذا البيت فصور لها أخاها بالهيئة التي تصفها كيف يكون اما دانتي فيصف في سياق رؤيا تخيل انه رآها رحلة له في العالم الثاني واسهب في ذكر احوال اهله وما هم فيه من عذاب او نعيم وتناول في احاديثه معهم شتى المسائل من دينية وفلسفية واجتماعية التي كانت تشغل اهل زمانه وكشف في كل مسألة عن رأيه وكان هو من دعاة الاصلاح يدين بآراء حرة نفي بسببها من وطنه فلورنسا

وتم خلاف آخر بين رسالة الغفران ورؤيا دانتي ذلك ان رسالة الغفران تتناول الماضي اما رؤيا دانتي فهي تستغرق من الزمن أسبوعاً ابتداءه اليوم الثامن من ابريل سنة ١٣٠٠ فما

وقع قبل هذا التاريخ فهو من الماضي وما وقع بعده فهو من الغيب وهو يرويه كنبوءة عن المستقبل وعلى هذا يكون القول بان دانتي أخذ فكرة الكوميديا الالهية عن ابي العلاء غير قائم على سند قوي. وفي ظني ان دانتي انما اخذ الفكرة لرؤياه عن سفر الرؤيا وهو الكتاب المنسوب الى الرسول يوحنا صاحب الانجيل المسمى باسمه . ووجوه الشبه بينهما التي تؤيد ذلك كثيرة فالولا ان كليهما رؤيا وثانياً ان لكل من الكاتبين دليلين في رحلته يقودانه ويفسران له ما يراه واحد للعالم السفلي والاخر للعالم العلوي فليوحنا قبل عروجه الى السماء دليل يصفه بأنه شبه ابن انسان ولدانتي فرجيل وليوحنا دليل في السماء من الملائكة ولدانتي بياتريس وهي فتاة كان الشاعر يحبها ثم ماتت قبل ان يتزوجها فحزن عليها وخلدها في قصائده وجعل مقرها السماء . وثالثاً ان رؤيا يوحنا تتناول زمنين الماضي والمستقبل فاقاله شبه ابن الانسان يتعلق بالماضي وما سمعه من الملك في السماء يتناول المستقبل وقد تقدم ان رؤيا دانتي هي كذلك تتناول زمنين هذه هي الالوجه التي تجعلني اظن ان دانتي قد نسج رؤياه على منوال رؤيا يوحنا ثم اني أحسب ايضاً ان غير دانتي من كتاب الافرنج الذين نحوا هذا النحو واما العلاء وسواه من كتّاب العرب الذين عرضوا لوصف الجنة والنار فيما حاكوا من قصص حول حديث المعراج قد تأثروا بهذا السفر كذلك على ان المجال لا يتسع الآن لعمل موازنة تثبت ذلك

لكن سفر الرؤيا ليس اقدم كتاب في موضوعه ولا ما يتضمنه من خيال اول خيال من نوعه فقد كان عند اسلافنا الاقدمين قبل يوحنا بألاف السنين رحلة لرع اله الشمس كانوا يعرفونها باسم (أم دوات) اي ما يرى في العالم الثاني اذ كانت عقيدتهم ان السماء متركزة على جبلين احدهما غربي اسمه مانو والاخر شرقي اسمه باخو وان بها نهراً يخترقها من المغرب الى المشرق خلق صنواً لنهر النيل يوم خلقت الدنيا أعد لتجري عليه سفينة رع اله الشمس في رحلتها اليومية في عالم الظلمات . وهذا العالم ينقسم الى اثني عشر منطقة بعدد ساعات الليل من وقت غروب الشمس الى شروقها . لكل منطقة باب عليه حارس لا يأذن لاحد باجتيازه الا لمن يعرف اسمه . واخبار هذه الرحلة وما يتعلق بها من مناظر وأسماء سدنة الابواب منقوشة على جدران مقبرة سيقي الاول مساعدة لميت على اجتياز هذه المفازة الوعرة وما هو جدير بالملاحظة وهو مثار للدهشة ان سفر الرؤيا يشتمل على كثير من مشاهد هذه الرحلة كما ستبين ذلك بعد من الموازنة بينهما

﴿ ﴾ رؤيا يوحنا ورحلة رع ﴿ ﴾

يقول صاحب الرؤيا في الاصحاح الرابع « ولوقت صرت في الروح واذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد » . والعرش بهذا الوصف كثير الشبه بسفينة رع فكلاهما عليه جالس وكلاهما له زينة

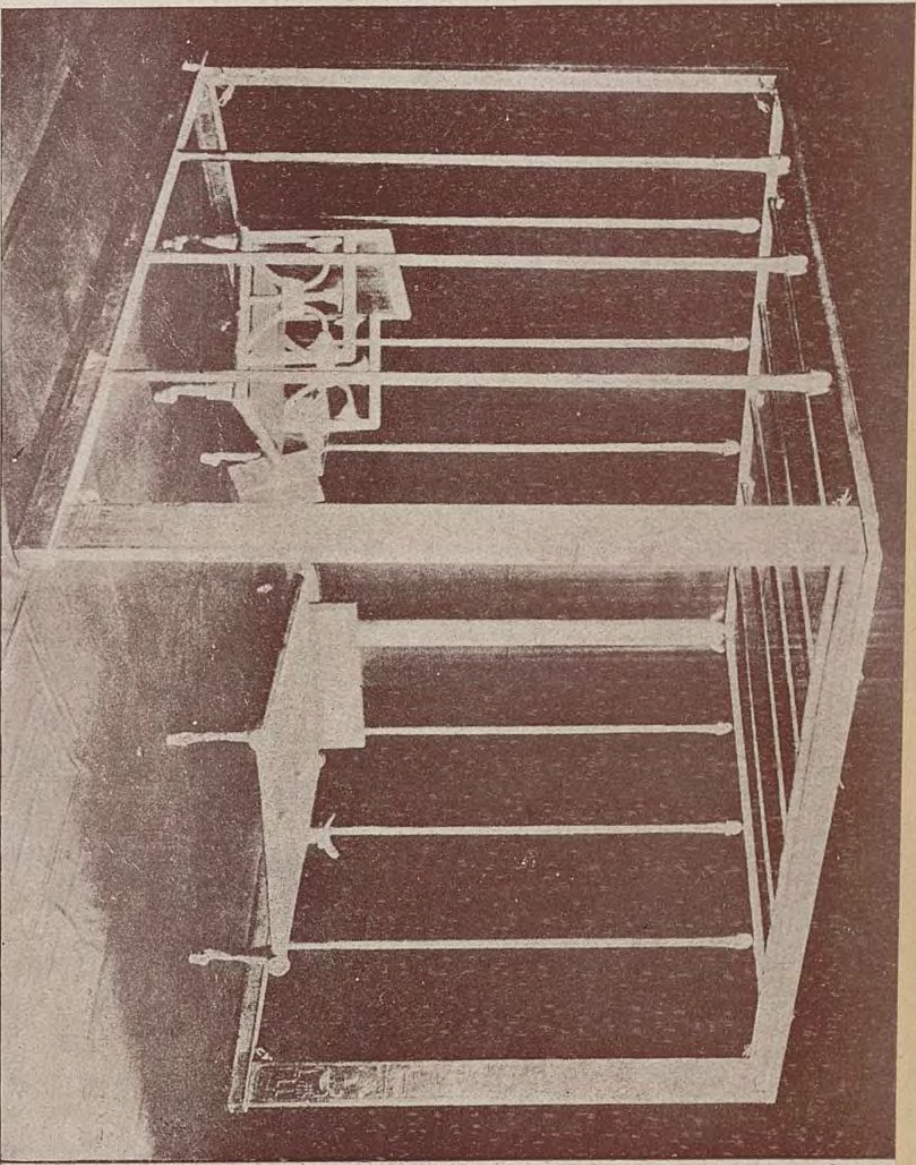
حواله من خطوط مختلفة ألوانها فقد جاء في وصف السفينة أنها مزينة من الخارج في خطوط افقية بألوان الجشت وهو حجر كريم لونه بنفسجي والزمرد لونه اخضر مائل الى الزرقة واليشب ولونه اخضر لامع واللازورد وهو ازرق والذهب وهو اصفر ويتألف من مجموع هذه الألوان ما يشبه قوس قزح . والسفينة رمز لقرص الشمس والألوان حولها تمثل الشفق وكان الاقدمون يضعونها في معابد آمون رع في قدس الاقداس ويتوجهون اليها بالعبادة . واغلب الظن ان عادة وضع الزوارق في المساجد واضرحة الاولياء هي بقية من عقائد الجدد لم يحجها كرسنين ولا تغير الدين لاسيما وان احدها وهو الموجود في مسجد ابني الحجاج الاقصري القائم على اطلال معبد آمون له سمة سفينة رع بما يغشاها من ألوان ويقول صاحب الرؤيا بعد ذلك في الاصحاح نفسه « وامام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هي سبعة ارواح الله وقدام العرش بحر زجاج شبه البلور وفي وسط العرش وحول العرش اربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدام ومن وراء والحيوان الاول شبه أسد والحيوان الثاني شبه عجل والحيوان الثالث له وجه مثل وجه انسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر وفي الاسطورة شيء يقرب من هذا كثيراً وذلك في سياق وصف المنطقة السادسة المسماة منطقة المياه التي لا قرار لها حيث جاء فيه « وهناك اي على شاطئ النهر ثلاثة عروش تحرسها ثلاث حيات يندلع من افواها لهيب نار وعلى العروش صور غريبة لن يصل الناس الى ادراك كلها : على احدها رأس انسان وعلى الثاني جناح طائر وعلى الثالث كفل سبع وفي الاصحاح الثالث عشر يقول صاحب الرؤيا « ثم وقفت على رمل البحر فرأيت وحشاً طالعا من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونيه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تجديف » وفي الفقرة العاشرة من هذا الاصحاح « واعطى اي الوحش ان يعطي روحاً لصورة الوحش » في المنطقة السادسة الآتية الذكر نظير لهذا الوحش واليك ما جاء في الاسطورة عنه : « هنا تعيش الحية العظيمة ذات الخمسة رؤوس وبين مطاويها يقف خابي رع اله البعث وعلى رأسه التاج وتحت قوائمه علامة الحياة التي تحول له ان يبعث الموتى وهو سوف يبعث رع ويرد اليه الحياة » لا خلاف بين الروايتين الا في الأسماء فإسميه يوحنا اسم تجديف وهذا اللفظ يكتني به عند المسيحيين عما يعبد من دون الله هو في الاسطورة خابي رع وما يسميه صورة الوحش هو رع ويقول صاحب الرؤيا في الاصحاح الحادي والعشرين « واما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبداء الاوثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت » . وفي المنطقة الخامسة من الدوات المسماة الخبيثة بحيرة كهذه ماؤها حميم دائمة الغليان أعدت لاعداء رع والخازن عليها صل مجنح له ثلاثة رؤوس وبين اجنحته يقف سقر Sokar وهو في هيئة رجل له رأس سقر وهو الذي يتولى تعذيب الخطاة . واني أرى بهذه المناسبة من مشابهة لفظة سقر العربية وهي علم على جهنم لاسم خازن النار في اعتقاد

الاقدمين على ما بينهما من علاقة معنوية ما يحدو الى الظن بان اصل اللفظ العربي هو ذلك الاسم المصري ويقول صاحب الرؤيا في الاصحاح العشرين « ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو ابليس . والشيطان وقيدهُ الف سنة وطرحه في الهاوية واغلق عليه وختم عليه لكي لا يضل الامم في ما بعد حتى تتم الالف السنة وبعد ذلك لا بد ان يحل زماناً يسيراً »

وفي الاسطورة حديث كهذا في سياق الكلام عن المنطقة السابعة المسماة الحفرة السرية حيث تقول : « يعيش في هذه المنطقة أيبب يلقي فيها الرعب ويملاها بالخوف . وهو تنين عظيم هائل فاغر فاه ليشرب ماء النهر حتى تتحطم السفينة ويهلك رع فتسود من ثم على الارض قوات الظلام ويتقاصر ظل الآلهة امام شوكة الخطية . على انه لا خوف على السفينة فان ايزيس الربة العظيمة محيية الموتى التي يدين لها الناس بالحب والعبادة واقفة في مقدمها باسطة ذراعها تتمم بكلمات القدرة يعيش أيبب على شاطئ رملي في وسط النهر يزجر فيرجح الدوات بصوته الا ان ايزيس التي لا يعرف الرعب الى قلبها سبيلاً تظل رابطة الجأش تعزم وتشير بيديها اشاراتها السحرية فيجمد التنين في مكانه ويعجز عن الحركة . عندئذ يهبط عليه من السفينة سلك وحرد سيف فيوثقه بالحبال ويشحنانه بالمدى وفي هذه الفترة بينما هو يتلو على الرمال في قيوده تتابع السفينة سيرها في أمان حتى اذا جاوزت السفينة هذه المنطقة عاد أيبب الى سابق شأنه ووقف لها بالمرصاد ليهاجمها كدأه فيفعل به سلك وحرد سيف ما فعلاه من قبل لان أيبب خالد لا يهلك بالمدى او يضار »

لاخلاف بين الروايتين الا ما يقتضيه اختلاف العقائد من اختلاف الاسماء والسياق اما الجوهر فواحد فكلاهما يحدث عن حية قديمة والمراد هنا بالقدم الخلود يخشى منها على العالم ان تضله فتعتقل فترة من الزمن ثم تحل بعد ذلك . وفي الاصحاح الثاني عشر يقول صاحب الرؤيا « وظهرت آية اخرى في السماء هو ذا تنين عظيم احمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى رؤوسه سبعة تيجان وذنبه يحرق ثلث نجوم السماء . لهذا التنين نظير في المنطقة الحادية عشر المسماة فوهة الكهف وتحدث الاسطورة عنه فتقول : « هناك على الجانب الاقصى من النهر النجوم و«شيدو» بينها وهو في هيئة افعى قرمزية ارجوانية يتألف بدنها من عشرة نجوم »

ويقول صاحب الرؤيا في الاصحاح الحادي والعشرين « وذهب بي — اي الملك — الى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة اورشليم المقدسة نازلة من عند الله ولمعانها شبه أكرم حجر كحجر يشب بللوري » ثم يزيدنا عنها بياناً بقوله « وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم الاساس الاول يشب الثاني ياقوت ازرق الثالث عقيق ابيض الرابع زمرد ذبابي الخامس جزع عقيقي السادس عقيق احمر السابع زبرجد الثامن زمرد سلقى التاسع ياقوت اصفر العاشر عقيق اخضر الحادي عشر اسمانجوني الثاني عشر جمشت »



اثاث غرفة نوم للمملكة هتوب هرس والدته خوفو باني الهرم الكبير اهداها اليها الملك سنفر و وذلك من
 يوليو ١٩٣٢ نحو خمسة آلاف سنة اكتشف هذه الآثار ورعها الاستاذ ريسن الاميركي
 صفحة ٢٠٥

تشبه هذه المدينة في زينتها وفي كونها تنزل من السماء عند جبل عال سفينة رع لدى مطلعها في الافق من المشرق عند جبل باخو وهي مزدانة بأبهى الالوان تتلألأ بالانوار ثم يقول الرسول بعد ذلك « والمدينة لا تحتاج الى الشمس ولا الى القمر ليضيئافها لان مجد الله قد انارها » ويقول ايضا « وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً « هوذا مسكن الله مع الناس وهو يسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الها لهم » هذا الوصف لا ينطبق على شيء انطبقه على سفينة رع فانها بحسب اعتقاد الاقدمين مسكن آله الشمس وهو الذي ينيرها ومتى تظهر في الافق يصبح الاله مع الناس فترفع من الارض الاصوات بتحيته وتلهج السن الخلق بتمجيده

يخلص لنا مما تقدم ان رحلة رع هي اقدم ما كتب في وصف العالم الثاني في سياق رحلة. وقد رأينا من وجوه الشبه بينها وبين رؤيا يوحنا ما يحمل على الظن بأن يوحنا كان يعرفها وتأثر بها. ولكي تم الفائدة سأجزيء من سيرة الرسول يوحنا بنبذة تبين كيف تهيا له ان يعرف اساطير الاولين يوحنا احد الحواريين اتخذ افسس مقراً له وهي بلدة آسيا الصغرى وانشأ يبشر بالدين الجديد في تلك البلاد وكانت تابعة لرومية فلما نما خبره الى الامبراطور وهو اذ ذاك دوميتيانوس وكان وثنيّاً ينطوي على اشد العداء للدين الجديد امر بنفيه في سنة ٩٥ للميلاد الى رومية ثم الى جزيرة بطمس حيث كتب الرؤيا. وقد قضى في النفي نحو سنتين لان دوميتيانوس قتل في سنة ٩٦ فعاد يوحنا في السنة التالية الى افسس حين كتب انجيله ورسائله. ومما هو جدير بالنظر انه في زمن هذا الامبراطور شيدت في العاصمة الرومانية المعابد لاوزيريس وكان يعرفه الرومان باسم سيرابيس والالهة ايزيس وهما من آلهة المصريين اذ يحدو ذلك الى الظن بأن الديانة المصرية كانت راسخة البنين في تلك البلاد ويكون من المحتمل اذن ان يوحنا وهو في منفاه في ديار الوثنية قد لم يطرّف من اساطير الاولين ووقف على آرائهم في العالم الثاني فكتب رؤياه وهو متأثر بخيالهم وافكارهم فخالطها شيء من ذلك كما رأينا ولما انتشرت المسيحية وبلغت الكنيسة الذروة من السلطان في القرون الوسطى تأثرت الفنون والآداب بالدين واصطبغت بصبغته اذ انشأ الكتاب ورجال الفن منقادين بعاطفتهم الدينية او مترلقين لرجال الدين يستوحون القصص الدينية ويلتمسون منها مادة لهم. ومن المواضيع التي استرعت انتباه الادباء وحفزت خيالهم وصف العالم الثاني الذي جاء به سفر الرؤيا فاخذوا يحاكونه وينسجون على منواله. ومن ثم أصبحت الكتابة في هذا الموضوع عملاً فنياً لا يمت الى الدين بسبب

وبعد فهل ينصف الادباء حين يعرضون لدائتي أو غيره من كتاب الكوميديا الالهية فيذكرون مصر وقد ثبت انها هي التي ابتدعت هذا الخيال ويعرفون لها فضل المتقدم؟ انا لارجو ذلك وما هو بعزير عليهم متى تجردوا من الغرض وكانوا كراماً

ناشد سيفين

مدينة الاحلام

للككتور ناجي

- ١ -

في صباح يوم من ايام الشتاء كانت حارة علام بقرب شارع محمد علي قدرة مترا كمة الاوحال وكان البقال عبد الدايم يفتح حانوته وبائعة اللبن تفرع باب المنزل المجاور . ومرت بضع عربات كارتو . واخذ صاحب القهوة البلدي المواجهة للمنزل يصف كراسيه وموائده ويسعل سعالاً جافاً . وتبادل البقال عبد الدايم والمعلم سلام صاحب القهوة التحيات المعتادة وظلت بائعة اللبن تفرع الباب على غير فائدة . فصاح بها البقال «الجماعة عزّلوا» فتحرّكت ورقة «للايجاره» المعلقة بالشرفة كأنما تثبت وجودها وتؤكد كلام عبد الدايم

ثم زادت الحركة بالحارة ونزل الصبية يجعلون من الوحل ميداناً ومن البرك ملاعب يسبحون فيها وجاء الباعة ينادون على بضاعتهم وجلس بعض النسوة على جانبي الطريق يبعن طعامهن القندر . ويجمعن الذباب وينشرن الاوبئة . واخيراً تمت صورة كاملة من صور تلك الحوارى البائسة المنسية وكانت الشمس لم تبدد تماماً الضباب الخيم على ذلك الحى فكان الجو صافياً من ناحية وغائماً من ناحية اخرى ومهدداً بمطر جديد تعلو به الاوحال وتوسع البرك وماذا يهم ذلك اوحال او برك وغيم او صفاء وضنك فخيم او عدل شامل اذا طلع الصباح فتح عبد الدائم حانوته والمعلم سلام قهوته وجلست ام آمنه بائعة البرتقال بمشنتها فاذا انصرم النهار ابوا جميعاً الى مساكنهم المريعة ليعودوا في اليوم التالي وتجري الحياة مجراها في الرزق الضيق والبلاء الواسع كان المعلم سلام يصيح بصبيه غاضباً ويلعن اليوم الذي جاء فيه الى القهوة ثم يتبع ذلك بسعاله الجاف والبقال عبد الدايم يزن رطلاً من الصابون ويحلف انه لا يوجد ادق من ميزانه ولا احسن من ذمته وكان الذباب يحتفل على مشنة ام آمنه فاذا دفعته قائلة «هش» جمع جموعه وعاد يغطي البرتقال الصغير الجاف المنقوط . كان يحدث هذا في حارة علام لما اقبلت عربة كارو تحمل امتعة ووقفت امام المنزل الخالي . فترك البقال الميزان وترك المعلم سلام صبيه وترك الذباب مشنة ام آمنه وانضم اليه بعض الصبية ومضوا في موكب ليروا من الساكن الجديد ولينظروا نظرة تقديرية الى الامتعة من صحاحير وحلل وكنبات وكراسي ودواليب

وفي الحق لم تكن تلك الامتعة دالة على الفاقة بل دالة بشكها وصيغتها الحائلة على عز قديم وفقر جديد وكان يرافق العربية شاب على دراجة وكنت ترى على بذلته وحذائه طابع الفقر ولكنك كنت تلمح في الياقة النظيفة والقميص الابيض وفي وضع الطربوش ورباط الرقبة رمز الاصل السليم وتؤمن بذلك وهو ينزل عن دراجته ويمضي الى الباب ليفتحه

لقد كان يمشي مشية الامير المخلوع وينظر الى الحي الفقير نظرة طويلة مستسامة صعد امين سليم سلم الدرج الخشبي في المنزل المكون من طابقين كلاهما خالي ولكنه اختار اعلاهما ونادى على الحوذي ان يحل الامتعة ويضعها في ردهة الطابق الارضي فاستعان الرجل بزميله واخذوا يراكمونها . فلما انتهوا من عملهم اخذ امين يبحث في جيوبه عن الاجر - والرجل ينظر اليه نظرة النسر يريد ان ينقض ويعد نفسه للعراك ويتحفظ له

لقد كان الرجل متفكراً على اجر معلوم . ومع ذلك فهو من تلك الفئة السافلة المجرمة التي تضطرها الفاقة ان لا تحافظ على قول ولا تبقي على ميثاق . ومع ذلك فهي فئة تأسرها الضحكة الطيبة والكلمة الرقيقة وفيها كثير من الخلال الكريمة والنخوة والارحية . وكان امين ذكياً يفهم ذلك اتم الفهم . فبسط اليه ضاحكاً ضحكته الوديعه ، كل « الفكّه » التي في جيبه قائلاً « اللي انت عاوزه خده » فنجل الرجل النسر وتدلّى منقاره في دلة وتوارت شراسته واكتفى بأجر يزيد زيادة معقولة واخذه وانصرف . وبعد قليل جاءت عربية تحمل سيداً وسيدة وخادماً . وكان السيد شيخاً قارب السبعين ، يحمل وقار محمد سالف فوق وقار السنين ، فوق وقار الصبر الذي ارتسم في تجاعيد وجهه ، وكانت السيدة اقل منه سنّاً ، لا تزال تحتفظ بالبرقع الابيض ، وبمسحة من جمال ذاهب وبقية من كبرياء اناخت عليها السنون

اسرع الخادم وقرع الباب لهم ووقف امين على عتبة مرحباً . وساعد الوالد والوالدة على النزول من العربية . فلما دخلوا المنزل ، وصعدوا الدرجة الخشبية اوشكت الشفاه ان تحتج ، ووقفت الدموع المكظومة على طرف المحاجر ذاهلة ، ثلاث غرف صغيرة واخرى في السطح ، ونوافذ بالية قديمة تطل على نوافذ مجاورة منغمسة في الظل والظلمة ، وتموج سطوحها بالنسوة هذه تنشر غسيلها ، وتلك تخاصم جارتها وتنشر لها ماضيها القذر

ولكن القلوب النبيلة ، شبيهة بأشعة الشمس فهي تنزل بالروضة الجميلة ، كما تحل بالارض الموحلة لا تتغير ولا تكون غير اشعة الشمس . ولكن الغمامة التي مرت على تلك القلوب الكريمة لم تلبث ان تبددت وعادت الاشعة الى الاشرار ، واخذ الجميع يتعاونون على تنظيف المنزل وترتيب الاثاث واختص امين نفسه بغرفة السطح فنقل اليها كتبه وسريه وادواته القليلة

بعد اسبوع جاء مستأجرون للطابق الارضي ، فوقفت عربية كارو تحمل امتعتهم ، وتلتها

عربة تحمل افراد العائلة ، وهم سيدة كهلة وفتاة رائعة الجمال وخادمة
كانت الساعة الخامسة مساء حين عاد امين متعباً يحمل كتبه ويحمل فوق منكبيه عبء
رجولة مبكرة ولم يكن قد علم بعد بالجيران الجدد فلم يكذب يصعد الدرج حتى خرجت الفتاة
لترى القادم فصاحا في وقت واحد
— سنه — امين

ولولا ان اطلت رؤوس والدين وهي تنظر بعيون مذهولة الى هذا التعارف الفجائي
لأينا عناق الشوق المكثوم واللهفة المستترة اعواماً لا تعد

— ٢ —

منذ عشرين سنة كانت شبرا الجميلة كالزمردة الصافية ، تزهر باليانع الاخضر ، والبساط
الرائع الذي هو سحر مصر ، وفتنتها العتيدة التي جرت اليها الغزاة والابطال متنوعين
اجناساً ونحلاً . نعم شبرا الجميلة ، التي اكتظت اليوم بالمساكن المتلاصقة وافسدتها
المدينة الجديدة ، ونزع اليها خلق كثيرون اشتروا تلك المروج البديعة وابتنوا بها مساكنهم
الصغيرة المتقاربة ، كانت بساطاً واحداً قامت في وسطه هنا وهناك منازل اهلينا ، كهات
بيضاء بسطت اجنحتها ، وهمت ان تطير الى ساقية او قناة او غدير ، وكنا نعود من مدارسنا
في غروب الشمس ، فنترك كراساتنا وكتبنا في بيوتنا ثم نسرع الى تلك المهاد حيث ربا صبا
ونما مع الغصون النامية ، وحيث تنسمننا الريح الرقيقة ، نجري الشعر في دمنا ، والحب في
ارواحنا ، والصفاء في طبائعنا ، ايام كنا نذب فراشات مع الفراشات الهاربة واشعة مع الاشعة
الغاربة ، وما زال كذلك حتى تخورقوانا فنرجع لنذاكر او ندعي اننا نذاكر ، فاذا كانت ليالي
القمر تسللنا خلفه لنرى القمر يطلع على الحقول الساكنة والسواقي الحاملة . فنجلس عند
الشجرة فاذا الشجرة تصغي والليل الجميل يرهف اذنه الى حديث اطفال يتبدد موجات في بحر
ذلك السحر الرهيب سحر القمر والطفولة والمروج

في ليلة من ليالي رمضان التقى صديقنا امين سليم برفقائه تحت شجرة الجوز الكبيرة القريبة
من الساقية وجلسوا يتنادرون وحديث الصبية لا يعدو المدرسة والمدرسين والامتحان فاذا
خرج عن هاته الدائرة فبعض المبالغة والادعاء والفخر والتشبه بالرجال وحيثما يكون سكون
الليل وجمال القمر مغرياً باعترافات يتبادلونها همساً شأن الكبار . ففي الليلة التي نحن بصدها كان
اكبرهم سنّاً يسخر من امين ويقول « بالكم امين ده الي انتو شافينه ساكت ده كل يوم وهو
راجع من المدرسة يشتغل خدام لسنه بنت شكري بك ويشيل لها الكتب بتاعتها » فضحكوا
كلهم وصاحوا « حقيقي » فحجل ولم يحب وكان صمته اعترافاً على ان الصبي كان في هذا القمر الناضر
جاذباً غير عابث وقد حزن لذبوع سره وجعله موضوع دعابة ولبثوا جميعاً حتى انصرفوا كل الى منزله

قبل هذه الليلة بشهرين وقفت الصبية الجميلة سنية امام باب المدرسة تنتظر الخادم . وكان يبدو في وجهها الناحل سحر وخيال وابهام كل ذلك في سمرة كسمرة الفجر وحمرة على الخدين كحمرة الشفق حمرة تزداد وضوحاً كلما لحظتها أعين الصبية الواقفين عمداً او عن غير عمد ويزيدها حلاوة وغرابة مريلة المدرسة الزرقاء والقبعة النظيفة السليمة الذوق ينساب من خلفها ضفيرتان من الشعر الاسود الحالك . وفي نفس الوقت خرج امين سليم من مدرسته في نفس الشارع ووقف امام باب المدرسة ينتظر الخادم . طال انتظارها لخادما وطال انتظاره لخادمه فلم يأت هذا ولا ذاك فضجرت وضجر واعتزمت ان تعود وحدها على غير عادة واعتزم كذلك ومشت الفتاة لا تلتفت يمنة ولا يسرة وتعمل بنصيحة امها « ما تكلميش حد »

وترك الفتى باب مدرسته مهرولاً وكان يرتدي بدلة جميلة غالية الثمن ولكنه كان يبدو عليه الاهمال في ملبسه والتفكير في وجهه العصي النحيل وكان الطريق الى المنزل يعترضه «مزلقان» وظلما راح القطار وجاء في «مناورة» ثقيلة وربما كنت مسرعاً الى موعد أو مدرسة فوجدت سلم « المزلقان » ينزل في سرعة ويحول دون مرورك ويبدأ القطار الثقيل في الغدو والرواح ففي هذا اليوم كان الشارع مزدجماً بالباعة والعربات الكبيرة التي تحمل الحجارة والمزلقان قد نزل سلمه والقطار العجيب يروح ويغدو

وفي الساعة التي اختارها القدر وقفت سنية امام المزلقان ووقف امين وجاء غلام يدفع عربة يد فمست يد سنية فسقطت كتبها فتناولها امين ولم يعطها اياها بل وضعها الخبيث ساكناً في محفظته فعلت خدوها حمرة الشفق وطغت على الحدود المألوفة واطرقت لا تدري ماذا تصنع بعد ذلك رفع سلم المزلقان واخذ الناس يتدفقون ويتزاحمون بالمنكب فاتأد الصبي والصبية ثم جمعهم القدر في سبيل واحد وسارا صامتين زمناً لا حساب له حتى وقفت فجأة فادرك انه قد آن ان يفترقا فخرج لها كتبها ثم عز عليه ان تمضي بدون ان يتعارفا فسأل

— اسمك ايه — سنيه شكري

— وانا امين سليم — في سنة ايه

— سنة رابعة — وانا كان

— ساكنه فين — في شبرا شارع

قريب منا ياريتك تجي مرة في القمر تقعد تحت شجرة الجميز قرب الساقية
ولاح خيال خادمه من ناحية وخادما من الناحية المقابلة فصمتا وابتعدا وابتعدت
وصار يراها كل يوم فيتبادلان التحية بالنظر ويتمنيان لو ان الخادمين مرضا او غابا او اصابهما حادث ثم انقطعت عن المجيء وصار الطريق مقفراً لا يطاق ومضى في ضوء القمر الى الشجرة التي تمنى ان يراها عندها مضى مراراً والحنين اليها يتسع في قلبه حتى صار ناراً آكلة

و ذات ليلة ذهب في سرب من رفقاءه الى حيث يتلاقون فرّ بسرب من الفتيات يتحاذن عند باب منزل فطرق اذنه صوت يعرفه فتخلف عن اصحابه ووقف في ناحية يسترق السمع فسمع سنيه تقول (وكانت هي) همساً لصاحبة لها :- نعم التقط كتي ووضعتها في محفظته وتمنى ان يلاقيني في ضوء القمر تحت شجرة الجميز عند الساقية . انه غير جميل ولكنه رفيق ومن عائلة كبيرة على انه قد نسيتني بالطبع

نفخق قلبه وانكشف في الظلمة الكثيفة . . واجابت دمعة حارة ان هذا غير صحيح ثم سمع خطاها تبتعد وهو في الظلمة جامد في مكانه ثم ابتعدت خطاها عنه في الحياة . واقبل الفقر يطحنهما متفرقين حتى التقيا في المنزل الحقيق بحارة علام

— ٣ —

كان الليل هادئاً والقمر في السحب الصافية يالوح جليلاً في غربته رائعاً في حيرته يبدو من خلال سحابة ثم يستتر وراء اخرى وكان ينظر الى الدنيا بعين ملولة ويرى ان اهلها لا يستحقون ما يغدق عليهم من النور القدسي الجميل اذ بينما يشعه عليهم من وجدانه وقلبه يغط بعضهم في النوم وبعضهم لا يفهمون انه يعامهم السمو والنبيل فيمضون الى اتيان لنة محرمة او منكر لا يليق . نعم كان القمر في تلك الليلة يعززم ان لا يطلع على الدنيا واستتر وظال استتاره لولا ان اليد الخفية الجبارة دفعته من وراء السحاب فطلع كارهاً وغمر نوره القاهرة وفاض على اعالي القصور كما فاض على السطوح الفقيرة في حارة علام — في تلك اللحظة فتح امين سليم النافذة وتنفس تنفساً طويلاً ونظر الى القمر نظرة مبهمة ثم عاد الى النافذة فاغلقها في ضجر وملال واستوى امام مائدته وجعل مصباحه قريباً من يساره وفتح كتاباً ثم اغلقه واجال بصره في الغرفة الفقيرة الاثاث . فهذا سريره الذي ينام عليه منذ عشر سنوات . تفككت اعمدته وطالما اصلحها فعادت كما هي فلّ اصلحها ورضي بصريها المزعج كلما حدثته نفسه ان يستريح على فراشه وهذا هو الكرسي الطويل بجانب السرير وطالما اكتفى بالنوم عليه وتلك هي السجادة الوحيدة الباقية من فرش القصر الكبير وهذا هو رف الكتب قطعه عادية من الخشب مفروشة بالورق الملون المقصوص وذلك هو مصباحه الباهت النور مصباحه الثقيل الذي ينخفض نوره من نفسه ويحتاج الى يد تعليه كل آونة فاذا علا اندفع لسان من اللهب يهدد الزجاجة بالكسر والسقف « بالهباب »

في تلك الليلة كان امين يرتدي جلباباً خفيفاً ابيض وكان وجهه شاحباً قلقاً وكان يفتح كتاباً ثم يغلقه ويضع نظارته على عينه ثم يخلعها ويجلس على كرسيه قبل المائدة ثم يتركه ليجلس على حافة السرير ثم يترك حافة السرير ليجلس على الكرسي الطويل . واذهو في ذلك القلق الغريب دق الباب دقاً خفيفاً فوثب مرتجفاً واسرع اليه وما لبث ان صاح هامساً

— سنيه — (بهمس وخوف) ايوه واقفل الباب عليهما في حرص وسرعة
وكان المصباح الملعون قد عاد نوره الى الانخفاض واصبحت الغرفة في شيء من الظلمة
وترامت ظلال كثيرة على الجائط جعلت الغرفة كالمعبد المرهوب، وفي وسطه عابدان لا يتكلمان
وانما تقول الظلمة ، وشعاع القمر الداخل من النافذة كاللص ، انهما لبنا متعائنين ، كالموجتين
وجلبابهما في البياض كزغوة الزبد. تخلصت سنيه بلطف ، ووقفت بعيداً، وكان قوامها الممشوق
ينتفض وشعرها المتهدل الجميل قد قارب وجهها فأزاحته بيدها البضة الناعمة ، ومضت الى
الكرسي الطويل متهاككة وجلس امين على السجادة مسنداً رأسه الى ركبتيها، وصار يتكلمان همساً
— كم سنة ياسنيه والله مانسيتك لحظة . شوفي افتقرنا وجينا في حارة في شارع محمد علي
فسحت سنيه دمعة حارة ولم تجب ، فمضى قائلاً

— ودخلت التعليم العالي مجاناً بواسطة، وعلى ان اشتغل وانجح بسرعة، والاّ ماذا يصنع ابي
المسكين ؟ فلم تجب سنيه، وامسكت برأسه ، وجعلت وجهه اليها تطيل التحديق فيه ثم قالت خزينة
— حالك احسن من حالنا بكثير ، ابي مات ولم يترك لنا شيئاً تقريباً وصارت الحال تمشي
من سيء الى اسوأ حتى جئنا ايضاً الى الحارة نفسها في شارع محمد علي . فذرف بدوره دمعة
ولم يجب واستمر الصمت واخذت الذبالة في المصباح الملعون تنذر بظلمة كاملة واذا بمجاء قطتين
ذكر واثني بالطبع يتحaban في ضوء القمر ويسران الطبيعة بتحقيق احلامها فضحكت سنيه وامين
معاً . همست « دي قطنا وقطتك » ثم زمت شفيتها في خفة معبودة وقالت الا تذكر يا امين
احلامك في شبرا وامانيك ان تتحاب في ضوء القمر ، لقد انعمت الدنيا بأمانيك على قطتيننا،
اجاب ! معلش ياسنيه ادي احنا اتقابلنا ، وما دمت اراك فسأشتغل وأنجح ، ولا يلبث هذا
الضنك ان يزول ، فصاحت فجأة كأنما رأت الضنك قد زال حقيقة

— وبعد ان يزول الضنك

— تزوج

— وبعد ذلك

— يكون لنا اولاد

— وبعد ذلك

— نكون قد اقتصدنا مالا كافياً فنبنى منزلاً خاصاً

— وامي وابوك وامك

— يكونون قد تقدموا في العمر فنسعد مشيهم ونجعله كله رضاء

— وجبنا

— يزيد على السنين وينميه من ناحيتينا اخلاصي واخلاصك وتسامحك وتسامحي

ثم همت ان تلقي سؤالاً جديداً ولكن غمامة عبرت فكرها فجأة ولاحت لها صورة لا تحبها فادرك ذلك امين فسألهامها فامتنعت عن الاجابة فألح فقالت « واذا تعرض لنا زكي ابن خالتي »

فانتفض امين وتغيرت ملامحه وتركت رأسه ركبتيها ودار بعينه في الظلمة يبحث عن زكي ابن خالة سنيه زكي الثقيل بجسمه الضخم وسوالفه الكريهة وعينه الزجاجية وغناه الفاحش واللبانة التي يعضها دائماً دائماً

تغير الفتى الوديع عند مرور تلك الصورة البشعة ، وقال اقتله والويل لك اذا فكرت في ان تميلي اليه قالت « اميل اليه ! انت تهينني واذا ذكرت هذا ثانياً اخرج ولا اعود ابداً » فاستعطفها وعاد يسند رأسه الى ركبتيها وطردها تلك الصورة الكريهة ، وعادا يكملان مدينة الاحلام ، واوشك الفجر ان يطلع على تلك المدينة التي جلسا يبنيانها معاً فوقف امين فجأة ، قائلاً

— سنيه

— نعم

— شايفه الفجر اللي قرب يطلع

— ايوه شايفاه

— احلفي انك لي وحدي

— احلف

— هاتي فك

— فدت اليه شفة سحرية رطبة كالشليك الندي ثم انسلت الى غرفتها ، وهي تنزل السلم

في بطء وحذر

وعاد ذلك اللقاء يتكرر ومدينة الاحلام تبنى مع الليل وتتبخر مع الفجر ، وامين يدأب ويرى امانيه تدنو ، حتى كان ذات صباح خارجاً بكتبه الى مدرسته فرأى زكي ابن خالة سنيه جالساً الى مائدة في قهوة المعلم سلام فعجب من تلك الجلسة المبكرة ، وكان شجاعاً ، يفضل مواجهة الامور ، ففضى الى غريمه توّاً

صباح الخير يا سي زكي ايه اللي جابك الصبح بدري كده

— فاعتدل سي زكي في كرسيه ، بكبرياء وقحة وادار اللبانة في فمه القبيح ، وقال بلهجة ساخرة ، علشان ازور قرايبنا جيرانكم ، وشفق على الصبي ثم مد يده الى جيبه يرن النقود ويؤكد لامين من جديد انه غني وانه بهذا الغنى سيملك ابنة جيرانه . قال امين

— ولكن الزيارة تبقى بدري كده

— ده مش شغلك

— فنار الدم في وجه امين ، ولم يدر بالضبط ماذا حدث ، غير انه وجد القهوة ممتلئة بالناس ، ووجد سي زكي في وسطها والدم يسيل من انفه ، وهو يسب ويلعن ، ورأسه عار وسوالفه القبيحة ملوثة بالدم . والحقيقة ان امين من دون ان يدري ما هو صانع ، تناول كرسيًا فهرب سي زكي الى داخل القهوة فطار الكرسي وراءه ، وتبعه آخر بنفس السرعة ، فأصابته رجله في انفه ، فلما رأى الدم هاجه ذلك كثيران الصراع في اسبانيا ، ووثب بجسمه الضخم على غريمه ، ولكن المعلم سلام كان قد جاء ، وجاء ناس آخرون فخالوا بينهما. وتهدد زكي وتوعد ، وقال « بكره تشوف » وجمع امين كتبه في كبرياء وانفة ، وانصرف بدون ان يرد

قالت سنيه لامين في غرفته بعد ايام — اما علقه اللي أكلها زكي . تعرف انه دخل عندنا بعدها ، وامي اكرمته وطيبت خاطره ومسحت له جرحه ووضعت له صبغة يود . امي المسكينه تراه غنيًا ، وتلاطفه لعله يتزوجني ، وهو يدخل بيتنا ويتقرب اليها لهذا الغرض ، امس جاء عندنا وقال لامي ان الحكيم قال له ان عظمه انفه من فوق انكسرت وستتركها مستديمة ، لان انفه تنخسف من اعلى وسيرفع قضية فضحك امين وقال لتزيد شكله قبحًا ، اما القضية فليرفعها علي في اوربا . فسألت مدهوشة اوربا كيف !

قال اني نجحت في الامتحان الاخير كما تعلمين وسأسافر في بعثة ان شاء الله بعد اسبوع فضربت صدرها بيدها قائلة اتركننا قال نعم — لكي اختبر القسم الذي اقسمته والفجر موشك الطلوع قالت وهي تمجش بالبكاء كن مطمئنًا . واعتنقا وطال عناقهما ثم انسلت الى غرفتها وهي تنزل السلم في بطء وحذر

— ٤ —

لندن في ٧ ابريل سنة ١٩٢٨

حببتي سنيه — جلست وحدي في غرفتي قرب المدفأة اقرأ خطاباتك الجميلة خطاباتك التي ملأت حياتي املًا وأنستني غربتي وجعلت مني رجلاً . لقد كان خيالك الجميل واقسامنا كل ما اوشك الفجر ان يطلع ومدينة الاحلام التي شيدناها معاً كل تلك الصور كانت لا تبارح ناظري . نعم مرت سنون جهاد عنيف ولكني لم اكن اعبأ بها ولا ابالي بمتاعبها ما دمت في انتظاري وما دام امك وابي وامي بخير

آه يا سنيه ان لندن بحالها ، لندن العظيمة الضخمة لا تساوي ركنًا من مدينة الاحلام وعلى

ذكر هاته المدينة السحرية اني اراك الآن في ركن منها يغمره القمر وتنام الزهور آمنةً نعم
اراك الى جانبي وامضي في تقبيلك بلا حساب
حبيبك امين
القاهرة في ٢٥ مايو سنة ١٩٢٨

حبيبي امين : تسلمت خطابك وسرني أن اسمع انك في صحة جيدة اما نحن فقد ضاقت
بنا الحال . شكراً للنقود التي ترسلها الينا مما تقتصده واننا نعلم ما يكلفك هذا من التقدير على
نفسك وانت في بلاد غريبة . نعم ضاقت بنا الحال يا امين وتركنا جيرتك الهنيئة ورحلنا الى
منزل اقل ايجاراً وقبل ان نتقل اليه سعدت في الليل الى معبدنا المقدس ووقفت عند باب
غرفتك استعيد الماضي الجميل ومدينة الاحلام فتى تعود لنتم بناءها — متى ..
حبيبك سنيه

ملحوظة — اكتب اليّ على شباك بوسنة الفجالة

لندن في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٨

حبيبتي سنية : اكتب اليك والفرح يملك عليّ مشاعري واني لوانق ان اخبر الذي سأقصه
عليك سيجعلك رقصين من السرور. لقد نجحت واقبل عليّ عميد الكلية يهنئي فقد جاء اسمي
في قائمة الشرف

انا عائد يا سنية عائد بعد مضي اربع سنوات لا اعلم كيف صبرت على قضائها بعيداً عنكم
اطوي البر والبحر بالفكر اليك واقبلك طويلاً
حبيبك امين

٢ اكتوبر سنة ١٩٢٨

حبيبي امين — تسلمت خطابك الاخير من بوسنة الفجالة وقرأته كثيراً وقبلته مراراً
دامعة العين شديدة الشوق اليك . الدنيا فراغ شنيع بغيرك والايام لا معنى لها
سنيه
عد للتي تحبك وتنتظرك

ملحوظة — اعذر اختصاري هذه المرة فاني لشدة الفرح بك لا ادري ماذا اكتب

في يوم ممطر كانت باخرة تقترب الى الشاطئ في ميناء الاسكندرية ووقف المنتظرون
يتربعون العائدين ويلوحون بمناديلهم واقتربت الباخرة ببطء ثم وضع السلم وصعد ضابط
الميناء ورجاله ثم سمح للركاب بالنزول فاسرع من بينهم شاب نعرفه يلبس قبعة ويحمل نظارة
نزل السلم بسرعة وتلفت هنا وهناك فناداه الشخص الوحيد الذي ينتظره

— امين

— ابي

وكان عناق رائع حار ودموع

وبعد ان تم تفتيش الحفائب اقلتهما عربة الى القطار المسافر الى القاهرة وفي القطار علم امين ان امه مريضة بالروماتزم :

— مش قادره يا ابني وانا كان الربو تاعبني قوي ومنذ اسبوعين كان عندي ورم في الرجلين والحكيم امر لي بالراحة ومنعني عن اللحوم والملح وكان جيراننا عائلة شكري بك يواسوننا ولكن الحالة ضاقت بهم فعزلوا الى منزل اقل ايجاراً

نخفق قاب امين واحس به يثقل وينحدر في صدره

— وزارونا مرتين بعدها والشقة والله فاضية لغاية دلوقتي

وانتقل الحديث الى اشياء اخرى وبلغا القاهرة ثم المنزل ووجد امين الدور الارضي خالياً فأحس بفراغ كفراغ المقابر وكانت والدته في فراشها وقد اقعدتها المرض وشعب لونها ولكن الأمل في لقاء ابنها جعل لعينها بريقاً غريباً من الحياة وكأن قوة غير عادية وثبت فيها وهي تنظره ثم وهي تضمه ثم وهي تبكي

واما غرفته في السطح فلم يجد عليها شيء ولكنه حين فتحها هب منها عبق الذكرى والقسم الغابر والمدينة السحرية

في صباح اليوم التالي اخذ يبحث ويسأل عن منزل شكري بك الجديد فلم يهتد وذهب الى بوسنة الفجالة وكان قد ارسل اليها خطاباً كعادته قديماً فلم يأت احد لتسلمه ولم يعلم من امرهم غير ان الفاقة الحت عليهم وهنا انقطع خيط البحث

ذات صباح كان بمديرية الجزيرة لامر يخصه فر بمحديقة الحيوانات وخطر له ان يدخل .

جلس على مقعد تجاه القروود خلف شجرة تواريه بعض الشيء

فرت سيدة بادنة « بملاءة لف » ومعها طفلان وخلفهما رجل وكان الرجل ضخماً طويلاً

وله سؤالف كريهة وفي فيه لبانة

فدعر واحس بيد تقبض على حلقه وتنشب اظافرها فيه وهم ان يصيح فلم يستطع وان يقوم فلم يقدر . سنية الجميلة الرشيقة تلبس ملايه لف وتصبح بادنة ويصير وجهها عادياً خشناً وتزوج بمن ، بالشخص البغيض الكريه الذي خسف انفه بالكروسي من اجلها . هم ان يقوم ثانياً وان يحتج فوقف بينه وبينهم شبح يصرخ في وجهه قف فانا الذي اذلت هذه المرأة ومازلت اطحنها وامشي بها من حاجة الى حاجة حتى تزوجت غريمك والخطابات . . . انها خدعتك لصالحك الا تعرفني فصاح امين اجل اعرفك ايها الفقر وهذه آثار افرك في عنقي

وطأطأ رأسه وقد غفر للحبيبة المسكينة بينما الموكب العائلي يسير . ثم ثارت عاصفة من

الغبار حجبت عن عينه الى الأبد مدينة الاحلام

الراهبة

[بعث إلينا أحد المعجبين بشعر الشاعر اللبناني البرازيلي
إلياس فرحات بقصيدته هذه وبمقطوعات أخرى من شعره على ذكر
تمثيل ديوانه للطبع فاكثفينا بنشر القصيدة شاكرين ، موجهين
الأنظار إلى هذا الشاعر الممتاز الذي عرفه قراء المقتطف من قبل
في رباعياته راجع مقتطف إبريل ١٩٢٦ صفحة ٤٣٦]

اطلّت من الدير عند الضحى وفي ناظريها بريق الأسي
فتاة كأنّ الآلهة براها ليجعلها فتنة للنهي
ولكنها في صباح الحياة على وجنتها شحوب المسا
رماها الزمان بهجر الحبيب فداوت ضلال الهوى بالهدى
تصلي فتحسبها دمية من العاج ساجدة للدمى
وتلثم تلك الدمى بنخشوع فيوشكن يلثمها من جوى
تحاول نسيان محبوبها وزهو الشباب وعز الغنى
وأقصى من الحب كتمانهُ وانكى من الهجر فقدّ الرجا

ولما بدت شمس ذاك النهار بدت خارج الدير ذات التقى
تجمع من حوله ضمة من الزهر تهدي لنادي الورى
وبينا تسير على مهلها وتجمعها من هنا وهنا
وقد عانق الورد في كفها عناق الشقيق عناق الهوى

رأت زهرة في أعالي الجدار تداعبها نسيمات الصبا
فأعجبها شكلها المستطيل ولون كقوس السحاب زها
وقد زاد في قدرها أنها تعزُّ على من يريد الجنى
فحرك منظرها نفسها وقالت بملء الحنان لها

اخية ! يهنيك هذا السموء وهذا البهاء وهذا الرضى
ولكن أما كان اشهى لديك جوار الازاهير بين الربى ؟
تحوم عليك بنات القفير وتسعى اليك صبايا القرى
وتسمعك الطير انشادها فمنه الحجاز ومنه الصبا
فأنت تعيشين في عزلة فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذى ؟

وفي الليل سارت الى خدرها وفي قلبها مثل نار الغضا
ولما نضت ثوبها لتنام تبين من حسنها ما اختفى
فمدت الى صدرها كفها وقد فتح الورد تحت الندى
وقال لها قائل صامت وكان الذي قيل رجع الصدى

وانت تعيشين في عزلة فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذى ؟

الازمة الاقتصادية العالمية

اسبابها وعلاجها

يقاسي العالم منذ بضع سنوات خلت ازمة اقتصادية لم يسبق ان وقع نظيرها في تاريخ الحضارة من حيث شدتها ونتائجها وبعد مداها. وقد بلغت اشدها في السنة الحالية اذ اجتاحت العالم بأجمعه فلم يبق بلد الا وتداعت اركانه الاقتصادية وحل فيه من الفواجع المالية الشيء الكثير مما خبرناه بأنفسنا وقرأنا عنه وحملت الاسلاك البرقية اخباره الينا

واتخذت كل امة تجاه هذا الخراب الداهم ما استطاعت من الاجراءات الاستثنائية كالحواجز الجمركية مثلاً وتدخل الحكومات مباشرة في شؤون الانتاج والتصرف ظناً منها انها بهذه الوسائل المستنبطة تحتفظ بمقامها المالي والاقتصادي فأحدثت هذه السياسة الافرادية شللاً في العلاقات التجارية بين مجموع الامم اذ اختلت من جرائها قاعدة العرض والطلب وفُقد التناسب بين الانتاج والاستهلاك . اجل ان هذه الوسائل عوضاً عن ان تخفف وطأة الازمة الاقتصادية زادت تخرجاً فتفاقم الخطب وازداد البؤس بين الناس واصبح عدد العاطلين يعد بالملايين في كل بلاد حتى ان المدينة المحاصرة اصبحت اليوم مهددة بثورة اجتماعية لا يعلم نتائجها الا الله انتبه الرأسماليون الى خطورة الحالة فقاموا في الآونة الاخيرة يسعون وراء التفاهم في ما بين الدول ويحثون حكوماتهم لايجاد علاج شاف يضع حداً لهذه الازمة العمومية بالتضافر والتعاون معاً بدلاً من ان تسعى كل دولة منفردة عن غيرها اذ ادركوا ان حياة الفرد في حياة المجموع وان كيان الهيئة الاجتماعية المحاصرة متوقف على حفظ كيان كل امة اقتصادياً ومالياً . ولذلك رأينا الولايات المتحدة وهي التي اصرّت كل الاصرار منذ بضع سنوات على تنفيذ برنامج « يونغ » بحذافيره — رأيناها من تلقاء نفسها تمنح مدينتها مهلة سنة لاستيفاء الديون بشرط ان يمهلوا هم بدورهم المانيا سنة لدفع التعويضات الحربية . فالولايات المتحدة لم تخط هذه الخطوة الخطيرة — في الوقت الذي فيه تعاني هي نفسها اشد ازمة مالية عرفها في تاريخها — كرامة للانكيز والافرنسيين ، بل لانها تيقنت من ان المانيا على شفير هوة الافلاس والفوضى فاذا لم تمهل زمناً تتنفس فيه الصعداء افلست حتماً ووقعت في احضان البولشفية وهذا اشد ما تخشاه الامم الديموقراطية اليوم ولنفس السبب ايضاً نشطت فرنسا لنجدة المانيا فأقرضتها المال وسعت للتفاهم معها على

وضع معاهدة تجارية جديدة وهي التي ما فتئت تجاهر بأنها لن تتنازل عن سنتيم واحد من الغرامة الحربية والتعويضات بموجب ما اقره برنامج «يونغ». وقد رضيت انكلترا وفرنسا فوراً بالمهلة التي اقترحتها الرئيس هوثر فانتعشت المانيا نوعاً وصدت عنها شبح الافلاس والفوضى الى حد ما ووافقتنا الاخبار عن الاجتماعات المتتالية التي حصلت بين الوزراء الالمان والفرنسيين في باريس وبرلين ووشنطن. وهاهو ذا مؤتمر لوزان على الابواب. كل هذا مما يدل على شدة اهتمام الدول الاوروبية بمعالجة شؤون العالم الحالية. ولكنها - حتى الآن - كانت معالجة من قبيل «الترقيع» لا تنطوي على علاج ناجع لاستئصال الداء. فالعالم اليوم أشبه بعليل يقاسي الآلام المبرحة واطباؤه عاجزون عن معرفة حقيقة الداء ووصف الدواء اللازم لاستئصال العلة فاكثفوا باعطائه المخدرات لتسكين اوجاعه وقتياً بينما العلة تشتد حتى كاد المريض يدخل في طور النزع. وازاء هذه الحالة الخطرة قام علماء الاقتصاد في مختلف البلدان كل يدي برأيه في اسباب الازمة الاقتصادية العالمية وعلاجها. فجاءت هذه الآراء متضاربة متباعدة كتبليبل الالسن في برج بابل وفي ما يلي بعض هذه الآراء أثبتها بصورة مقتضبة ثم اعود الى بحث الموضوع من اساسه وللقارئ ان يرى مدى التباعد وشدة التناقض بين هذه الآراء

- (١) الافراط في الانتاج (٢) النقص في الاستهلاك (٣) الاسعار العالية (٤) الضرائب الباهظة (٥) ديون الحرب (٦) تهريب الاموال من بعض البلدان (٧) احجام الرأسماليين عن تمير اموالهم في مشاريع جديدة (٨) التوسع في منح الكريديتو لحد المبالغة (٩) تضيق دائرة الكريديتو (١٠) السخاء العظيم في الاسعاف العام (١١) نبذ المبادئ الاقتصادية القديمة الحرة (١٢) الاهمال التام في ادارة الشؤون الاقتصادية الحرة

واما العلاجات فهي ايضاً متعددة ومتضاربة اذ كل صاحب رأي يصف العلاج المطابق رأيه واليك بعضها: (١) الرجوع الى المبادئ الاقتصادية الحرة (٢) خفض الاسعار (٣) خفض اسعار المصنوعات بالنسبة الى اسعار المواد الاولية (٤) رفع الاسعار (٥) زيادة القدرة على الشراء (٦) توسيع نطاق الكريديتو والعمل على زيادة المقدرة على الشراء (٧) تخفيض الاجور (٨) اعادة الثقة المتبادلة بين الدول (٩) الاقلال من الانتاج على ان يكون بموجب خطة مرسومة راهنة (١٠) العمل على عدم هبوط الاسعار (١١) توزيع الذهب في العالم على اساس معقول وبطريقة حكيمة (١٢) إيجاد تفاهم بين المنتجين لضبط الانتاج على قدر المستهلك (١٣) الرجوع الى الفضة والذهب معاً كأساس للنقد عوضاً عن ان يبقى الذهب وحده اساساً للنقد كما هي الحال الآن. وهكذا الى ما لانهاية له. على ان بعض هذه العلاجات خطرٌ جداً وربما اودى بحياة المريض. ومهما يكن من الامر فن المؤكد ان حسن هذه العلاجات لا يمكن ان يكون وحده لحل الازمة الاقتصادية العالمية

المخترعات والازمة

وقام في الآونة الاخيرة العالم الفرنسي الشهير الميسو برجيو — وهو من العلماء الذين ينزل عند رأيهم في الشؤون الاقتصادية — يقول ان السبب الاساسي لهذه الازمة العالمية هو استعمال المخترعات الحديثة في الصناعة دون ضابط ولا قيد مما يجبر اصحاب المصانع على تجديد الآلات ومعدات مصانعهم تجديداً مستمراً . وعند ما يضطر صاحب المصنع الى ابدال آلات مصنعه التي لم يكن قد استهلك قيمتها بعد بآلات حديثة مجارة للتقدم الصناعي الذي اوجدته المخترعات الحديثة العديدة فنتيجة ذلك خسارة من رأسماله لا تعوّض . واذا لحقت الخسارة بمجموع رؤوس الاموال في العالم كما هي الحال الآن فلها تقلل بما يعادلها من مقدرة اصحاب الرأسمال على المشتري وكذلك الاستغناء عن الايدي العاملة والاقتصاد في المواد الاولية الناتجة عن استعمال تلك المخترعات الحديثة يسببان البطالة بين طبقات العمال فتقل المقطوعة وتتراكم البضائع فتزول الثقة ومنها الكريدتو فيكثر الافلاس وتستحكم الازمة

ومن هذا يستخلص الاستاذ برجيو القاعدة الاقتصادية الآتية : « لا يجوز ادخال المخترعات الحديثة على الصناعة الا اذا كانت الفائدة الناتجة عنها اكبر من الخسارة التي تسببها » على ان هذه القاعدة التي يقول عنها الاستاذ برجيو انها المفتاح الوحيد لحل الازمة الاقتصادية العالمية ليست بالشئ المبتكر اذ انها القاعدة الاساسية التي تمشت عليها الصناعة منذ نشأتها وهي حقيقة ثابتة لا يختلف فيها اثنان ويجدر بارباب الصناعة ان يتذكروها في وقت تعددت فيه المخترعات والمستحدثات تعدداً سريعاً يبعث على الدهشة . ومن رأي الاستاذ المذكور ان يؤلف ارباب الصناعة اي الرأسماليون نقابة من بينهم تمتلك كل مخترع جديد وتشرف على طريقة استعماله بحيث لا يكون تطبيقه مغايراً للقاعدة المشار اليها آنفاً اي بعبارة اخرى يكون من شأن النقابة هذه ان تمنع الانقلابات والتطورات في الصناعة الناتجة عن المخترعات الحديثة الا اذا كانت الحالة تستدعي ذلك حتى لا يسيء الناس استعمالها في غير اوانها فتأتي بالشر والنكبات بدل الخير المرجو منها

هذا ما ادلى به الاستاذ برجيو ولكننا امام الحقيقة الراهنة لا يمكننا ان نسلم برأيه وزاه آخذاً بالنتائج دون الاسباب ورأيه هذا مع ما فيه من منطق وحقيقة لا يختلف عن غيره مما ذكر آنفاً اي انه لم يصب كبّد الحقيقة من حيث الاسباب الاساسية للازمة العالمية بل اكتفى بمعالجة الاعراض الظاهرة بمخدر وقتي ومن وجهة واحدة لان معالجته تنحصر فقط في وجوب الاقتصاد في كلفة الانتاج الصناعي . على ان ازمة الصناعة ليست سوى نقطة في بحر الازمة الاقتصادية العمومية والارتباكات المالية فهي نتيجة امر واقع وليست من مسبباته فتزول متى تحسنت احوال العالم العمومية . وعلى سبيل المثال لنحضر رأي الاستاذ المذكور نذكر صناعة

السينما التي لم تؤثر فيها الازمة العالمية لاقبال الناس على دور السينما فزهت وتقدمت تقدماً سريعاً مطرداً وما كانت المستنبطات الحديثة التي ادخلت عليها والاموال الكثيرة التي تنفق في سبيل اتقانها واشادة دورها الانيقة الرحبة لتؤخر سير تقدمها او تورطها في الازمة الآخذة الآن بخناق الصناعات الاخرى . هل ياترى اذا توقف الجمهور عن ارتياد دور السينما يحجم اصحابها عن موالاة التحسين فيها حتى تتقي الازمة ؟ وهكذا قل عن كل صناعة أخرى بل عن كل تجارة بل عن الزراعة نفسها فانه متى احجم الجمهور عن الاستهلاك وقعت الازمة بلا محالة ولكن احجام الجمهور عن الاستهلاك او بعبارة اخرى قلة المشتري او ضعف المقدرة على المشتري ليس بمحد ذاته سبباً يصح السكوت عليه بل هو نتيجة مسببات اخرى نتناولها في ما يلي وهي التي اودت بالعالم الى هذه الازمة العمومية التي نكدت عيش الناس في جميع البلدان ان الذين كانوا اطفالاً في سنة ١٩١٤ لا يمكنهم الآن ان يدركوا كنه الحالة بل هم ينظرون الى الازمة نظرهم الى لغز تعذر عليهم حلّه وذلك لانهم عاشوا في زمن انقلب فيه كل شيء رأساً على عقب واصبح فيه الشواذ قاعدة يعمل بها والقاعدة الاساسية شواذاً . اما الذين كانوا في سن الرشد والادراك عام ١٩١٤ — الذين عرفوا العالم اذ كان كل شيء في موضعه الطبيعي — هؤلاء لا يصعب عليهم ان يدركوا كنه الحالة ويحلّوا هذا اللغز الذي هو ليس بالحقيقة لغزاً

زيادة الضرائب

ان وراء هذه الازمات والمصائب اسباباً اساسية ظاهرة لمن يقابل الحاضر بالماضي اولهما الزيادة الفادحة في النفقات العمومية والخصوصية زيادة لم يعرفها العالم في الماضي . ففي اثناء الخمس عشرة سنة الاخيرة بلغت الضرائب والنفقات العمومية في فرنسا وايطاليا والمانيا اربعة اضعاف ما كانت عليه سابقاً وفي سويسرا ثلاثة اضعاف وفي انكلترا واميركا نحو خمسة اضعاف . ومن غريب الامور ان المدنية الحاضرة تكاد لا تعير هذا المرض الاجتماعي القتال اقل اهتمام . كان من اصعب الصعاب فيما مضى على اية حكومة كانت حتى الاوتوقراطية منها فرض ضريبة جديدة ولو صغيرة على شعبها حتى ان معظم الثورات التي سجلها التاريخ ترجع اسبابها الاساسية الى زيادة الضرائب بل كانت بالحقيقة حرباً عليها . فكيف يمكننا ان نفسر الآن هذه الضرائب الفادحة التي فرضتها الحكومات على شعوبها في مدة الخمس عشرة سنة الاخيرة دون اقل مقاومة او تدمير ؟ لماذا سلّمت الشعوب بهذا الاستبداد المالي عن طيبة خاطر حتى ان معظم الناس كان لا يعرف تماماً مدى فداحته وهو يدفع الضرائب الاميرية غير مبال بالارقام الهائلة التي وصلت اليها ؟

اننا نجد بعض التعليل لهذا اللغز الغامض في حالة التقدم واليسر التي وصل اليها العالم .

وما اليسر سوى كثرة المال . ولما كانت الضرائب تدفع بالمال فكما كثر المال قلت وطأة الضرائب على دافعيها والعكس بالعكس اذ من الاسباب الاساسية التي كانت تهيب بالناس في سالف العصور الى الثورة والامتناع عن قبول الضرائب قلة النقد المتداول بين الايدي . بدأ عصر الذهب في سنة ١٨٤٨ لما اكتشفت معادن كاليفورنيا واستراليا واخذ انتاج الذهب يزداد تدريجاً سنة بعد سنة حتى اصبح المال موفوراً وبعبارة اخرى اصبح العالم غنياً . وهكذا اخذت الحكومات تنفق من دون حساب وميزانيات نفقاتها تزايد مع مرور السنين واعتاد الناس القيام بهذه النفقات عن طريق الضرائب دون ان يشعروا بتزايدها . الا ان ازدياد المال بين الايدي كان اسرع من ازدياد الضرائب . وهكذا قد اعتادت امم الغرب في اثناء خمسين سنة تقريباً دفع ضرائب الحكومات ومواجهة زيادة النفقات عن رضى وقبول . وهذا امر طبيعي اذ من البديهي ان اسلم بدفع ضريبة عشرين غرشاً عند ما يكون دخلي مائة غرش بينما استصعب جداً وربما تعذر علي دفع ضريبة عشرة غروش اذا كان دخلي فقط ثلاثين غرشاً وزيادة النفقات والضرائب التي شهدناها منذ خمس عشرة سنة والتي بلغت اربعة وخمسة اضعاف ما كانت عليه قبل الحرب العالمية ليست الا نتيجة طبيعية لزيادة النقد في العالم تلك الزيادة الفاحشة . ان الحرب العالمية قد كدست الذهب عند امم وحرمت امماً اخرى منه ولكن الامم التي اضطرتها الحرب الى انفاق ما كان لديها من الذهب او جانباً منه لم تشعر بضيق مالي في السنين القلائل التي تلت الحرب اذ ان تضخم النقد الورق قد اوجد اليسر والبجوحة حتى في البلدان التي نكبت شر النكبات في الحرب . تلك ظاهرة غريبة تبعث على الدهشة ولكن حقيقة الامر ان ذاك اليسر لم يكن الا وهمياً لا اساس له . والاغرب من ذلك ان هذا اليسر الوهمي الذي تمتعت به الامم التي بليت بنكبات الحرب قد زاد في يسر الامم الاخرى التي تجمّع الذهب عندها وكان غناها حقيقياً . وكان العالم قد اصابه شيء من الخبل من حالة اليسر ووفرة المال — هذا اليسر الذي كان نصفه حقيقياً ونصفه وهمياً — حتى اخذت الحكومات تنفق دون ما حساب وتزيد في الضرائب اضعاف الاضعاف والناس كالسكارى لا يعرفون للمال قيمة يدفعونه ويصرفونه ذات اليمين وذات الشمال غير حاسبين للغد حساباً ولكن دوام الحال من المحال فما انتقضت بضعة سنوات حتى تبدل ذاك اليسر عسراً . قلت الارباح بل تضاءلت وخفضت المعاشات وعم الكساد الزراعة والصناعة والتجارة وعجزت جميع الدول عن سد العجز في ميزانياتها . وجيش البطالة الذي بلغ الملايين اصبح عالة على المجموع . فكيف يمكن والحالة هذه ان يستمر الناس على دفع الضرائب الفادحة التي كما بينا سابقاً قد بلغت حداً قصيماً . انها اليوم تثقل كاهلهم وكانوا بالامس لا يشعرون بعبأها . ومن اهم المشاكل التي تواجهها الشعوب اليوم هي مشكلة الضرائب وكيف يحمل هذا الحمل الثقيل دون ان نزرع تحت

التجارة مبادلة

لماذا لم تدرك اوربا في سنة ١٩١٩ انه بعد حرب لم تبق ولم تذر دامت اربع سنوات كان يجب عليها الاقتصاد الكلي مدة لا تقل عن عشر سنوات وانه كان يجب على الحكومات ان تكون قدوة للافراد في ذلك؟ لماذا ونحن في عصر النور قد تعامينا عن هذه الحقيقة وناقضناها بكل ما اوتينا من قوة؟ على انه يظهر ان التعامي عن الحقائق الجوهرية اصبح من امراضنا الاجتماعية في عصرنا الحاضر. وها هي معضلة التعويضات والديون الدولية التي تزداد تعقيداً سنة بعد سنة مثال بليغ على هذا المرض القتال. نعم انه مرض قتال لان التعويضات الحربية والديون الدولية بحالتها الراهنة هي سبب آخر بلا شك لهذه الازمة الطاحنة والعجز عن حل معضلتها راجع لهذا التعامي بل لهذا الجهل. عجب عجب كيف ان اوربا واميركا في هذا العصر الذي توصل فيه العلم الى نزع الحقيقة من قلب الزمان بل الى سبر غور المادة حتى اخضعها لمشيئته تجاهلتا قاعدة اساسية في علم الاقتصاد درستها انا عند ما كنت تلميذاً ودرسها قبلي ويدرستها بعدي ملايين التلاميذ في المدارس. تلك القاعدة الاساسية التي بني عليها علم الاقتصاد والتي لا يمكن تحويلها او الزيادة عليها او النقصان منها هي ثابتة بجوهرها كالقاعدة الحسابية التي تعطينا ٤ من جمع ٢ مع ٢ بلا مزيد ولا نقصان وهي ان التجارة مبادلة أو مقايضة بين متاع ومتاع أو خدمة وخدمة وان العملة ليست سوى رمز للاشياء المتبادلة. واما اذا كانت العملة ذهباً فانها هي ايضاً تصبح متاعاً خاصاً أو « بضاعة » تصح المقايضة بها مع بضاعة أخرى. واساس العملة هو الذهب وليس ورق النقد الا رمزاً للعملة الذهبية ومقياس قيمته ما يدعمه من الذهب. فاذا كان الورق النقدي لا يرتكز الى مبلغ من الذهب بنسبة ٤٠ بالمائة على الاقل تعرض للهبوط بل كلما نقص مقدار الذهب الاحتياطي نقصت قيمة الورق النقدي وهذا ما وقع للمارك الالماني والفرنك الفرنسي والفرنك الايطالي واليرة الانكليزية. ونحن اذا قلنا مبادلة وجب علينا الا ننسى ان المبادلة هي بالحقيقة بين بضاعة وبضاعة باعتبار ان الذهب اي النقد الذهبي هو ايضاً بضاعة من نوع خاص

فالبلاد التي لا تستخرج الذهب يتحتم عليها مشترها من غيرها من البلدان التي تقتنيه وحيث ان البيع والمشتري هما بالحقيقة مقايضة يتحتم عليها دفع ثمنه بضاعة اي بعبارة تجارية معروفة عليها ان تصدر الى البلاد الاخرى بضاعة من انتاجها كي تستورد بقيمتها ذهباً متى فهمنا هذه الحقيقة الراهنة تجلت امامنا معضلة التعويضات الحربية والديون الدولية التي يئن منها العالم اليوم والتي تعتبر من المسببات الاساسية لهذه الازمة الطاحنة ووقفنا مذهولين متسائلين لماذا تغاضت الامم عن هذه الحقيقة فزاد تفاضها تعقيداً لازمة. لماذا لا تقر بصحة هذه القاعدة الاساسية فتعمل بموجبها عوضاً عن ان تناقضها هذه المناقضة العمياء؟

ففسلها مثل الرجل الذي امسك بالحية من ذيلها فلدغته عوضاً عن ان يمسكها من عنقها وبهشماً رأسها . وهنا لا بد لي من شرح هذه النقطة ولو بإيجاز :

عند انتهاء الحرب فرض الحلفاء المنتصرون على المانيا المغلوبة غرامة حربية كبيرة سموها تعويضات عن الخراب الذي سببته الحرب لهم بصفها معتدية عليهم . وتفرق الحلفاء بعد الصلح وكل منهم مدين للآخر والجميع مدينون لاميركا بمبالغ فاحشة . واذا كانت هذه التعويضات والديون الدولية لتستوفى تماماً وفي مواعيد استحقاقها استغرق ذلك مدة لا تقل عن خمسين سنة ووجب في خلالها على دول اوربا ان يدفع بعضها للبعض الآخر مبالغ كبيرة سنوياً وان تبعث بقسم كبير من هذه المبالغ عبر الاطالتيكي الى الولايات المتحدة . زد على ذلك ان الامم التي خرجت من الحرب وخزائنها طاحنة بالمال كالولايات المتحدة والدول المحايدة اقرضت باقي الدول الاوربية والاميركية واوستراليا مبالغ كبيرة من المال على ان تتقاضاها اياها دفعات سنوية فأصبح العالم بامره مديناً بعضه لبعض على وجه لم يسبق له مثيل من قبل . فاذا اخذنا بعين الاعتبار القاعدة الاقتصادية القائلة ان التجارة مقايضة وانه لا يمكن الحصول على المال الا لقاء بضاعة كان من الضروري ازالة الحواجز حتى تصبح هذه المقايضة سهلة لا يعترض سبيلها معترض وحتى تصبح المقايضة اي التجارة حرة طليقة من كل القيود بين الامم . فهل هذا ما فعلته الدول ؟ كلا انها عملت ما يناقضه على خط مستقيم

الحواجز الجمركية

هذه اميركا تتطلب من دول اوروبا استيفاء ما لها بذمتها من الديون وفي الوقت نفسه تمنع بضائع اوروبا من دخول بلادها فكيف يستطيع المدين ان يفي دينه اذا حرمه الدائن من الوسيلة الوحيدة التي بها يمكنه وفاء الدين . ومن اغرب الامور ان اميركا ما زالت منذ الحرب تمد الحلفاء بالمال وهؤلاء من القروض الجديدة يسدّون الديون القديمة . ومعنى ذلك ان اميركا تقي نفسها بنفسها . وهذه دول الحلفاء تتطلب من المانيا دفع التعويضات الحربية ولكنها بالوقت نفسه قد اقتفت اثر اميركا واقامت الحواجز الجمركية العالية على البضائع الالمانية في بلادها وفي مستعمراتها فحرمت المانيا الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من الحصول على المال لوفاء ديونها والقيام بتعهداتها . ثم ان الحلفاء اقتدوا ايضاً باميركا فقدموا الى المانيا قروضاً مالية كانت تساعد على دفع اقساط التعويضات باوقاتها . فكان الحلفاء يدفعون باليمنى ويقبضون باليسرى . ان هذه لعمرى مهزلة يجب ان يندى منها خجلاً جبين القرن العشرين

ولقد شعر العالم بعاقبة هذه المتناقضات وما الازمة الآخذة بخناق اليوم وفقدان الثقة ووقوف دولاب الاشغال سوى نتيجة طبيعية لها . لقد فقدت الثقة تماماً فاصحاب الاموال يتمنعون عن تشغيل اموالهم بل هم يدفعونها خوفاً عليها من الضياع والمصارف قبضت يدها



صورة قنصل الحواجز الجبركية في اوروبا وذلك قبل ان رفعت انكلترا حواجزها من عهد قريب
 مقتطف يوليو ١٩٣٢
 امام صفحة ٢٢٥

بناتاً عن التسليف والقطع وامست التجارة والصناعة والزراعة في جمود تام . ويعتبر الثقات الماليون ان الديون الدولية اصبحت جميعها متزعزعة غير ثابتة وان نصف العالم اليوم مهدد بالافلاس . لقد تجمّع الذهب في بلدان معلومة وحرمت باقي البلدان منه ولكن ليس من الانصاف ان نلوم فرنسا واميركا مثلاً على ادخار الذهب وامتناعهما عن اخراجه بصفة قروض للغير اذ لا توجد دولة الآن يكون الدين مأموناً لديها . والواقع ان اميركا وفرنسا يرغبان جداً في تصريف الذهب المتراكم عندهما — اذ لا فائدة لهما من وفرفته — لو وجدتا ضماناً كافياً لقروض جديدة . ان العوامل أو المسببات التي سقتها آنفاً كافية وحدها لان تنزل بالعالم شر النكبات والازمات المالية والاقتصادية فكيف بنا اذا اضفنا اليها عاملاً آخرأ بعيد التأثير شديد الوطأة ، عاملاً مباشراً أجمع معظم الثقات الماليين والاقتصاديين على أنه اهم جميع العوامل التي اودت بالعالم الى هذه الازمة الطاحنة ألا وهو هبوط قيمة النقد الفضي

الذهب والفضة

ولقد تنبأ المستر مونتاجو نورمن حاكم بنك انكلترا في سنة ١٩٢٦ عن مستقبل الحالة التجارية والاقتصادية وتأثير هبوط قيمة الفضة فيها خفاءات الحوادث منذ ذلك الوقت مصداقاً لنبوءته وهذا ما جاهر به وقتئذ قال : — ان التقلبات الفجائية صعوداً كبيراً أو هبوطاً شديداً في قيمة النقد الفضي تؤثر مباشرة في قيمة الأشياء التي اساسها النقد الذهبي . وهذه التقلبات من شأنها بث الفوضى في المعاملات المالية والتجارية لانها تفقد الثقة المعوّل عليها في هذه المعاملات خصوصاً في الهند والصين حيث الفضة من سالف العصور الى يومنا هذا هي عملتهم الوحيدة التي درجوا عليها . فبنسبة هبوط قيمة النقد الفضي تنقص مقدرة ستمائة مليون من البشر على المشتري وهذا مما يؤدي حتماً الى هبوط قيمة البضائع والمصنوعات الاوربية والاميركية المعبر عنها بالذهب » هذا ما قاله حاكم بنك انكلترا في سنة ١٩٢٦ اي نحو سنة بعد ما اقرت انكلترا رسمياً اتخاذ الذهب وحده دون الفضة اساساً لنقدها وبذلك فقدت الفضة قيمتها النقدية كعملة ثابتة واصبحت عرضة للتقلبات اذ بفقدان تلك الميزة ميزة النقد الثابت فقدت الفضة قيمتها المعنوية واصبحت متاعاً كباقي الامتعة خاضعاً لقاعدة العرض والطلب . وكانت النتيجة ان تدهور الروبي الهندي الى حد لم يسبق له مثيل فقد كانت الليرة الانكليزية قبل ١٩٢٥ تعادل ١٦ روبياً فاصبحت بعد ذلك بمبلغ ٣٣ روبياً . وهكذا وبالنسبة نفسها سقطت قيمة النقد في الصين وايران وباقي بلدان آسيا التي يرتكز نقدها على الفضة . ومتى تذكرنا ان معظم صادرات اوربا واميركا الصناعية تستهلك في بلدان آسيا وعلى الاخص في الصين والهند لقاء المواد الاولية والغذائية التي تستوردها اوربا من هذه البلدان تبين لنا جلياً مقدار الاذى الذي حل بتجارة الصادرات الاوربية والاميركية من جراء توقف الهند والصين وايران الخ

عن استيراد هذه البضائع الاً الشيء القليل منها . فتكدست البضائع في اميركا واوروبا وتدهورت اسعارها ولم يعد لها من مخرج للتصريف فحلت الازمة التي يقاسي العالم منها الامر ينـ والى القارىء ما قررته لجنة ما كملان الدولية في هذا الشأن

« ان السبب الاساسي للازمة العالمية هو تدهور الاسعار تدهوراً هائلاً قاتلاً للتجارة والصناعة والزراعة كأنما كل ما على الارض من عقارات ومنقولات اصبح بحس الثمن لدرجة غير معقولة . وبناء عليه لا بد حل هذه الازمة من ايجاد الوسائل الناجعة التي تؤول (اولاً) الى ارتفاع الاسعار الى مستوى اعلى جداً مما هي عليه الآن (وثانياً) الى تثبيتها على هذا المستوى ما امكن . ولا يكون ذلك ممكناً الاً اذا تهيأت للعالم الحقائق الآتية وعمل بموجبها ان نزول الاسعار او هبوط قيم الاشياء هو بالحقيقة صعود في قيمة المعدن الذي تتقايض به هذه الاشياء اي النقد الذهبي واذا قلنا هبطت الاسعار فكأننا بعبارة اخرى نعني ان قيمة الذهب قد ارتفعت . اذا عز الشيء ارتفعت قيمته وعلى الضد اذا توفّر سقطت قيمته . وحيث ان مقدار الذهب في العالم قد نقص كثيراً اذا قيس بالحاجة اليه فان قيمته قد ارتفعت هذا الارتفاع الهائل المعبر عنه الآن بسقوط اثمان الاشياء وان لجنة ما كملان تعتبر انه في سنة ١٩٤٠ يصبح الذهب نادراً بالرغم من جميع الوسائل لتوزيعه في العالم حتى انه لا يعود كافياً للقيام بالغرض المطلوب منه كعملة يتداول الناس بها . فمن الضروري والحالة هذه ايجاد طريقة اخرى تقوم بحاجة التجارة او المقايضة الدولية

ان الصين والهند والمكسيك وايران تستعمل الفضة اساساً لنقدها فمن المحقق اذاً انه اذا ثبت النقد الفضي على اساس نسبة ثابتة بينه وبين النقد الذهبي تصبح المعاملات التجارية مع هذه البلدان سهلة جداً وتزول جميع العراقيل . واذا صار من الممكن استيفاء الديون التجارية سواء بالنقد الذهبي او بالنقد الفضي على اساس نسبة ثابتة بينها نشطت ولا شك التجارة بين الشرق والغرب وانعتقت من قيودها وعادت الى مجراها الطبيعي

ان الاعتراض الوحيد على هذه النظرية هو امكان الافراط في انتاج الفضة فيما لو عاد العالم واتخذ اساساً للنقد فيصبح عرضة للتقلبات والمضاربات فلا يعود يصلح عندئذ ان يكون نقداً ثابتاً . ولكن هذا الاعتراض فاسد من اساسه لان النسبة بين ما يستخرج من الفضة وما يستخرج من الذهب لم تتغير منذ اربعمائة سنة بل في اثناء الخمسين سنة الاخيرة كانت نسبة الفضة المستخرجة الى الذهب اقل من المعتاد . زد على ذلك انه عند ما ارتفعت قيمة الفضة الى اقصى حد ممكن لم تحصل زيادة في المقدار المستخرج منه بل بقي على النسبة نفسها - والمقادير التي تستخرج اليوم من المعادن اقل من المقادير المستهلكة سنوياً . انما السبب الوحيد في سقوط قيمة الفضة في السنوات الاخيرة هو المبيع من جانب الحكومات لمقادير هائلة

من العملة الفضية التي فقدت قيمتها النقدية بعد تثبيت النقد الانكليزي على أساس الذهب سنة ١٩٢٥ . وهذا ما يحل بالذهب نفسه فيما لو فقد قيمته النقدية اي قيمته كعملة دارجة ثابتة هنا وصلنا الى نتيجة حاسمة لا جدال فيها اذا عاد العالم واستعمل الفضة مع الذهب اساساً للنقد وهي سقوط قيمة النقد اجمالاً لوفرته وهذا معناه كما بينا آنفاً ارتفاع في اسعار الاشياء التي تشتري بهذا النقد وبعبارة اخرى تسقط قيمة النقد الذهبي بنسبة ارتفاع قيمة النقد الفضي وبنفس النسبة ترتفع قيم الاشياء التي اساسها النقد الذهبي . عندئذ يستطيع الهندي مثلاً ان يشتري الكمبيو الانكليزي كما كان في الماضي بسعر ١٦ روبية لليرة الانجليزية عوضاً عن ٣٣ روبية كما هي الحال اليوم فتزداد قوته على المشتري وتعود اوربا واميركا الى تصدير بضائعها باسعار رابحة الى بلدان آسيا فتنتعش الصناعة ويقل عدد العاطلين وتعود التجارة بين الشرق والغرب الى مجراها الطبيعي . أفليس من الغباوة ان تتغاضى اليوم اوربا عما يستهلكه ستاية مليون من البشر ؟ اما النسبة الاساسية بين الفضة والذهب التي يجب تثبيت قيمة النقد الفضي عليها فان الطبيعة نفسها قد اوجدها فما من ضرورة للتفتيش عنها . ان الطبيعة قد اوجدت لنا هذين المعدنين اللذين استعملهما الناس معاً كنقد للتعامل منذ سالف العصور والطبيعة نفسها قد دلتنا على نسبة قيمة الواحد للآخر لانها تخرج لنا من الارض على معدل ١٦ اوقية فضة لكل اوقية ذهب . منذ الوف السنين من عهد الفينيقيين والمصريين والاشوريين حتى سنة ١٨٧٣ بعد المسيح عندما تركت المانيا اساس النقد الفضي واعتمدت الذهب وحده اساساً لنقدها ثم تبعها في ذلك امم اخرى — حتى تلك السنة كان مثقال الذهب يساوي ١٤ او ١٦ مثقالاً من الفضة — اما الآن فمثقال واحد من الذهب يساوي ٧٧ مثقالاً من الفضة . ناقض الناس الشرائع الطبيعية فاننقمت هذه الشرائع منهم . لعل خطورة الحالة والخطر الذي يهدد كيان المجتمع الآن والخوف من وقوع اوربا واميركا في براثن الشيوعية — لعل هذه الامور تهيب بالدول الكبرى الى التضامن معاً على قمع هذا الشر الدائم من جذوره وذلك

(اولاً) — بتخفيض الضرائب وتخفيفها عن كاهل الناس — وهذا ممكن اذا اقتصدت الحكومات في نفقاتها وعسى ان يكون مؤتمر نزع السلاح خطوة في هذا السبيل

(ثانياً) الغاء التعويضات الحربية والديون الدولية او اذا كان هذا مستحيلاً فالغاء الحواجز الكمركية بين البلدان عموماً وجميع العراقل الموجودة الآن في طريق التجارة حتى تصبح التجارة حرة طليقة فيسهل وفاء الديون اذ يصبح التبادل في الاشياء محرراً من القيود الحالية (ثالثاً) — الرجوع الى النقد الفضي ليدعم النقد الذهبي فتنتعش التجارة بين الشرق والغرب وبانتعاشها تنتعش الصناعة في اوربا واميركا ويعود العمال الى المصانع والزراع الى الحقول ولا يعود اصحاب الرأسمال يخافون من ضياع اموالهم واتعابهم فتعود الثقة بين الناس كما كانت في الماضي

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشجيعاً للاذهان. ولكن العهدة فيها يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله. ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ويراعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فنناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق. فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل. فالقالات الوافية مع الايجاز تستنار على المطولة

الحضارة الغربية وانصاف اليهود

قرأت في مقتطف يونيو الاغر مقالة ممتعة لحضرة الاستاذ سامي الجريديني بحث فيه « ميزة الحضارة الغربية » بحثاً مستفيضاً معزراً بنظريات فقهية وادلة علمية يلمع بين قرائنها ضياء المنطق والصواب. وما زلت استلهم روح هذا البحث الجليل استلهم طالب يجتهد في ان يستفيد من اطروحة جمعت في سطورها القليلة خلاصة ما وصل اليه التطور الانساني للحضارة الغربية مستمتعاً بما اورد الكاتب الفاضل من امثلة ناهضة لا تقل عن كونها عنصراً حياً من عناصر الموضوع القيمة الى ان صدمت بدليل واحد بين تلك الادلة كان اشبه بصاعقة لطارت شظاياها حمماً فوق رأس البحث السلس فشوة روحه. وقد خيم في افقه دخان فاحم يرمض الى غضب الحقيقة وثورتها على ما في هذا الدليل من شوائب تكاد تصفعها صفعاً !

اما هذا الدليل فهو حيث يقول (... يغضب اللبناني اذا جاوره ارميني واحب ان يدخل قوميته والفلسطيني تقوم قيامته اذ يرى الحضارة الحالية تنصف اليهود وتعدهم بشراً لهم ما لجميع البشر من حقوق وآمال ومطامح) !

المعروف والواقع ان مجلة المقتطف هي سجل للحقائق العلمية والتاريخية على تشعبها والنابت ان هذه المجلة هي المصباح الاول الذي انبثق منه نور حرية الفكر في ربوع هذا الشرق. وان ما يكتب فيها له من القيمة والخطر في ذاكرة التاريخ ما يحتل قنة الحقائق الراهنة الامر الذي يجعل المرور بهذا الدليل غير الموفق وصمة سوداء في جبين نهضة العرب القومية الكبرى لذلك استأذن اصحابها ان يسمحوا لي بمناقشة هذا الدليل المعوج نقاشاً هادئاً انصافاً للحقيقة والتاريخ

ليس بالجهول ان العرب ثاروا على دولة الخلافة تخلصاً من العبودية وتحقيقاً لحريتهم واستقلالهم عملاً بالسنة الطبيعية التي تفرض على كل شعب يفهم معاني الحياة ان يساهم بقسطه في توطيد دعائم الرخاء الانساني. وغني عن البيان ان شعباً ما لا يستطيع ان يقوم بهذه الفريضة الانسانية الا اذا حطم قيود الاسر ودك اركان الرجعية وكوّن له شخصية عالمية

دعائهم السيادة والحرية . وبما لا شك فيه ان العرب لم يرتكبوا اثماً في جنوحهم الى هذا المطمح الانساني الشريف الا اذا عدّ المنافع عن كرامة الانسانية اثمياً مجرمات !

ومن المهم ان يعرف العالم بأسره ان العرب لا يضمرّون لليهود عداء لمجرد كونهم يهوداً وان العرب لا يقاومون غارة اليهود على بلادهم سحراً لا ماني اليهود في حريتهم وخلاصهم الا ان الشر مهما تأدّب الانسان في تعريفه يبقى شراً لذاته اذ ليس هنالك شر حسن وشر قبيح .

ولسنا ندري اذا كانت معاني الحضارة الغربية تجيز لامة ان تسلب حقوقاً سياسية لامة اخرى بل لسنا ندري اذا كان يصح ان يسمى اغراء اليهود بقطر من الاقطار العربية لمطامع سياسية مغلوطة انصافاً لهم تتبرع به الحضارة الحالية . الا اننا نعلم علم اليقين ان تنازل شعب ما عن وطنه لشعب آخر ليس الا اعترافاً بافلاس مبادئ الحضارة وانهايار دعائم الحق والسلم اولعله من المفيد ان يسأل عن ميزة هذه الحضارة يوم قام كرمويل و اترابه في بريطانيا وفرنسا واسبانيا وايطاليا يطاردون اليهود ويشنون عليهم الغارات بسيوف كانت تقطر دماً وتسطر شرائع تجعل من اليهود شعباً احط مرتبة من ان يستمتع بحقوق الانسان اثراً من خصائصه الشاذة وتخلصاً من اخطاره الجائحة !!

اننا نؤكد لحضرة الكاتب المحترم ان اليهود لو كانوا يأتون الى فلسطين ليدخلوا القومية العربية لفتح لهم العرب الاذرع وضموهم الى صدورهم كما يضم الحب حبيبه ولكنهم آتون الينا ليفرضوا علينا جنسيتهم وادابهم ومدنيّتهم وسيادتهم ! انهم يعملون على استفكك الاراضي من ايدي العرب وقد استطاعوا بطريقة (الباس الظلم ثياب القانون) ان ينتزعوا من ايدي العرب اخصب الاراضي مما نشأ عنه وجود ٢٨ الف عائلة بدون ارض وهذا ما قاله السر هوب سيمسون في تقريره الرسمي منذ عام واحد يوم انتدب رسمياً لدرس مشكلة الاراضي في فلسطين !

ان السر هوب سيمسون يقول بوجود اقطاع هؤلاء العرب ارضاً من تلك التي اغتصبها اليهود والا فانه يتوقع محذوراً كبيراً اذ يعلن بصراحة احتمال تكرار الفتن والاضطرابات ! لان شذاذ الآفاق من اليهود قد اغتصبوا القمة من فم العرب كما اغتصبوا الارض والعمل .

فاذا يكون مصير شعب لا ارض له يقتات منها ولا عمل له يدر عليه قوته اليومي ؟ ايسبح افراده الله بكرة وعشية على ما هم عليه من نعمة أم يستوحون ذهنية الفاقة والمجاعة ؟

ان فلسطين لن تكون للعرب واليهود معاً فاما ان تبقى عربية واما ان تهوّد وهذا نزاع يكون الفصل فيه لانظمة لا قدرة لميزات الحضارة الغربية على الوقوف امامها او العمل على تغيير سير تياراتها . على ان نهاية هذا النزاع ستأتي وسط جلبة داوية تقع تبعها على من يقامر بمقدرات الشعوب والامم من ابناء الحضارة الغربية هذه الحضارة التي نجد فيها ماهو جدير باحناء الرؤوس احتراماً كما نجد فيها ما يستعذب معه المرء فدى حياته تخلصاً من شرورها وويلاتها !

فلسطين

عيسى بندك صاحب جريدة صوت الشعب

(٣٠)

مجلد ٨١

جزء ٢

الرد

قرأت رسالة الفاضل الفلسطيني العربي فرأيتُهُ يفر من المبدأ السامي الذي وصفته في رسالتي الى بحث سياسي ذي نزعة حزبية لا تليق بمن يود ان يتجرد من سياسة اليوم المادية القائمة على الانانية ويسمو الى سياسة الغد التي سيكون اهم اركانها ازالة الفوارق الجنسية بل الدينية ولو عاد حضرته الى قراءة رسالتي بامعان رأى فيها الرد على روح ما يكتبه فلا يولد التعصب الا التعصب ولا يزيد في الحق الا الاضطهاد . وانه لحري بمن يذهب مذهب حضرته في تأييد القوة والاستعانة على مذهبه بحق الفتح ان يكون القوي القوي . واما الحالة كما نرى فما اجدرنا بالمسألة ان لم يكن حباً مبداً فاختفاء للضعف سامي الجريديني

المادة والنور وآراء الاستاذ مشرفة

ان محاضرة رئيس التحرير عن رواية الالكترتون وابطالها (مقتطف يناير ١٩٣٢) ، قد بعثت في نفسي اهتماماً دفعني الى ان اتحدث الى القراء عن المادة وعلاقتها بالنور . ولقد كفاني رئيس التحرير مئونة البحث وراء المادة ، اذ انتهى في محاضرته الى انها مؤلفة من ذرات ، وكل ذرة تحوي نواة ذات شحنة كهربائية موجبة تحيط بها الالكترونات ذات الشحنة الكهربائية السالبة . وانه لجدير بي ان اثير الموضوع اولاً حتى يتسنى للقارئ ان يراه ثم اعود الى مادته فأتم نسجها اني وان بدأت بالنور فواجب ان اقول انه كان في المعتقد — وكان زعيم هذا المعتقد نيوتن — ان الضوء وهو يسير في خطوط مستقيمة ، لا بد ان يفعل ذلك في ذرات نورية يبعثها الجسم المضيء الى شبكة العين فتحس الابصار . ولكن هذه النظرية لم تصمد طويلاً امام وابل الظواهر الطبيعية التي عجزت عن تفسيرها . فتحملت مسئولية التفسير نظرية اخرى هي نظرية الامواج التي تحدثنا ان الجسم المضيء يتذبذب في مكانه ويرسل امواجاً يحملها الاثير الى العين فتبصر رغم ان نظرية الامواج كانت اكثر توفيقاً في تحليل المظاهر الطبيعية فانها لم تخل من عيوب الجأت العلماء الى اظهار النظرية الكمية لسد بعض النقص ، فذهبوا الى ان الضوء ينبعث متقطعاً في وحدات تدعى « كوانتوم » او « فوتون » ، ومثل الضوء في ذلك كمثل السيل المنهمر يرسل في قطرات ماء اخشى ان يدور بخلد القارئ ان الضوء في هذا الحال يفقد طبيعته التوجية — فانه لا يفقدها — ولا اخالني مغالياً اذا قلت ان علماء القرن السابع عشر ، وقد اعتبروا الضوء جسيمات ، وان علماء القرن التاسع عشر وقد اعتبروه امواجاً ، كلاهما خاطيء او ان شئت كلاهما مصيب ، تفادياً للنزاع ، فتارة يظهر لنا بمظهر الذرات وطوراً يتصرف تصرف الامواج لي ان اقف والقارئ هنيهة ، وقد ثبت ان النور جسيمات مضيئة متحركة مع احتفاظها بحالتها التوجية ، اقف وأساءل ، وقد قاسم النور الالكترتون حالته : أليس من العدل ان يقاسم الالكترتون

النور حاله فيصبح موجاً رغم احتفاظه بكيانه الجسيمي... نعم لقد دلت التجارب العملية الحديثة على ان هذا هو الواقع العملي. حتى من الوجهة النظرية البحتة نرى ان الحزمة من الأمواج لا ينقصها شيء من الكفاءة في ان تخضع للقوانين الطبيعية بما لا يميزها عن الالكترتون باعتبار انه جسيم. إذن يصل بنا البحث الحديث الى ان العالم امواج متلاطمة في امواج، فالنور امواج والمادة امواج جميل ان يكون النور من امواج والمادة من امواج، ولكن اجمل من هذا ان تكون امواج النور هي عين امواج المادة، وهذا المنحى من البحث هو لب حديثي الى القراء، وإن كان اصعب ما في الموضوع من حديث. اذ يتناوبني عند الكتابة عنه جملة عواطف متنازعة فيينا قلبي ينتقاد تيهاً وإعجاباً ان يكون صاحب هذا البحث استاذاً مصرياً ووكيلاً لكلية العلوم، بلغ من انتصاره ان تواضعنا في تسميته استاذ المادة والنور، اذا به يشمس انفة وألماً اذ يرى الغرب دون الشرق - وان قلت الغرب فأقصده علماءه - يتحدثون عن هذا البحث ويحمدونه في كتبهم ومجلاتهم. ولم اذهب بعيداً وبين يدي كتاب *The Mytserious Universe* لجينز وكتاب *Beyond Physics* لايفر لودج اجد في كل تلخيصاً ممتعاً جعلني في حيرة ايهما افضل حتى عزمت ان ارجع الى اصل البحث وهو منشور في اعمال الجمعية الملكية بلندن في ديسمبر ١٩٢٩ تحت عنوان « المظهر المزدوج لكل من المادة والنور » وهو للاستاذ مشرفه واخرج تلخيصاً مستقلاً وان كنت اعتقد اعتقاداً جازماً انه سيكون اقل روعة من تلخيص هذين العالمين الكبيرين بدأ بحثه بأن لعب بريشته الرياضية الحاذقة في معادلة الحركة المنتظمة لسطح الالكترتون وشكلها في صورة اخرى، ونظر الى هذه الصورة وهو منطلق بسرعة الضوء فراها وقد تحولت الى صورة موجة ضوئية، واستنتج انه لا بد وهو بسرعة هذه ان يرى الضوء مادة كما رأى المادة ضوءاً، اعني كأنه يقول ان لا فرق بين المادة والنور غير السرعة، فما المادة الا نور بطيء وما النور الا مادة سريعة

هذا هو البحث الاول وقد اهتزت له الدوائر العلمية ايما اهتزاز. اما البحث الثاني فهو لا يقل خطراً عن الاول، وقد قرىء في نفس الجمعية ونشر في مجلتها في مايو سنة ١٩٣١ فرض فيه وجود مجهولين غامضين لا يعرف كنههما، واثبت انهما لو ساعد احدهما الآخر لحكما انهما بروتون ذو شحنة موجبة، وان ما كس احدهما الآخر لذهبنا الى انهما الالكترتون ذو الشحنة السالبة، ولكن ان تعامدا - اعني ان مشى كل في سبيله، لا يعاكس ولا يساعد لرايناها نوراً اذن نخرج من هذا البحث وذاك، ونحن على يقين من ان النور من نوع المادة أو المادة من نوع النور، لا يفرق بينهما غير اختلاف في السرعة والاتجاه. وهذا ان البحثان محاولة موفقة ناجحة في اظهار ما بين النور والمادة من علاقة نأمل ان يدعمهما بحث ثالث في القريب العاجل محمود احمد الشرييني بكالوريوس في العلوم

بَابُ الزَّرَاعَةِ وَالْاِقْتِصَا

ترقية الزراعة ومنتجاتها

كتبتُ هذا البحث لمناسبة المناقشات البرلمانية حول وزارة الزراعة وأثرها في ترقية الانتاج الزراعي في اواخر مايو واوائل يونيو

الاسلوب العرفي والاسلوب العلمي في الزراعة المصرية

(١) للبلاد فلاحه اهتدى اليها الفلاحون بالاختبار جيلاً بعد جيل وتناولوها بالتهذيب والزيادة خلفاً عن سلف واستقر في عرفهم ما انتخلوه منها وتميز وعرف بالعرف الزراعي وبقواعده يستثمرون ملايين من الفدانين قبل ان توجد مدارس الزراعة ووزارتها وقد اعترف بصحته افضل المهندسين والاداريين والزراعيين من الاجانب بعد ان حاولوا العدول عن بعض حقائقه او تعديلها فأرجعهم الاختبار العملي اليها — راجع اقوالهم في مقتطف سبتمبر سنة ١٩١٦ ص ٢٧٦ ضمن مقالنا استغلال الارض

هذا العرف او الاسلوب العرفي لم يُدَوَّن منه الا قليل من كثير ولذلك كنتُ ولا ازال اقول انه — لا بد لترقية الفلاحة من البدء من الاساس وهو عمل الفلاح فنجمعه ونهذهبه — كذلك صنعت فرنسا في بدء نهضتها الزراعية

(٢) اما الاسلوب العلمي وهو ما يفيدنا اياه البحث على مناهج الاصول الحديثة فانه لا يزال « نَبَسًا لم يبرض بعد » — بأرض النبت اول ما يظهر منه « فالى سنة ١٩١٠ كان يعتبر الزراعيون الاجانب انه لا وجود له — راجع تقرير لجنة القطن في كتابي زراعة القطن الطبعة العربية بمطبعة المقطم سنة ١٩١١ — وقد ارتقت بعد ذلك مدرسة الزراعة بالجيزة الى مدرسة عليا وانشئت وزارة الزراعة ولكن تغلب الصبغة النظرية في الاولى والادارية في الثانية على المباحث الفنية عرفية كانت او علمية قصّر بهما عن العمل المجدي لترقية الفلاحة ومنتجاتها واضاع مجهودات بعض الفنيين ضياعاً ما كان يكون لو ان معرفتهم بشؤون الفلاحة والفلاحين العملية كانت غير قاصرة — راجع بمقتطف يوليو سنة ١٩١٨ انتقادنا لتجارب المستر كارترايت والمستر دوجن في ري القطن . وراجع بتقارير مجلس مباحث القطن تخطيط هذه التجارب

(٣) وفي مقطع ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٥ علقنا على النشرة الفنية لمجلس مباحث القطن عن تشريق الارض وبعد ان حبذنا ما يستحق التحبيذ فيها وراجعنا ما يستحق المراجعة منها قلنا من غير جمع العرف الزراعي يطول ويلتوي الطريق على الباحثين العلميين فتصدر عنهم مزاعم يعرف الفلاح بطلانها فيقل ايمانه بأبحاثهم الاخرى . ولا تكون لهذه الابحاث قيمتها العملية الا اذا تناولها العارفون بالفلاحة العملية ودرسوها وهذبوها واستخلصوا منها ما يفيد الفلاح العملي فائدة حقيقية . اما النشرات الزراعية التي يكتبها علماء غير مشتغلين بالفلاحة العملية وغير عارفين بالعرف الزراعي معرفة كافية فان الفلاح لا يستفيد منها فيهملها لانها غريبة عنه وهذا هو السر في عدم استفادة كثيرين منها «

(٤) ولذلك كان مما اقترحت على لجنة اصلاح التعليم الزراعي منذ سنين ان يوجه التعليم في المدارس الزراعية وجهة عملية وان يتوقف اعطاء الدبلوم لمتخرجيها على قيامهم ببحث احد الموضوعات الزراعية العملية بحثاً وافياً . هذا ما اقترحته وبالاولى ان يكون اساتذتها ممن تكونوا تكويناً عملياً او كما قال مؤلف تطور الزراعة وارتقاؤها بألمانيا « نطالب ان كل استاذ يدرس علم الزراعة يجب عليه ان يثبت في الشغل العملي حسن ادارته الخ » ص ٨٤ من الترجمة العربية للاستاذ عصام ناصف

غيطان النماذج

(٥) الزروع المصرية وصناعاتها قسمان — قسم عام يشترك في معرفة فلاحته جمهور الفلاحين في كل المناطق كل منطقة وما يوافقها لزروع القطن والقمح والبرسيم والذرة وقسم خاص تنحصر معرفته في مناطق او جهات خاصة كبعض زروع الخضروات والفاكهة وتربية الطيور وصناعة الالبان الخ وفي كلا القسمين يتفاضل الفلاحون بعضهم عن بعض في معرفة حقائق كل زرع او كل صفة واتقان العمل بها تبعاً لتفاضلهم في الخبرة والاجتهاد والقدرة والذكاء وقد انشأت الوزارة غيطان نماذج للزروع الاولى الاكثر شيوعاً ولا حاجة بالفلاحين اليها خصوصاً انه يوجد في كل قرية غيطان ممتازة باتقان الفلاحة وذكاء الانتاج وهذه الغيطان اكثر عدداً وأقرب مسافة لسائر الفلاحين من غيطان الوزارة المحدودة . لذلك كان الاجدر بالوزارة ان تقوم بانشاء محطات تجارب ونماذج لزروع القسم الثاني وصناعاته لاداعتها بين جمهور الفلاحين فينتسروا لهم الانتفاع بها واحلالها بدل ما قل من زراعة القطن بدون بطاء ولا تحبط وصعوبة كما هو حاصل الآن — لذلك اقترح العدول عن غيطان النماذج للزروع الشائعة وانشاء محطات تجارب ونماذج لسائر الزروع والصناعات الزراعية التي يحسن نشرها بين الفلاحين الآن لكل مديرية محطة على الاقل يختار لها ما هو اوفق لاقليمها من هذه الزروع والصناعات

الري

(٦) الاصل ان يكون الري تابعاً للزراعة لا ان تكون الزراعة تابعة للري ولكن الحال في مصر بالعكس لتقدم علم الري عن علم الزراعة كما يقول مؤلفا النشرة الفنية الآتية الذكر ولعله لذلك كانت الأخطاء التي أضرت بخصب الأرض وانتاجها ونذكر منها

(١) قصور الصرف عن بلوغ شأو الري وقد تواترت المشاهدات والاقوال فيه من رجال الري والزراعة معاً . من ذلك رسالتان لشفيق باشا وزير الأشغال والزراعة السابق نُشرت أحدهما بمجلة الفلاحة والآخرى بمقطم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٦

(ب) عمل مشروعات لحياء أرض موات وإهمال أرض زراعية رواتب عامرة وإنما ينقصها العناية باتمام وسائل ريها وصرفها . قلت في إحدى مذكراتي الزراعية ان من العبث ان نرى كثيراً من الأرض الزراعية مهملة او قليلة الري لقصور ريها او صرفها ثم نعمل على إضافة أرض جديدة — ليست العبرة بكثرة الفدادين بل العبرة بما يمكن عمرانه واستغلاله كما ينبغي ولذلك فان الأفضل الآن تدير ما يلزم لاتقان ري وصرف الاطيان الزراعية الحالية وهي كثيرة لاسيما وان الكلفة فيها اقل والفائدة اقرب واكثر — راجع الجزء الثاني من كتاب علم الري لحسين سرّي بك ففيه احصائيات مفيدة في هذا الموضوع وقد نشرتها في المقتطف السنة الماضية ضمن ملخص عن مشروعات الري الكبرى

(ج) وجوب التبكير بالجفاف الشتوي عن اوانه المعتاد خصوصاً انه يتوفر معه الماء المخزون بخزان اصوان كما شرحنا ذلك بمقطم ٧ مايو سنة ١٩٢٢ ومقطم ١٣ اكتوبر سنة ١٩٢٩

(د) تمكين المزارعين من الانتفاع بمياه الفيضان الجراء حتى لا تحرم منها الأرض بينما هي تضيع هدرًا في البحر الابيض المتوسط كما شرحت ذلك بمقطم ١٩ اغسطس ١٩٢٢

(هـ) تمييز الجهات البحرية بالتبكير في طي الشراقي كما شرحت ذلك بمقطم ٢٨ مايو سنة ١٩١٧ الخ الخ الخ

(٧) — ان المثل الاعلى الذي نبتغيه في الري أن يتيسر وجود المياه حسب حاجة الأرض والزرع فلا مناوبات طويلة يظلم معها النبات ولا تحاريق — منسوب واطي للمياه — يكفينا الروافع ولا حظر او تقييد يحول دون زراعة الارز زراعة بكيرة او تحرم منه منطقة تحتاج اليه او يتأخر طي الشراقي للذرة عن موعده المناسب او يحول دون تنييل الأرض في فصل الفيضان وأن تكون المصارف كافية لتجفيف التربة وتخفيض مستوى النهر «الماء الأرضي» وان يكون صرف الفيضان فيها بالراحة الخ الخ الخ

حالة الفلاح

(٨) يزعم البعض ان الفلاح كسول عن فلاحه ارضه كما ينبغي . كلاً إنه مريض تضعفه البلهارسيا والانكلستوما والملاريا والانيما وسوء التغذية والسكن والملبس والمكيفات واشدها فتكاً به الهرون وفصيلته الجهنية ولا اكاد اذكر هذا الا واذكر معه اعتراضى على حظر زراعة الخشخاش (الافيون) الذي اقره البرلمان منذ بضع سنين فقد نشرت حينذاك رسالة بالمقطم قلت فيها انه لم توجد امة من الامم في كل زمان ومكان إلا ولها مكيفات واقل هذه المكيفات شرّاً ما تعودته فاذا حظرنا زراعة الافيون وهو زراعة وطنية حل محلها الهرون وما اشبهه وفضلاً عن انه اشد ضرراً فانه بضاعة اجنبية يذهب ثمنها من جيوبنا الى جيوب الاجانب وقد صح ما توقعته حتى ان رسل باشا حكامدار القاهرة راعه انتشار الهرون وشدة فتكه بالجمهور فاقترح اباحة تدخين الحشيش في مستعمرات خاصة فينصرف الجمهور عن الهرون اليه ولو عرف الحكمدار ما نعرف من احوال الفلاحين الاجتماعية والصحية وتقاليدهم العرفية لطلب اعادة زراعة الخشخاش — وبعض الشر اهلون من بعض — والقارىء الذي يعرف أن باعلي الصعيد منطقة لزراعة الخشخاش يرى انا لم نخرج بهذا الاستطراد عن موضوعنا — ترقية الانتاج الزراعي !!! ونعود لتحسين حالة الفلاح الصحية فنقول انه تجب العناية بالاستكثار من المستشفيات الثابتة والمتنقلة لعلاجيه وايجاد دعاية صحية شاملة واذاً يتعافى الفلاح فيقوى وينشط ويزيد إنتاجه

(٩) يزعمون ان الفلاح جاهل بفلاحته . كلاً . إنه خلص من المعارف الاولية التي تنير ذهنه وتصيره خيراً مما هو فهماً ومميزاً وإذاً يمكنه أن يرفع مستوى عمله في فلاحته ومعيشته — فلنستعلمه القراءة والكتابة ومبادئ الصحة والحساب وقواعد الدين والآداب ولنحسب اليه الفلاحه ونقص عليه ما بلغه فلاحو البلاد المستنيرة في ترقيتها والاستفادة منها لا ان نلسمز به بلفظ فلاح كأنه من ألفاظ التحقير !!!

(١٠) ان ازدياد ريع الارض لا يتوقف الآن على شيء بقدر ما يتوقف على اصلاح حال الفلاح صحياً وادبياً كما اسلفنا ومالياً ايضاً فلنساعدنه على الحصول على افضل البزور والاسمدة والآلات والمواشي ايضاً وعلى بيع محصوله بالثمن المناسب في الوقت المناسب وعلى اتقان العمل بما يعرف ومعرفة ما يجهل من شؤون الفلاحة وصناعاتها حتى يزيد كسبه ومهارته لاسيما وانه يشتغل هو وزوجته واولاده فاذا تعددت نواحي العمل استطاع كل منهم ان يأخذ بناحية من نواحيه — راجع بمجلدات المقتطف سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٧ مقالنا « استغلال الارض — اركانه وكيفياته » ففيها ابحاث مسهبة عن الفلاحين ومواضع القوة والضعف فيهم وما يحتاجون اليه لاصلاح احوالهم الادبية والزراعية — وفيها ايضاً ابحاث عن موضوع الفصل التالي

الملاك

(١١) اهل كبار الملاك الوطنيين العناية بالفلاحة سواء كان بمجهلهم أو عدم تعليم ابنائهم اياها أو تفضيل الإقامة بالقاهرة أو خدمة الحكومة على الاستقرار في مزارعهم أو الاشراف على ادارتها والمثل الزراعي القديم يقول «الضيعة لصاحبها أو في ظلك أعمر» أو بسوء تقديرهم لموظفيها وكان لا يزال كثير منهم يحسب ان ادارة المزارع لا تستدعي ما تستدعيه الادارات الاخرى من ضروب الكفاآت الفنية والادبية على تفاوت بينهم في ذلك ففريق منهم على ان معرفة الفلاحة ليست شرطاً ضرورياً في مدير الزراعة كانه يمكن ان يحسن انسان ادارة شيء يجهله وفريق آخر على انه في معرفة الفلاحة وحدها الكفاية لادارة شؤونها بلا تقدير يؤبه به للكفاءات الادبية والاخلاقية التي يجب توفرها في كل من تعهد اليه مهام اي عمل كان القواعد الفنية يصدر تديرها عن نفس عارفها مجرداً عن العوامل الاخرى كجودة النظر في تكييفها حسب المناسبات وتمييز متشابهاتها وتقدير ملاسباتها والهمة والنزاهة في تطبيقها الخ الخ وكل ذلك من اسباب ضعف الانتاج الزراعي ومعلوم ان الاطيان المملوكة لكبار الملاك تبلغ نسبتها اكثر من ٤٠ ٪ من اطيان الاهالي

المعارف الزراعية

(١٣) هناك اهمال فاضح في نشر المعارف الزراعية ومغلقاتها ووضعها وضعاً يسهل استفادة الجمهور منها — ترى ذلك في اسلوب كثير من البحوث وزارة الزراعة وغلاء اثنائها وفي عدم عناية الجرائد والمجلات بالابحاث الزراعية فانها تفضل عن نشر ابحاثها نشر كلمة من شوارد اللغة أو حنطة وداع موظف أو خلاف زوج وزوجة والادهي من ذلك نشر ما لا يفهم حتى لتكاد تكون قراءته طرداً كقراءته عكساً

وبعد فان ترقية فن الزراعة واذاعته وتكثير الانتاج الزراعي وتجويدته لا يتوقف على مجهود وزارة الزراعة وحدها فانها وان كان يجب ان تكون زعيمته الا انه لا بد من أن تتعاون معها مصلحة الري والصحة ووزارتا المعارف والمالية وكبار الملاك وجمهور الفلاحين والصحافة. ولقد التزمت في مقالتي هذا الاختصار التام فان مواضيعه وان وجهتها نحو غرض واحد هو الانتاج الزراعي فان كل واحد منها مستقل بذاته يقتضي ابحاثاً خاصة مسهبة

مكتبة المقتطف

امراء الشعر العربي

في العصر العباسي

دراسات تحليلية لادب سبعة من اشهر شعراء العرب والجو الذي نشأوا فيه
تأليف انيس المقدسي — استاذ الادب العربي — في جامعة بيروت الاميركية

نحسب — ولا نغالي في حسابنا — هذا الكتاب من افضل الكتب الادبية التي اخرجتها المطابع العربية في بضع السنوات الاخيرة . فلشعراء العصر العباسي مكانة فريدة في تاريخ الادب العربي ويكفي ان نذكر الشعراء الذين اختارهم الاستاذ المقدسي موضوعاً لدراسته — ابو نواس وابو العتاهية وابو تمام والبحري وابن الرومي والمتنبي والمعري — ليكون ذلك مغرياً للباحثين والقراء بالعناية به عناية خاصة . فاذا تصفحنا فصوله ورأينا سعة الاطلاع في ايراد الروايات المختلفة عن أئمة الناقدين والباحثين ، وصفاء الذهن في تحليلها وضرب الامثلة عليها، واتزان الحكم في ترجيح رأي على رأي او استنباط رأي جديد، عرفنا اننا لسنا امام كتاب عادي مما تقذفنا به المطابع كل يوم . انه كتاب استاذ !

ولم يشأ الاستاذ المقدسي ان يفاجئ القارئ مفاجأة بدراسة الشعراء الذي امرهم على الشعر في العصر العباسي . بل عمد — وحسناً فعل — الى وصف العصر العباسي وصفاً مجملًا في نحو ٨٠ صفحة من الكتاب فتناول التنافس بين العناصر الجنسية ولا سيما تنافس العنصرين العربي والفارسي وضعف الخلافة وتجزؤها الى امارات مستقلة واثّر ذلك في شعر ذلك العصر قال: — «وكان من نشوء هذه الدول في العالم الاسلامي ان الادب تحول عن بغداد الى مراكز اخرى فكان الخليفة الراضي الذي بويع سنة ٣٢٢ هـ آخر خليفة دور له شعر وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمته وحجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين (الفخري ٢٠٦) ومعنى ذلك ان العرش العباسي لم يعد الموئل الاكبر للادب والادباء وانه نشأ في الامارات المستقلة حواضر زاحمت بغداد في الشعر والعلم منها بلاط سيف الدولة في حلب وتلك الحلقة الادبية التي كانت تحيط به مثل ابن خالويه وابن نباتة وابي فراس والمتنبي والفارابي . . . وبلاط آل بويه ومن اتصل بهم كابن العميد والصابي والصاحب بن عباد . . . الخ وهذا التنافس على الادب

(بين امرء الامارات المختلفة) يفسر لنا تلك الظاهرة التاريخية الغربية — استمرار الادب العربي مع ضعف العرب وذهاب السيادة من ايديهم — ومن اشهر رجال الادب والفكر في ذلك العصر ابن سينا الطبيب الفيلسوف والبيروني الفلكي والجوهري صاحب الصحاح وابن فارس اللغوي وابن دريد صاحب الجمهرة والمسعودي المؤرخ وابن مسكويه المؤرخ والفيلسوف وابن البيطار النبائي . اما المدن التي شاركت بغداد وزاجتها فمنها مصر وحلب ودمشق وقرطبة واشبيلية والقيروان وخوارزم ونيسابور وبخارى

ثم فصل تطور الحياة الاجتماعية العربية الذي بلغ اوجه في العصر العباسي بنشوء قومية عربية جديدة على اثر دخول شعوب البلدان التي فتحتها المسلمون في حظيرة الدعوة الاسلامية ، وازدهار عمران بغداد وسواها من الحواضر ، واتساع الثروة وازدياد الترف ، وترعرع النهضة الفكرية العامة . ولكل من هذه الظواهر الاجتماعية اثر بليغ في الشعر العربي فنشوء القومية الجديدة مثلاً بالامتزاج والاختلاط والانضمام ادخل على اللغة العربية الفاظاً جديدة . ففي الشام كان الروم والسريان واليهود . وفي العراق الاراميون والفرس . وفي مصر الاقباط وسواهم في سوى ذلك — واكثر الالفاظ المقتبسة اما يونانية او فارسية . اما اليونانية فراجعة الى حياة اليونان العلمية والفلسفية — واما الالفاظ الفارسية فمعظمها اجتماعي — قال : « وقد تحررنا اكثر من مائة لفظة عربية فارسية الاصل فوجدنا اكثرها من باب المأكل والمشرب والملبس والفرش والملهي بين الادوات المنزلية والصناعية » وكلا الطائفتين من الالفاظ دليل على الناحية التي اختلط فيها العرب باليونان من جهة وبالفرس من جهة اخرى وعلى هذا النحو يمضي المؤلف في درس الحياة الاجتماعية من ناحية اثرها في الادب والشعر ، ثم يتحول الى « مجاري الحركة الفكرية » مبيناً ان المصادر الرئيسية هي اليونان وفارس والهند : قال : « ليس للحركة الفكرية في امة من الامم منبثق خاص تتدفق منه تدفق الينابيع من جوانب التلال . بل هي كسيول الاودية تملؤها المياه القليلة المنحدرة من هنا وهناك فلا يلبث ان تصير عجاجة شديدة الشكيمة . كذلك حياة العرب الفكرية ، كثيرة الاصول متشعبة الروافد ، وهيئات ان نحاول الآن البحث عن كل اصل وكل رافد منها فانها متصلة بظلمات يتيه فيها الاستقراء العلمي والقياس المنطقي »

وحبذا لو عني في هذا الباب في اثناء الكلام عن المصدر اليوناني بايضاح ان حركة الترجمة من اليونانية الى العربية لم تتم مباشرة ، وان معظم المؤلفات العربية التي تسند الى اصل يوناني انما نقلت عن ترجمات سريانية في الغالب . نعم انه اشار صفحة ٦٣ سطر ٦ الى ذلك ولكن الاشارة بحجة مهمة لا تغني عن الايضاح

ما تقدم يرسم للقارئ صورة مجملة شديدة الإيجاز للقسم الأول من الكتاب. أما القسم الثاني فيبدأ بفصل في خصائص الشعر العباسي تليه الفصول السبعة الخاصة بالشعراء الذي اختارهم موضوعاً لبحثه وقد مر ذكرهم

في رأس الصفحة الثانية من هذا الفصل حكم المؤلف يصح أن يعتبر أساساً لبحثه. فبعد أن يبين أن الشعر نوعان رئيسيان وجداني وموضوعي — فالوجداني يدور على نفس الشاعر والموضوعي على شيء خارج من نفسه يقول: « وانت اذا رجعت الى معظم دواوين الشعر في العصر العباسي ثم دقت في المقاييس الأدبية التي وضعها علماء البلاغة ونقده الشعر امثال الجرجاني والعسكري والامدي والثعالبي وقدامه والاصفهاني وابن الاثير واضرابهم رأيت ان التجدد في العصر العباسي لم يتعد في الاغلب صناعة الشعر وأنه منحصر في الوجداني منه وهو يظهر في ثلاثة مظاهر — رقة العبارة والتفنن في المعاني والتوفر على البديع اللفظي وقد يضاف إليه التوسع في المصطلحات اللفظية. ثم يستثنى من ذلك الناحية الروحية فيقول « على أنه من الانصاف ان نقول ان الشعر المولود يمثل لنا ايضاً تجدداً في الناحية الروحية من الشعر ناحية الزهد والورع والاصلاح » وقد غني بهذه الظاهرة عناية خاصة لدى البحث في شعر أبي العتاهية

ويلى ذلك شرح كل من هذه الظواهر وضرب الامثال الكثيرة عليها من شعر ذلك العصر

الى هنا وقفنا الكلام على ثلث الكتاب الاول. اما طريقة دراسته لكل من الشعراء الذين اختارهم للأمانة في العصر العباسي فقد تبينها قراء المقتطف في الفصل المسهب الذي نشرناه في مقتطف ابريل ومايو هذه السنة عن « ابو تمام » وقد خرج فيها على المؤلف في ايراد سيرة الشاعر ونوادره الى تبين أثر حياته في شعره وفكره واستخراج الحقائق العامة التي يمتاز بها انتاجه الشعري

وقد يسأل البعض لم اختار المؤلف هؤلاء الشعراء دون غيرهم؟ والجواب قوله: « يختلف الباحثون في من المقدم من شعراء العصر العباسي. ولا سبيل الآن الى البحث في اختلافاتهم والنظر في اسبابها فلكل نظره الخاص ولكل آراء يدعمها بحجج مقبولة. على اننا قد اخترنا لدراستنا سبعة هم بلا جدال اشهر المولدين. وقد يجدر بنا ان نضيف اليهم ابن الفارض ولكننا تركناه لرسالة خاصة تتناول عهده واسلوبه. وخصصنا هذا الكتاب بهؤلاء الشعراء الذين يمثلون في انفسهم وشعرهم حضارة العصر العباسي افضل تمثيل »

وقد غني المؤلف بذكر المصادر التي اعتمد عليها في دراسة كل شاعر في صفحة على حدة

في صدر كل رسالة ، وهي تشمل أهم المراجع التاريخية والادبية قديمة وحديثة . ولكنه لم يفرد هذه الصفحة — كما يفعل بعض المؤلفين — ليفر من تبعة الاسناد اليها اسناداً دقيقاً في المتن . فانت ترى اذ تقلب صفحات الكتاب ، هوامشها مشحونة بالاسناد الى المصادر التي اعتمد عليها . ثم انه الحق بكل فصل مختارات من شعر الشاعر
فالكاتب في الواقع ثلاثة — رسالة موجزة في العصر العباسي وسبعة فصول في سبعة من امراء الشعر فيه وديوان مختار من شعرهم

اشعة وظلال — الصناعات الزراعية

— ديوان — — مجلة —

قد يستغرب القارئ اذا قلنا له ان صاحب المجموعة الشعرية الموسومة « اشعة وظلال » هو صاحب المجلة العلمية التي اسمها « الصناعات الزراعية » ولكن الدكتور ابو شادي قد عودنا مثل هذه الغرائب فقد اصدر في خلال بضع سنوات كتاباً طبياً ضخماً دعاه « الطبيب والمعمل » وديواناً ضخماً سماه « الشفق الباكي » وكتاباً في « مبادئ النحلة » ومجلتين احدها « مملكة النحل » والثانية « الدجاج » . وهو الى ذلك بكتريولوجي يقع على عاتقه عبء جانب كبير من البحث البكتريولوجي في مستشفى الامراض العفنة بالقاهرة
فنحن نرفع قبعتنا — على حد التعبير الانكليزي — او ننحني باحترام لصاحب هذا الذهن الفياض يدعمه دأب يصح ان يكون مضرب الامثال

اما « اشعة وظلال » فمجموعة من قصائد ابي شادي الحديثة في مطالب متنوعة . فمنها طائفة كان ينشر بعضها تحت عنوان « شعر التصوير » . وطريقته فيها اختيار صورة رسام مشهور ووصف اغراضها في قصيدة عربية . وفي هذه القصائد كثير من المعاني الجديدة والصور الشعرية الفاتنة . ولكن القصائد في الغالب فارة لا تثير النفس ، ولعل ذلك سببه ان معظم الصور غربي يمثل نواحي من الحياة الغربية لا تسترعي عنايتنا ، ولعل الشاعر في وضعها يستوحي عقله أكثر مما يستوحي شعوره المتوهج إعجاباً بها . وافضل من ذلك لو تصور الشاعر صوراً ووصفها شعراً اذن لجاءت وليدة خياله وشعوره وعقله معاً ، فتم له بذلك عناصر الشعر السامي

ثم طائفة — وهي قليلة — من الشعر المترجم عن الانكليزية أو الفرنسية . وفي الحالين نفضل الترجمة النثرية على الشعرية . فللدكتور ابو شادي مذهب في الترجمة الادبية يقوم على

الترجمة الحرفية وهو واجب في النثر الادبي. ولكن اذا جئت تقيد الترجمة الحرفية بقيود الشعر العربي افضى الى ذلك الغموض ، وهو المسحة الغالبة على القصائد القليلة المترجمة اما الطائفة الثالثة فتلمس فيها نفس الشاعر وقد ارسلت على سجيبتها فيرتفع على اجنحتها الى مستوى الاجادة العالي. خذ مثلاً قصيدته التي ردّها على الاستاذ النشار (صفحة ١٨ — ٢٢) فانها من عيون الشعر ، ويجب ان تقرأ كاملة . والمقطوعة « دنياي » صفحة ٤٦

يا وجهها ان فيك الحسن مشتعلًا والطف ممتلأً والحب مجتمعا
يا ثغرها ان فيك النور مؤثلقًا والعشق محترقًا والسحر مطلعًا
يا شعرها ان فيك الموج مضطربًا والليل محتجبًا والصبح ممتعا
يا صدرها ان فيك الوعد منتهيًا والعطف مزدهيًا والبر متسعا
يا صوتها ان فيك الوحي منبثقًا والشعر مندفعًا والفن مبتدعا
روائع هي لي الدنيا باكملها ولن اقيس بها خلدًا وما جمعا
وقوله في قصيدة الوعود صفحة ٨٩

لتعبث بي الاقدار ما شاء حكمها فأنني لصبار وان انا عانيتُ
وما خوفي الا عصار بعد هبوبه اذا انطفأ المصباح واندلق الزيت
واي جسيم بعد اخشى لهيبه اذا احترقت نفسي كما احترق البيت
وقوله في رثاء فوزي المعلوف

فالعبقريه لا محلّ لكنّها ابدًا وليس جلالها لغناء
كلّ الجمال مطوّع لجمالها كلّ الوجود يخصّصها بدعاء
تحيا وتفتي ، والحياة وضدها سيان في ملكوتها المتناهي

اما مجلة « الصناعات الزراعية » فاسمها دليل عليها وهي من المجلات التي تحتاج اليها مصر كل الحاجة . فمصر « ليست جديرة باستقلالها الاقتصادي فقط ، بل بتفوقها في الصناعات الزراعية تفوقاً يسمح لها بالتصدير والسيطرة على جانب غير قليل من الاسواق الخارجية . ولكن هذا لن يتحقق بغير الهمة الفعالة والسعي المتواصل ونشدان الكمال في الانتاج والتصريف — وهذه هي رسالة المجلة . . . » نقلاً عن افتتاحية العدد الاول صفحة ٢

فرحب بهذه المجلة المفيدة وتتمنى لها النجاح في خدمة البلاد

صور جديدة من الادب العربي

اطلع قراء المقتطف على فصول هذا الكتاب لما نشرت تباعاً في المقتطف ، وعلى مقدمة الدكتور طه حسين له ، التي نشرناها في مقتطف يونيو الماضي . فنشكر المؤلف — كامل كيلاني — عنايته بجمعها في كتاب يجب ان يكون في خزانة كل اديب عربي

الخطرات (١)

كتاب أدب وأخلاق واجتماع بقلم الآتسة وداد سكا كيني
من يقرأ هذا الكتاب يرى ان الآتسة وداد نموذج صالح من فتيات العرب الصالحات ،
فهي تدعو الى التهذيب العام ، والى تهذيب الفتاة بوجه خاص ، على وجه يتفق مع مصلحة
الامة والبلاد وآداب ارثنا الصالح . وقد جرت في ميادين من الادب والحكمة والاخلاق
والتربية كانت فيها مجلية . وها انذا اعرض على القارئ الكريم نماذج قليلة من هذه المقالات :
ترى الآتسة النافذة — في مقال العظيمة — ان العظيمة الحق لا يجوز ان يقال الا لناطقة
له اثره الطيب في الحياة من رجال الاختراع والفن والفلسفة والادب وغيرهم ممن يترك في الناس
اثراً له قيمته وله خطره ، وللناس جناه وفائده

وترى — في مقال الادب العربي — انه لا يحدد فضل الآداب القديمة الا كل جاهل بها ،
او متذوق منها ما لا يروي غلة . ولكنها تريد من ادباء اليوم ان لا يكونوا نسخة عن تقدمهم من
السلف ، بل يجب عليهم ان يكونوا ابداعاً يمثل اخلاقنا وحياتنا ، كما مثل من قبلهم اخلاقهم وحياتهم
وترى — في مقال الانانية — ان الانانية من الطباع الانسانية ، فهي لا يمكن استئصالها
لكن في الامكان تهذيبها حتى تكون معتدلة وحينئذ لا تكون بغيضاً ولا ممقوتة ، لانها
والحالة هذه — من مقومات الحضارة والعمران والارتقاء

وترى — في مقال تطور المرأة — ان المرأة العربية كان لها مقامها الرفيع عند العرب في
الجاهلية . واعتذرت للعربي الجاهلي عن قسوته احياناً ، وحملت ذلك منه على الحب الشديد
لهذا الجنس . وما زى هذا مما يغفر له سيئاته . وقد تناست الآتسة كثيراً من العادات السيئة
التي كانت تحط من مقام المرأة في ذلك العصر ، حتى جاء الاسلام فحضر بكل تلك العادات
الممقوتة وجوه اهلها ، ورفع المرأة على عرش الحرية الصحيحة ، واعطاها من الحقوق المشروعة
ما تقصر عن بعضه امرأة اوروبية اليوم

وترى — في المقال نفسه — ان العرب ، بعد ان اختلطوا بغيرهم من الامم تسربت اليهم
من اخلاقها ما لا يتفق والكرامة العربية ، وسرى من ذلك شيء الى المرأة العربية ، فتبدلت
اخلاقها وانحط مقامها فكل ما زاه بعد ذلك ، الى يومنا هذا من تأخر المرأة العربية ، لم يكن
ارثاً عربياً ولا اسلامياً ، وانما هو آثر عن طريق غير عربية ولا اسلامية

ورأيها في المقال معتدل ، فهي تنقم على المرأة هذا الارث البالي ، وتريد منها ان تتجدد
تجدداً يلائم روح العصر والبيئة بلا افراط ولا تفريط . وتنقم على من كسروا وكسروا قيود
الحياء والشرائع ، اولئك الذين يريدون ان تنغمس المرأة في هذه المدنية الاوربية بلا قيود ولا

شرط . وترى ايها القارئ . الكريم ، هذا واضحاً ايضاً في مقال « اصلاح المرأة »
وترى الأنسة الفاضلة — في مقال الجرأة الادبية — ان هذه الجرأة ضرورية لكل مجتمع
اذ لولاها لظل المجتمع في خموله وضلاله ، ولولا المصلحون في كل امة ، الذين يجارون بالحق
ويصدعون بالصدق ، لم تقم لامة قائمة وضربت على ذلك مثلاً شيخنا الامام المرحوم « الشيخ محمد
عبد » ووصفت ما قام به من الاصلاح والدعوة الى النهوض والتجدد في سبيل الحق وصفاً صادقاً
واذا قرأت مقالها « ذكرى النبي » رأيت ما تحمله هذه الفتاة في قلبها من الشعور الديني
الصادق الخالص من شوائب البدع والخرافات التي ألصقت بالاسلام وهو منها بريء . ورأيت
ما في نفسها من الاكبار والاحلال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . فقد وصفت ما قام به الرسول
من جلائل الاعمال ، وكيف صبر في سبيل الدعوة الى الحق صبر الجبال على النوازل ، حتى بلغ
ما يريد من هداية قومه

واني اجتزى بما كشفت عنه من المقالات التي ذكرتها عن اظهار ما في المقالات الاخرى من
روائع المعاني الجليلة ، حباً للاختصار ، لان ذلك يقتضي صفحات كثيرة لا يتسع لها صدر
هذه الكلمة . وما على القارئ الكريم الا ان ينعم النظر في هذا الكتاب كله ، فيرى فيه من
الموضوعات الجليلة المفيدة ما يدعو الى نشره واذاغة فضل مؤلفته التي تستحق كل اكبار واجلال
الفرق الاسلامية

للاستاذ البشبيشي المدرس بدار العلوم

لعل ديناً من الأديان السماوية لم يرزق كثرة الفرق فيه كما رزق الدين الاسلامي ولقد
كانت هذه الفرق المتعددة موضع سخط الجمهور من المسلمين ومحل المقاومة من الخلافة
الاسلامية . الا انها بالرغم من ذلك استطاعت ان تكون حلقة من حلقات التفكير الاسلامي
واستطاعت — على الرغم من اضطهاد الرؤساء — ان تكون لها انصاراً واتباعاً
ومن المحقق ان هذه الحركات الفكرية في الاسلام هي اثر من آثار اتصال المدنية الاسلامية
بالفلسفة الاغريقية عن طريق السريان . والحكمة الهندية والديانة الفارسية
وحبذالو تكلم مؤلف الفرق الاسلامية عن هذا الاتصال ورد هذه الآراء الى النبع
الذي استقت منه فان بحثه يكون بذلك اتم وأوفى

وكنا نود لو ان الاستاذ البشبيشي تكلم عن هذه الفرق من غير تعرض للرد عليها مثل
هذه الآراء لا يكفي للرد عليها بضعة سطور كما فعل المؤلف . الا اذا احب ان يثبت لنا انه من
اهل السنة . ويقول الاستاذ عن وحدة الوجود انه مذهب احده متأخرو الصوفية . والواقع
انه مما قال به اوائهم . واول من قال به ابو يزيد البسطامي المتوفي سنة ٢٦١ هـ . الا ان كلام
البسطامي في الحلول وهو الخطوة الاولى من وحدة الوجود . بهذه المناسبة نذكر ان جوته

شاعر المانيا العظيم كان حولياً وله قصيدة يقول فيها

الله لا يرضيه هيمنة فوق الطبيعة من اعاليها
الله يرضى ان يكون بها في ظاهر منها وخافها
ان الطبيعة فيه ماثلة وكذا نراه ماثلاً فيها

وللشاعر « شلي » ابيات في مثل هذا المعنى

ان جمع هذه الفرق المتعددة في كتيب واحد هو عمل يشكر عليه الاستاذ البشيشي
وهو يفيد كل مشتغل بتاريخ التفكير الاسلامي
محمد عبد الغني حسن

تفسير الالفاظ الدخيلة

وضع القس طوبيا العنيسي الحلبي اللبناني كتاباً مفيداً لعلماء اللغة جمع فيه ما عثر عليه
من الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية وذكر اصلها بحروفه . بدأ سنة ١٩٠٩ يجمع شمل الالفاظ
الدخيلة في اللغة العربية والالفاظ الغريبة المنتشرة في الايطالية واخواتها من لغات اوربا ثم
نشر ما اجتمع لديه . وفي سنة ١٩٢٢ نشر باللسان الايطالي الالفاظ العربية الفاشية في اللغة
الايطالية وحدها . وفي اثناء بحثه عثر على الفاظ يسميها صاحب المعجم فارسية مع كونها يونانية
واخرى يزعمها يونانية الاصل وفارسيته ظاهرة . فعمله هذا على جمع نحو الف لفظ انساب
الى اللغة العربية قديماً وحديثاً من لغات مختلفة . ورغبة في الضبط والوضوح رسم الالفاظ
الفارسية والتركية والارامية والعبرانية بحروف عربية ووضعها بين قوسين . اما الكلمات
اليونانية والاوربية فكتبها بأحرف لاتينية . ومن الالفاظ التي استرعت نظرنا

اثيل — يوناني esthlos معناه نزه الخلق وشريف

افة — في اليونانية ogkos معناه وزن وثقل

بارجة — ايطالي fregata وهو اسم طائر مائي سميت تلك السفينة باسمه وقد بطل استعمالها الآن

باقة — فرنسي bouquet معناه ضمة زهر مرادفة طاقة من ربحان وزهر

ببر — فارسي (ببر) يراد به نمر هندي

برج — يوناني Pyrgos معناه حصن

بنادورة (وهو الاسم العامي اللبناني لطماطم) ايطالي Pomodoro اي تفاح ذهبي مركب

من Pomo تفاح و d'oro من ذهب واسمه في الاسبانية tomate و (منه طماطم)

تابوت عبراني (تَبَّه) وهو صندوق خشب

جادة — فارسي (جاده) معناه الطريق العظيمة اي المفتوحة

جوخ — تركي (جوخه) وفي الفارسية (جوخا) وهو نسيج من صوف صفيق

وهكذا — وقد عني بنشره الشيخ يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب بالجملة

الطويلة في التدريس مودعاً ايها كل ما دلته تلك الخبرة على شدة الحاجة اليه ، مراعيًا حالة العصر ومقتضياته ، فلم يثبت فيها الا ما لا يمكن الاستغناء عنه من الآراء والتفاصيل ، ومتبعاً في ايراد القواعد احدث الاساليب وايسرها متناولاً ، ومعولاً فيها على الاكثار من التمرينات التي يتمكن بها الطلاب من تطبيق ما يدرسونه من القواعد في الاستعمال

﴿ كتاب الاغاني ﴾ اخرج القسم الادبي في دار الكتب المصرية الجزء الخامس من كتاب الاغاني تأليف ابي الفرج الاصبهاني في ٤٣٤ صفحة كبيرة ومائة صفحة من الفهارس للاعلام والقوافي والامم والقبائل والكتب والموضوعات. وغني عن البيان ان هذا الجزء ككل ما تخرجه دار الكتب بالغ الغاية من اتقان الطبع وجودة الورق . وفي هامش كل صفحة تحقيقات ادبية ولغوية تجعل هذه الطبعة تحفة ادبية نفيسة

﴿ ذكرى الامير فؤاد ارسلان ﴾ كان الامير فؤاد من اعلام لبنان محتداً وعلماً ووطنية ففقدت الامة اللبنانية بفقده قطباً من اقطاب الوطنية الصحيحة والحرية السياسية في عهد الجمهورية اللبنانية . وهذا الكتاب يجمع ما قيل فيه — في مآثمه واحتفال اراحة الستار عن تمثاله — من قصائد وخطب ومقالات آتتها كلها رسالة لابن عمه الامير شكيب ارسلان فانه صور فيها نفس الفقيه ومناقبه البالغ تصوير

﴿ طريقة منسي ﴾ نشرة نصف شهرية يصدرها احمد افندي ابو الخضر منسي للطلبة المصريين وجميع الراغبين في تعلم اللغة الفرنسية. وشعارها من عرف لغة قوم فقد صار منهم. وعماده فيها تصوير الالفاظ الفرنسية للمبتدئين بحروف عربية رسمًا دقيقاً طبقاً لقواعد وضعها وجرى عليها . وكل عدد منها يشتمل على صحيفة العبارات السهلة مع تصويرها وترجمتها. وصحيفة الحكايات القصيرة مع تصويرها وترجمتها كذلك. ثم صحيفة الاجرومية. وصحيفة المحادثات وصحيفة المطالعات وفيها مختارات طيبة من الصحف الفرنسية وكتب الادب الفرنسي ، وجني الفائدة من هذه النشرة موقوف على اتقان الطريقة التي تصور بها الالفاظ الفرنسية بحروف عربية . فخذالو غني المؤلف بتنظيم فرق لتعليم الراغبين هذه الطريقة لكي يسهل عليهم الاستفادة من اعداد نشرته المتوالية

﴿ سلم اللسان ﴾ سلسلة كتب يتدرج فيها الطالب في درس قواعد اللغة العربية صرفها ونحوها وبيانها ، منتقلاً من المبادئ الى ما هو ارقى حتى يأتي على كل ما يحتاج اليه منها وهو سائر على اسلوب واحد وطريقة واحدة ولا يخفى ما في ذلك من توفير المشقة عنه وتسهيل الاستفادة عليه . وضعها العالم اللغوي جرجي شاهين عطيه في خمسة اجزاء :

الاربعة الاولى منها في الصرف والنحو والخامس في البيان . وقد بناها على خبرته

بَابُ الْاِخْبَارِ الْعِلْمِيَّةِ

تخطيم الذرة واطلاق قوتها

غاز الهليوم وإذا فللمادة تحولت من شكل الى شكل آخر. وثمة ماهو اهم من تحولها، وهو ان الطاقة الكامنة في ذرة الليثيوم انطلقت مع دقيقتي الفا. والواقع ان طاقة انطلاق ذري الفا تعدل ١٦ مليون فولط، مع ان الطاقة التي اطلقت بها البروتونات على ذرات الليثيوم لا تزيد على ٦٠٠ فولط. والسبب الذي يحول دون استعمال هذه الطريقة لتوليد الطاقة بتحويل المادة ان البروتون المنطلق لا يصيب ذرة الليثيوم ويحولها كما تقدم الا بنسبة ١ الى بضعة ملايين

لقد حطمت الذرة من قبل. حطمتها رذرفورد سنة ١٩١٩ اذ اطلق على ذرات النيتروجين دقائق الفا المنبعثة من مواد مشعة فحصل على ذرات الايدروجين (راجع مقتطف يناير ١٩٣٢ ص ٩ و ١٠) وقبله كان الدكتور بكرل العالم الفرنسي قد راقب انحلال الاورانيوم الذاتي فاكتشف ظاهرة الاشعاع التي فتحت عهداً جديداً في درس بناء المادة. وقد ثبت بعد اكتشاف بكرل وبعد تجربة رذرفورد ان عناصر كثيرة اما تتحلل انحلالاً ذاتياً

حمل الينا البرق نبأ تخطيم الذرة في معمل كافنديش بانكترا ثم اطلعنا في ناشر على وصف التجارب التي قام بها الدكتور كوكروفت و Cockroft والدكتور ولطُن Walton فاذا نتائجهما اضافات جديدة لمباحث اللورد رذرفورد التي وصفنا اهمها في مقالنا «رواية الالكترون وابطالها» في مطلع هذه السنة. ذلك ان الدكتور كوكروفت وولطُن وجدوا انه اذا اطلق على ذرات الليثيوم (ووزنه الذري ٧) بروتونات وقد زيدت سرعتها بفعل ضغط كهربائي قدره ٦٠٠ فولط حدث نوع جديد من تخطيم الذرة يصحبه انطلاق طاقة داخلية من رتبة ١٦ مليون فولط. والظاهر ان ذرة الليثيوم تجتذب اليها بروتوناً ثم تنحل الى دقيقتين من دقائق الفا، طاقة اندفاع كل منهما ثمانية ملايين فولط

ولما كان البروتون هو الدقيقة الموجبة الكهربائية في ذرة الايدروجين، ودقيقة الفا هي نواة ذرة الهليوم (وهي مؤلفة من اربعة بروتونات وكهرين) صح ان نقول اذن، ان الليثيوم وهو اخف الفلزات (Metals) اطلق عليها الايدروجين فاتحداً ثم انحلا الى

تصوير مواقع الحضارات القديمة من الجو

اتيح للمستترشارلز برستد نجل المستشرق العلامة الدكتور جيمس برستد ان يطير فوق المواقع الاثرية التي يشتغل بنقبها علماء من قبل معهد الآثار الشرقية بجامعة شيكاغو ، فصور بألة سينمائية مشاهد هذه المواقع في شريط طوله ١٢ ألف قدم. ومما قاله في وصف رحلته هذه انه طار من الرطبة الى بغداد في عاصفة رملية هوجاء حجبت عن انظار الطيار سطح الارض فكان يطير مهتدياً بالانباء اللاسلكية مستعيناً بها على تعيين موقع الطائرة فوق الصحراء خوف الضلال . ومع ان الكابتن اولي Olley سائق الطائرة لم يطر قبلاً فوق هذه البلاد تمكن من النزول في مطير بغداد كأنه يعرف المطير مغمض العينين . وفي الصباح التالي طارا فوق المنطقة العراقية التي تنقب فيها بعثة المعهد المذكور وهي على نحو خمسين ميلاً من بغداد ثم تقدما الى شيراز في بلاد فارس ولكن الغبار الكثيف اضطرهما الى الارتفاع بالطيارة الى علو ١٢ ألف قدم قبل النزول في شيراز . هناك تركا طيارتهما وذهبا بالسيارة الى پرسوپوليس عاصمة الامبراطورية الفارسية التي بناها داريوس العظيم حوالي سنة ٥٠٠ ق . م . ثم غلبها الاسكندر ذو القرنين على امرها . وقد وصف المستر برستد آثار پرسوپوليس بقوله « انها اروع بقعة أثرية في العالم القديم عدا الاكروبوليس في اثينا »

كالاورانيوم — واشهرها الراديوم والبولونيوم وغيرها — او تنحل انحلالاً اصطناعياً على طريقة حل رذرفورد لذرات النروجين

اما تجربة كوكروفت وولطن فلها وجه آخر . وهو ان هذا التحول في الذرة يصحبه انطلاق قدر كبير من الطاقة

ومع ذلك فان العالم بوث Bothe الالماني سبقهما الى هذا ايضا . فلا يخفى على قراء المقتطف (يناير ١٩٣٢ صفحة ١١٨) انه اطلق دقائق الفا من عنصر مشع — البولونيوم — على ذرات البريليوم فتحولت بعض ذرات الى كربون وصحب تحولها انطلاق نوع جديد من الاشعاع متوسط في قوته وشدة نفوذه بين اشعة غمما والاشعة الكونية . اي ان الطاقة التي صحبت تحول ذرة البريليوم الى كربون كانت اعظم قدراً من الطاقة التي انفقت في اطلاق دقائق الفا على ذرات البريليوم

ولقد حفزت هذه المباحث خيال الكتاب الى تصور حلول عهد قريب يتم لنا فيه خلق قدر كبير من الطاقة من قدر صغير جداً ، وتحويل الرصاص الى ذهب . والواقع ان هذا قد يتحقق في المعامل العلمية تحقيقاً ضيق النطاق لان نسبة دقائق الفا التي تصيب ذرات البريليوم في تجربة بوث الى الدقائق تطلق بنسبة واحد الى ٥٠ اما هذه النسبة في تجارب كوكروفت وولطن فواحد الى بضعة ملايين . ومع ذلك لا بد ان تسفر هذه التجارب عن شيء اكيد وهو زيادة معرفتنا ببناء قلب الذرة

تصوير الكبد بأشعة اكس

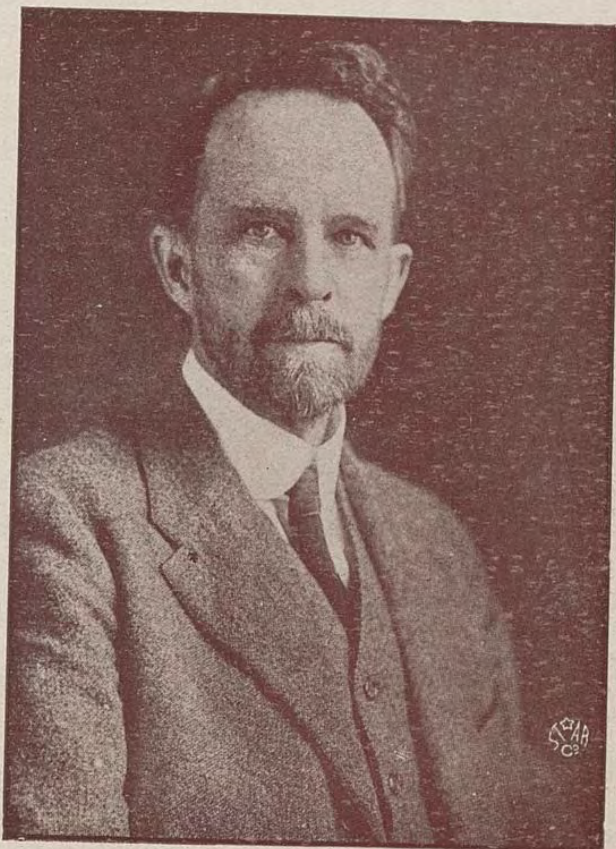
استنبط الدكتور ولس ياتير Yater احد اساتذة مدرسة الطب في جامعة جورجيتون الاميركية طريقة تمكنه من تصوير الكبد والطحال بأشعة اكس لتشخيص امراضهما. ذلك انه يستعمل محلولاً خاصاً من اكسيد الثوريوم الثاني ويحقنه في الشرايين ثلاث مرات في ثلاثة ايام متوالية فيظهر الكبد والطحال واضحين في صور اشعة اكس للاعضاء الداخلية، مع انهما لا يظهران فيها عادة. وهذه الصور تمكن الاطباء من اكتشاف اي تضخم فيها او وجود اي سائل في التجويف البطني او آثار السرطان او الزهري في الكبد وهل اي تضخم في جانب الجسم الايسر سببه تضخم الطحال او تضخم او قرحة في اي عضو آخر

والمادة المستعملة في هذه الحقن مركبة من الثوريوم وهو عنصر فلزي ثقيل الوزن مشع كالراديوم. الا ان مركبه المعروف باكسيد الثوريوم الثاني - وهو المستعمل حقناً في هذه الحالات - ليس مشعاً ولا ينجم عنه اي ضرر من هذا القبيل. وكان الدكتور رادت Radt الالماني اول من بحث فيه بغية استعماله في تصوير الكبد والطحال وذلك سنة ١٩٢٨ ولما كان الحقن به يدخل الى الجسم شيئاً غريباً عنه تمتصه بعض مواد الدم التي من شأنها تكتيل الاجسام الغريبة التي تدخل الجسم، ولما كانت هذه المواد كثيرة في الكبد والطحال فتجتمع هذا المركب الكثيف فيهما يجعل ظهورهما في صور اشعة اكس واضحاً

ولما كانت هذه المواد كثيرة كذلك في نخاع العظام فيمكن استعمال هذا المركب لتصوير عظام الجمجمة وتشخيص امراضها الحمى المصطنعة تشفى من الربو

قرر جماعة من اطباء شيكاغو انهم عالجوا ٤٣ مصاباً بالازما (الربو) - وهو داء يصعبه ضيق النفس - بحمى اصطنعوها في اجسامهم بالتيار الكهربائي تخفت وطأة الداء عليهم. وظل ١٩ من ٤٣ مصاباً مدة طويلة بعد العلاج لا يصابون بنوبات الداء

وقد بنى اطباء شيكاغو هذا العلاج على الملاحظة الآتية: ذلك انهم وجدوا ان الحمى التي تحدثها في الجسم الاصابة بالحمى القرمزية أو النزلة الصدرية أو خراج تسفر عن تحسين موقت في حالة الربو اذا كان المصاب بالحمى مصاباً به. لذلك استنبطوا كيساً يضعون فيه العليل بعد مسح جسمه بالزيت ولفه بالملايات ثم ترفع الحرارة داخل الكيس بالكهربائية الى درجة ١٠٤ فارنهایت وتحفظ على هذا المستوى ٨ ساعات تحت مراقبة الطبيب الدقيقة ولا يخفى على قراء المقتطف ان الشلل العام الناشئ عن اصابة زهرية عولج بادخال الملاريا الى الجسم فشفت حرارتها العليل من الشلل ثم استعملت الكينا فشفي المريض من الملاريا، وان الباحثين في معامل الشركة الكهربائية العامة تناولوا هذا الموضوع بقصد احداث الحمى بالتيار الكهربائي لان السيطرة عليه اتم من السيطرة على داء الملاريا وكان بحثهم يبشر بالنجاح



الاستاذ توماس هنت مورغن
صاحب نظرية العوامل الوراثية (Genes) في الوراثة

تصوير عوامل الوراثة

الوراثة مستقرة في نواة الخلية بل في اجسام دقيقة فيها تدعى الكروموسومات وبعد البحث في اسرار الوراثة وعلاقة الكروموسومات بها اخرج العلامة الاميريكي توماس هنت مورغن نظرية العوامل الوراثية (Genes) وملخصها ان كل كروموسوم مؤلف من عدة عوامل وراثية وان كل عامل فيها يختص بصفة من صفات الكائن الحي وان العوامل في الكروموسوم تصطف ازواجاً احدها اصله من الام والمقابل له اصله من الاب وكان علماء الاحياء يحسبون «العوامل الوراثية» وحدات نظرية كما حسبت الذرات والكهارب اولاً. ولكنهم لم يتفاوضوا عنها لانهم لم يجدوا تعليلاً لحقائق الوراثة المعروفة افضل من التعليل بها. ولكن الدكتور بلنج (Belling) يعتقد انه اظهر العوامل الوراثية للبيان بالتصوير الفوتغرافي

والظاهر ان حجم الكروموسومات في نوى الخلايا يختلف باختلاف الخلايا. فبعضها كروموسوماته صغيرة جداً لا تصلح للتصوير بطريقة بلنج الآن. وبعضها كروموسوماته كبيرة واشهر هذه الطائفة الثانية نباتات الفصيلة الزنبقية فاختار بلنج احداها وصور نواتها بطريقة الفوتغرافية الخاصة فكانت النتيجة صورتين (امام صفحة الصورة التي في مقالة آراء وحقائق جديدة من هذا الجزء) وفيها ترى عقود الكروموسوم وفيها حباتها التي تمثل العوامل الوراثية وهي كالسوم التي كانت ترسم قبل تصويرها

مصل ضد الروماتزم المستعصي

التي الدكتور برنك احد مشهورى اطباء نيويورك بحثاً طريفاً امام الجمعية الطبية الاميركية قال فيه ان بحثه وبحث اعوانه عن اسباب الداء المؤلم المعروف بداء المفاصل اسفرا عن العثور على مواد في الدم تقي من بعض اصناف ميكروبات الستربتوكوكس فقالوا ان هذه المواد لا يمكن ان تتكوّن في الدم الا بفعل الميكروب المحدث للداء. وعليه قرروا ان يبحثوا عن هذا الميكروب في الدم. فاستخرجوا من الدم بطرق بكتيرولوجية خاصة بعض ميكروبات الستربتوكوكس فوجدوا انها ليست من الصنف الفائع الفعال بل هي اليفة لطيفة كأنها اكتسبت المقدرة على المعيشة في الدم من دون استفزاز الجسم لمقاومتها مقاومة شديدة

فاستنبطوا هذه الميكروبات المستخرجة من الدم وحقنوا بها ارناب فاصيبت بنفس اعراض داء المفاصل المستعصي التي يصاب بها الانسان. ثم امتحنوا ما اصاب انسجة جسمها من التغير فوجدوه مطابقاً للتغير الذي وقع في انسجة الجسم الانساني المصاب بهذا الداء. وسبب ذلك الميكروبات التي ينقلها الدم من مركز عدوى كالاسنان أو اللوزتين الى المفاصل. ويرى الدكتور برنك ان افعل وسيلة لمكافحة الداء هو اصطناع مصل والحقن به لان ازالة الاسنان أو اللوزتين لا تكفي في حالة الروماتزم المستعصي. فاذا كانت الميكروبات مستقرة في المفصل — وهو الغالب — فازالة مركز العدوى لا تفيد الفائدة المطلوبة. ثم لابد

والعلماء مختلفون في طبيعته . فهم يدعونه
جرم رينموث الآن فاذا ثبت انه نجمة او
سيار صغير حق لمكتشفه ان يطلق عليه
الاسم الذي يشاء . واذا ثبت انه مذنب دعي
مذنب رينموث ١٩٣٢

اما الاستاذ جورج فان بيزبروك
Biesberoek احد علماء مرصد يركيز
الاميركي فيجزم انه نجمة وان اكتشفه من
اخم الاكتشافات الفلكية في العهد الاخير لا
يفوقه الا اكتشاف السيار التاسع بلوطو

الاشعة فوق البنفسجي والكساح

ببحث الدكتور نودسن (Knudson)
احد اساتذة كلية الطب بجامعة الاتحاد في
ألباني في مقدار ما يحتاج اليه الجسم من
الاشعة التي فوق اللون البنفسجي لكي يشفي
من الكساح وجرب تجاربه في الفيران فوجد
ان الجسم يحتاج الى قدر اقل كثيرا من القدر
الذي كان يُظن لازما لذلك

فقد وجد مثلاً في تجاربه ان القدر اللازم
من هذه الاشعة لشفاء كساح فأر يختلف
 باختلاف المساحة المعرضة من جسمه للضوء .
 فتعريض ما مساحته ربع بوصة مرعبة عشرين
 دقيقة كل يوم في اثناء ثلاثة اسابيع يكفي .
 ويمكن الحصول على النتيجة نفسها من تعريض
 ما مساحته بوصة مرعبة مدة خمس دقائق كل
 يوم في اثناء ثلاثة اسابيع او ما مساحته بوصة
 مربعان مدة دقيقتين ونصف دقيقة او ما
 مساحته ثمن بوصة مرعبة مدة اربعين دقيقة

للمصاب من العناية بغذائه ورياضته وتناول
 بعض المقويات وحفظ الامعاء — وهي مركز
 لانبثاث العدوى منه يلي الاسنان واللوزتين —
 في حالة طبيعية

جار جديد للارض

اكتشف الدكتور كارل رينموث
Reinmuth الألماني في ٢٧ ابريل الماضي
جرماً فلكياً صغيراً أثار عناية العلماء به لانه
من اغرب الاجرام التي في النظام الشمسي .
 فمدة دورانه حول الشمس سنتان وهي اقصر
 من مدة دوران اي مذنب معروف . يليه في
 ذلك مذنب انكي Encke اذ مدة دورانه
 ثلاث سنوات واربعة اشهر . ثم ان جرم
 رينموث قريب جداً من الارض يبعد عنها نحو
 ثمانية ملايين ميل وقد رصد منذ اكتشافه في
 مرصد هيدلبرج وهارفرد ويركيز فثبت انه
 مر في فلك الارض في ١٦ مايو على ثمانية
 ملايين ميل منها . والظاهر انه متوسط في
 شكله بين النجمات والمذنبات . وقطره نحو
 ثلاثة اميال . فاذا صار على اقرب قربه الى
 الارض اصبح من القدر الثاني عشر ولا
 تستطاع رؤيته حينئذ بالعين المجردة . ولا يخفى
 ان النجمة اروس اصبحت على ١٤ مليون
 ميل من الارض لما صارت على اقرب قربها اليها
 من نحو سنتين

فاذا كان نجمة فهو اول نجمة دخلت
 فلك الارض في اثناء سيرها حول الشمس .
 والحسابات الفلكية تدل على انه سوف يمر في فلك
 الزهرة اذ تصبح على اقرب قربها الشمس

توت عنخ امون

مصر واصول الحضارة

(تابع المنشور على الصفحة ١٤٦)

او حبات الشعير ونسبتها للام الكبرى وهي بالطبع تمثل المحاولات الاولى لتشخيص هذه الاشياء الطبيعية وتحويلها الى الشكل الانساني رى في هذه الاشكال دور الانتقال في تحويل التيمة الى الالهة ، وهي المحاولات الاولى لتشخيص التيمة في شكل مادي

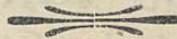
واذا كان الكثر الراء الذي وجد في مقبرة توت عنخ آمون قد جعل العالم يقدر اثر المصريين الاقدمين في تاريخ الحضارة في سهولة اكثر مما لو كنا قضينا السنين في الدعاوي الجديدة فان هناك حوادث اخرى تحدث الآن تؤيد التفسير العام لهذا الدليل

يكشف الاستاذ « جورج ريزز » تاريخ « اتيوبيا » ويظهرنا للمرة الاولى على مقدار تسلط المصريين الاقدمين على السودان ، وعلى الحضارة العالية التي نشرها المصريون حتى الجنوب الاقصى لوادي النيل ، ولهذه المكتشفات خطر خاص لقراء هذا الكتاب (المؤسس على عمل ذلك الاستاذ في مصر) لانها تقدم الايضاح النوعي لطرائق نشر الحضارة وبواعثها . وفي هذا الامتداد للتأثير المصري مارس المصريون هناك بعض العادات (مثل صناعة بناء الاهرام وبيع الضحية الانسانية) بعد ان كانت تمارس في مصر نفسها قبل ذلك بقرون وكانت بواعث ذلك التسلط في الحقيقة

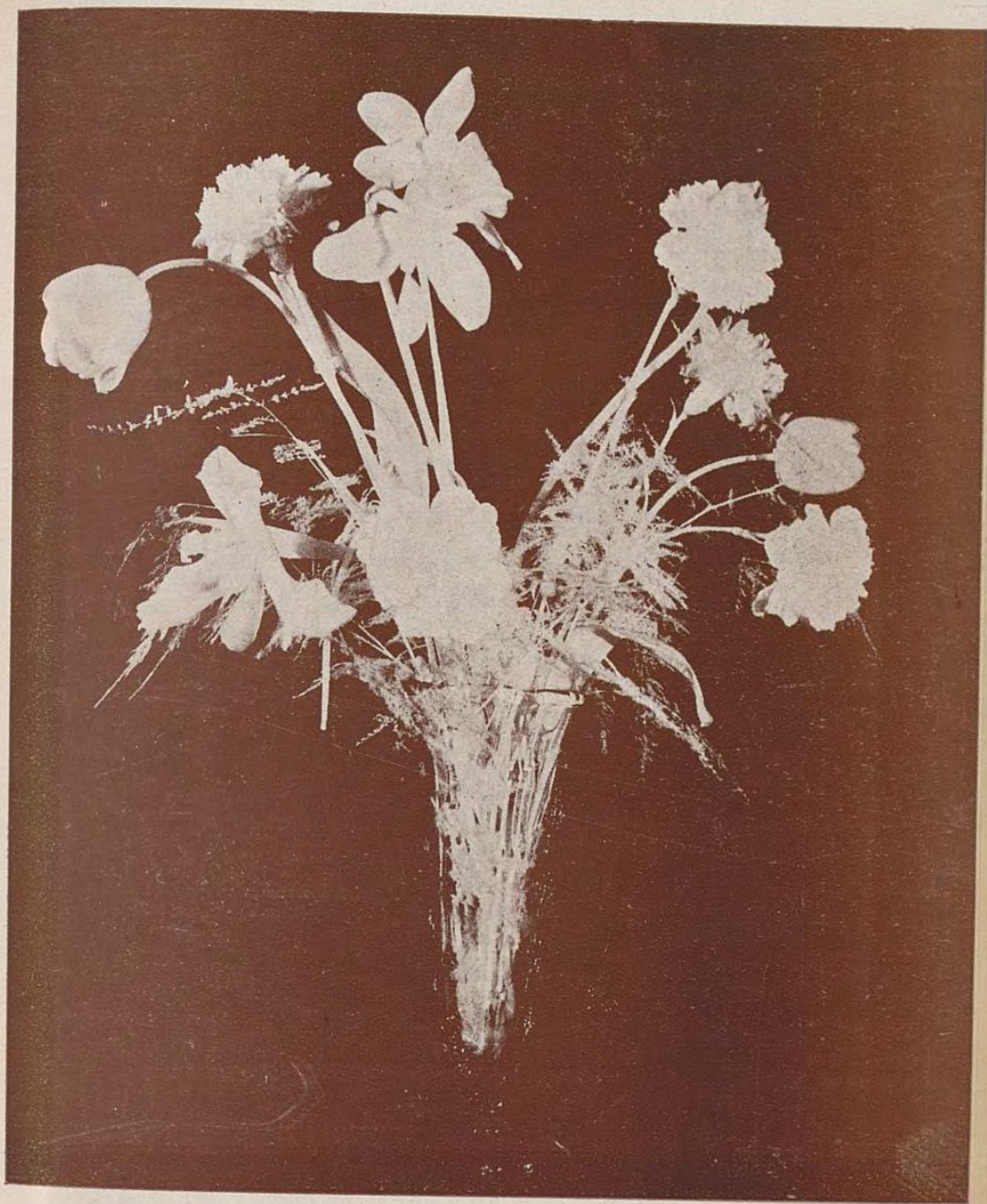
ان المصريين كانوا يحصلون من السودان على الراتنج والبخور والعاج والابنوس وجلود النور وريش النعام والعبيد الزوج الى غير هذا مما كانوا يعتبرونه اساسيا لهم ، ولكن مناجم الذهب المنتشرة في الصحراء الشرقية من خط عرض مدينة طيبة حتى الحبشة جنوبا كانت اهم الاسباب لاحتلال السودان وبلاد النوبة واصبح المصري الذي يشترك في استغلال الصحراء الشرقية حلقة من الحلقات الثقافية بين وادي النيل وحوض البحر الاحمر او قل في المكان الذي كان له ا كبر شأن في تاريخ العالم القديم وهناك دليل آخر على ان المصريين وضعوا اساس المعرفة العلمية والتجربة العلمية فالاستاذ « جيمس ه . برستد » الاستاذ في جامعة « شيكاغو » نشر حديثا مقدمة ورقة بردي طيبة يرجع تاريخها الى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وهي تسكب ضوءا جديدا على المعرفة العلمية في مصر القديمة . وكان الجميع يعرفون قدرة المصريين التجريبية ومهارتهم في تأليف التعاويذ السحرية ولكن الكثيرين كانوا يجهلون ان من احد عشر قرنا قبل طاليس « Thales » والمدرسة اليونانية كان في مصر رجال يقتفون طرائق علمية في المشاهدة والاستدلال العقلي كانت كالوحي أو التنزيل ، وعلى كل فالاكشاف يتفق مع ما درسناه في مناحي البحث المختلفة وكل هذا يدل على ان المصريين خلقوا الحضارة وابتكروا فنونها الاساسية واوجدوا عقائدها وقوانينها العلمية التي كانت التعبير المادي والعقلي لهم عبد الحميد يونس

الجزء الثاني من المجلد الحادي والثمانين

صفحة	
١٢٥	الفضاء بين النجوم (مصورة)
١٣٠	حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر . للدكتور محمد شاهين باشا (مصورة)
١٣٧	آراء وحقائق جديدة . للمستمر مكوشتن (مصورة)
١٤٦	مصر واصول الحضارة . للاستاذ الدكتور إليوث سميث (مصورة)
١٤٩	فلسفة الادب . للاستاذ مصطفى صادق الرافعي
١٥٦	العلم والفلسفة والاخيلة الشعرية . للامير مصطفى الشهابي
١٦١	قبيلة عربية من اصل ايطالي . لطف فوزي
١٦٥	فوضى العالم ومسؤولية العلم . لمعاوية نور
١٧١	المعنى التائه . (قصيدة) لحسن كامل الصيرفي
١٧٣	نوايغ العرب في العلوم الرياضية . لقدري حافظ طوقان
١٧٦	العلم يكشف خفايا الجرائم . لعوض جندي
١٨٥	فلسفة التاريخ الاسلامي . لمصطفى جواد
١٩١	القضايا الاجتماعية الكبرى . للدكتور عبد الرحمن شهبندر
١٩٧	العوامل الوراثية والغدد الصماء . للدكتور شريف عسيان
٢٠١	الكوميديا الالهية . لناشد سيفين (مصورة)
٢٠٦	مدينة الاحلام . (قصة) للدكتور ناجي
٢١٦	الراهبة . (قصيدة) لالياس فرحات
٢١٨	الازمة الاقتصادية العالمية . لفؤاد نصار (مصورة)



٢٢٨	باب المراسلة والمناظرة * الحضارة الغربية وانصاف اليهود . الرد . المادة والنور وآراء الاستاذ مشرفة
٢٣٢	باب الزراعة والاقتصاد * ترقية لزراعة ومنتجاتها . غبطان النماذج . الري . حالة الفلاح . الملاك . المعارف الزراعية
٢٣٧	مكتبة المقتطف * امراء الشعر العربي . اشعة وظلال . الصناعات الزراعية . صور جديدة من الادب العربي . الخطرات . الفرق الاسلامية . تفسير الالفاظ الدخيلة . طريقة مندي . سلم اللسان . كتاب الاغاني . ذكرى الامير فؤاد ارسلان
٢٠١	باب الاخبار العلمية * وفيه ٨ نبذ (مصورة)



ضمة ازهار وضعت في غرفة مظلمة ووجهت اليها امواج الاشعة التي نحت الاحمر ، فلم تتبينها
العين البشرية وانما تبينتها عين الآلة المصورة الخاصة بذلك وصورتها